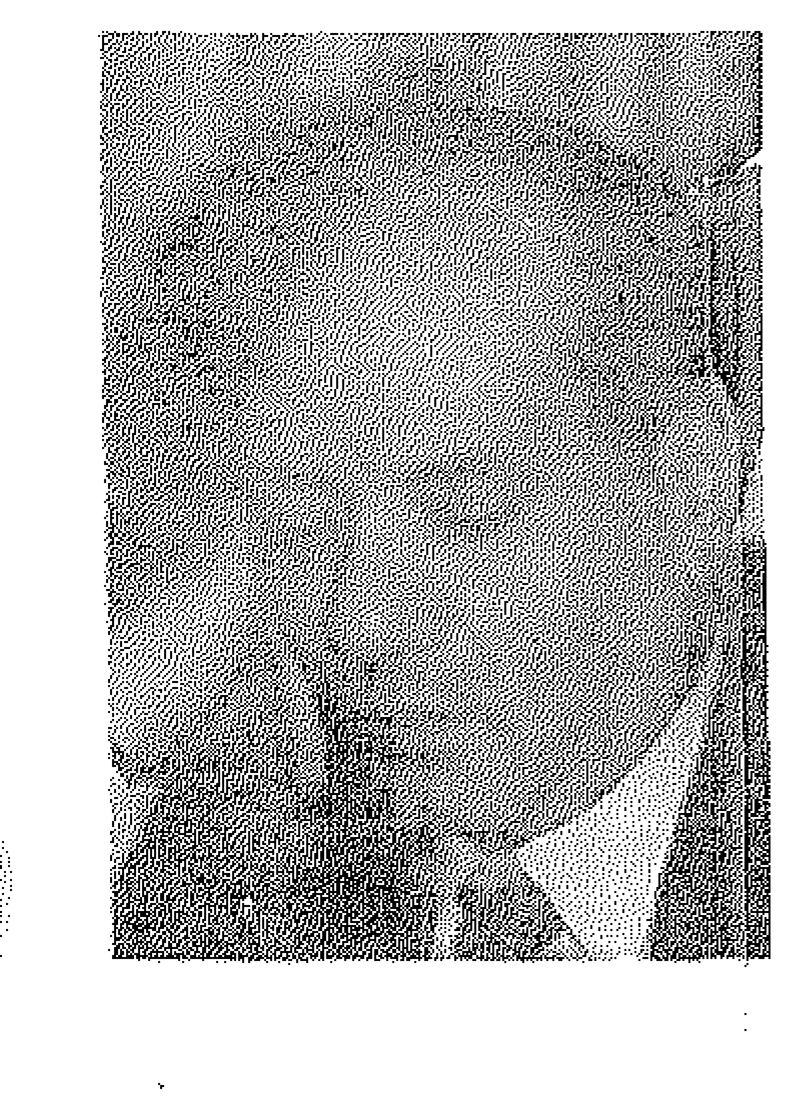
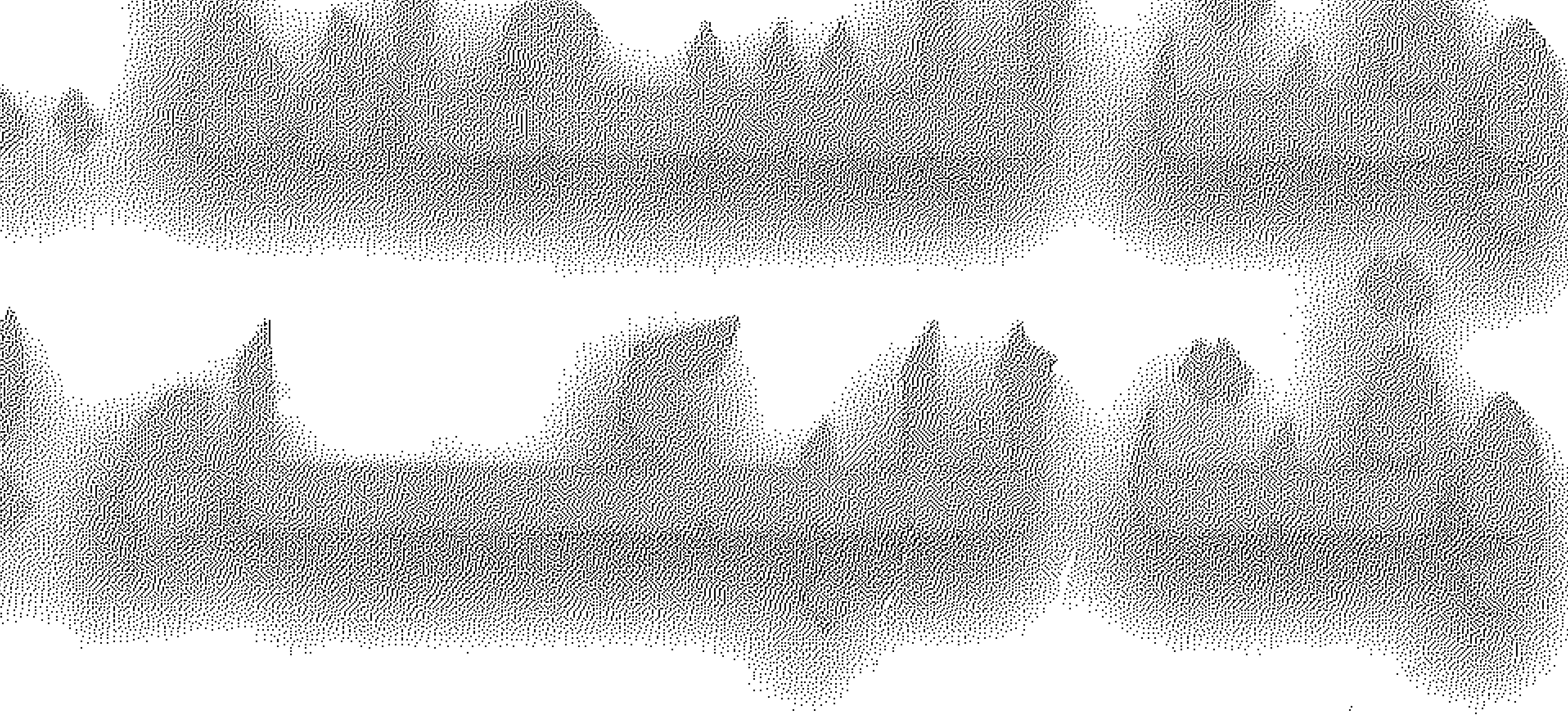


عبدالوهاب مطاوع



عبد الوهاب مطاوع

وقت للسعادة..
وقت للبكاء!

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

الناشــر : **الـدار المصريـة اللبنانيـة**

١٦ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ٢١٥٦/ ٩٣

الترقيم الدولى : 7 - 055- 270 - 977

طبـع : **عربية للطباعة والنشر**

العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م

الطبعة الثانية : ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م

الطبعة الثالثة : ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦م

الرسوم الداخلية : محمد قطب

تصميم الغلاف : عمرو فهمى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

صدق الله العظيم

تقديم

تماماً مثل جرّاح العيون حين يمسك بمشرطه الدقيق ليجرى عملية جراحية داخل مآقى العيون ، ويدعو الله أن يساعده على إنقاذ البصر وشفاء المريض الذى لجأ إليه .. يمسك الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بقلمه الرقيق ليجرى به عمليات إنسانية تتعلق بأحسيس القلوب ومشاعر النفوس ورؤى البصائر .

كم قرأنا له وهو يواسى الحزانى المهمومين .. أو ليبدى النصحية الخالصة لظالم يجور على الحقوق ، أو المظلوم يستجير به من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

يعالج كل هذه الأمور بحكمة بالغة ، وعدالة الفطرة الإنسانية التى أودعها الله فى قلوب الناس ، ويستخدم أسلوباً عفيفاً راقياً ، تتلألأ الكلمات فيه كحبيبات البلسم الشافى من الأدواء ، أو كقطرات الرحيق الذى يخفف عن النفوس ما تلاقيه من أشكال السوء وأنواع العذاب .

اتخذ من الصدق كل الصدق منهجاً للتعبير ، وصراطاً مستقيماً هداه الله إليه ، ليصل إلى قلوب قرّائه الذين يحرصون كل الحرص على أن ينهلوا من نبع مقالاته وموضوعاته وقصصه وابداعاته الأدبية الأخرى ، التى تتسم بمزيج رائع حلو المذاق وحسن القبول ، من البلاغة والثقافة والفلسفة والتاريخ والشعر وحكمة القدماء والمحدثين .

و من أجل هذا استطاع الكاتب الكبير الاستاذ عبد الوهاب مطاوع

أن يصل إلى قلوب القرّاء من أقصر وأصدق طريق .. وصعد درجات النجاح والتفوّق فى أعماله الأدبية والصحفية ، كنائب لرئيس تحرير جريدة الأهرام ، وكرئيس لتحرير «مجلة الشباب» التى تصدرها مؤسسة الأهرام ، وكمشرف على الباب اليومى «بريد الأهرام» الذى جعله منبراً حراً لكل الراغبين من أصحاب الرأى وأصحاب المظالم، ولكل الراغبين فى مساعدة الآخرين ، ولكل اللاجئين إليه من ذوى الحاجات .. كما جعل من الباب الاسبوعى «بريد الجمعة» منتجعاً لجرحى القلوب وللمتضررين من تصاريف الحياة .

وحين حصل الكاتب على جائزة مصطفى أمين وعلى أمين الصحفية، كتبوا له فى صك الشهادة : انه «أحسن كاتب يكتب فى المسائل الإنسانية» .. وهو قولٌ صدقٍ وحق ، ينطبق تماماً على أوضح مايتصف به هذا الكاتب الأديب الإنسان .

وقد سبق للدار المصرية اللبنانية أن قدمت له من قبل كتاب «العيون الحمراء » [صدر فى طبعتين متتاليتين خلال شهور قليلة].. ويسعدها اليوم أن تقدم له كتابَ «وقتٌ للسعادة .. وقت للبكاء » ليكون الكتاب الرابع عشر من درر الابداع التى كتبها الاستاذ عبد الوهاب مطاوع ، ليواصل رسالته فى نشر التعقل الحكيم والموعظة الحسنة ، وترطيب القلوب بأرق الكلمات .

ولله كل الفضل فى النجاح والتوفيق .

٢٥ يناير ١٩٩٣

مختار السويفى

مقدمة الطبعة الثالثة

لم أكتب مقدمة لهذا الكتاب حين صدرت طبعته الأولى فى عام ١٩٩٣ ، ولا حين صدرت طبعته الثانية بعد ذلك بعام ، ولا غرابة فى ذلك لأننى لا أضيق بشىء مثلما أضيق بكتابة مقدمة لأحد كتبى ، وأحاول دائماً التملص من هذا الواجب الثقيل الذى يتمسك به الناشرون ، ومن عجب أننى لا أضيق بكتابة مقدمة لكتاب يصدره غيرى من المؤلفين ، أقدمه بها للقارىء وأحدّثه فيها عن الكتاب الذى سيقرأه فى الصفحات التالية ، وأكاد لا أعتذر عن هذه المجاملة البسيطة لمن يطلب ذلك منى ، بشرط أن يصبر على حتى أجد الوقت المناسب لقراءة أصول كتابه . . فإذا كان من أصحاب «النَفَس الطويل» فلسوف يصبر علىّ إلى أن أجد الفرصة المناسبة لقراءة الكتاب وكتابة مقدمته . وإذا لم يكن كذلك ضاعت منى فرصة أداء هذه المجاملة البسيطة .

وحين طُبع هذا الكتاب فى طبعته الأولى راح صديقى الأديب الأستاذ مختار السويفى مستشار النشر للدار المصرية اللبنانية ، يطاردنى لكى أكتب مقدمته بصبر عظيم ، إلى أن اقترحت عليه فى النهاية أن يكتبها هو بدلاً منى فاستجاب مشكوراً ، وانزاح عن صدرى عبء ثقيل . ومنطقى فى ذلك هو أنه أسهل كثيراً للكاتب أن يقدم غيره للآخرين من أن يقدم لهم نفسه .

وكتابى هذا ليس بحثاً أدبياً ولا علمياً حتى أكتب له مقدمة أشرح فيها المنهج الذى اتبعته فيه . . فما الذى يدعونى لأن أكتب له مقدمة لن تضيف

إلى القارىء شيئاً جديداً ؟ ومع ذلك فإن صديقى الأستاذ مختار السويفى يصرّ هذه المرة ونحن بصدد صدور الطبعة الثالثة من هذا الكتاب على أن أكتب له مقدمته بنفسى ، ولا مفر من الاستجابة لمطلب الصديق ، وإن لم أكن متحمساً له . . ولا مفر من أن أقول لك عزيزى القارىء أن فى هذا الكتاب كما فى كل كتبى الخمسة والعشرين التى صدرت حتى الآن ، بعضاً من نفسى ومن ذوْب أفكارى ومشاعرى وخطراتى ورؤيتى الخاصة للحياة ، فإذا كنتَ قد تقبلتَه قبولاً حسناً فى طبعتيه السابقتين بدليل نفادهما خلال عامين فقط من صدورهما ، فما حدث ذلك «على علم عندى» كما زعم قارون جهلاً وغروراً فحق عليه عقاب ربه ، وإنما كان ذلك فضلاً من الله الخالق العظيم ، ثم فضلاً منك أنت أيها القارىء الكريم .

وقديماً قال ابن عطاء الله السكندرى فى الحِكَم العطائية :

«من مدَحك فإنما قد مدَح مواهب الله عندك ، فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك» .

فاللهم اجعلنا ممن لا تغيب عنهم هذه الحقيقة الإلهية أبداً فينسون أنفسهم . . واللهم اجعلنا ممن تتردد فى أعماقهم دائماً وأبدا كلماتك التامات :

﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ «صدق الله العظيم» الآية ٢٩ من سورة التكوير » .

عبد الوهاب مطاوع

أول مايو ١٩٩٦

نــوم الظهــيرة !

** تزوجته وهي طالبة بالثانوية العامة عمرها ١٧ سنة. أصرت على رفضه لكن أباها صمم على أن يزوجها له .. ناقشها في أمره بمنطق بعض الآباء الذي لا يقيم للمشاعر العاطفية وزنا كبيرا . قال لها ماذا يعيبه ؟ .. مهندس وشاب والمستقبل مفتوح أمامه .. ولم تنجح حججها لرفضه في اقناعه .. ثقيل الظل ؟ وهل تريدين ان تتزوجي ممثلا كوميديا ؟ لا يهتم بمظهره ؟ وهل هو عارض أزياء .. هكذا يكون مظهر الناس الجادين .. تريدين استكمال دراستك الجامعية ؟ وماذا يمنع استكمالها وأنت زوجة وأم ؟ لا يتحدث عن الحب ولا ينشدك كلمات الغزل ؟ وهل هو مطرب عاطفي ؟ لم تحبيه ولم تتقبليه نفسيا ؟ سيحدث كل ذلك بعد الزواج فلا تتعجلي الأمور .

■ وهكذا ضاقت الحلقة حولها وسلمت لإرادة أبيها وتزوجته وبدأت معه حياتها الجديدة ..

وفى العام الأول من زواجهما ترسخ نفورها منه واستقر في زوايا قلبها . وساهم في إحكام غلق أبوابه دونه ما لمسته من بخله المخجل معها ومع

لمسته من بخله المخجل معها ومع الجميع . وجمود مشاعره وافتقاده لأية لمسة عاطفية أو شاعرية . وبعد سنوات قليلة التحقت خلالها بالجامعة كانت المشاعر قد تحجرت تماما وأصبح طعم الحياة كئيبا ومملا .

في الصباح يخرج إلى عمله . وتخرج هي إلى كليتها ، يلتقيان في المسكن الخالي في الظهيرة يتناولان طعام الغداء بلا كلمة واحدة في معظم الأحيان .. يغادر المائدة إلى غرفة النوم .. يدخل الفراش يسحب الغطاء فوقه .. يروح في نوم عميق لمدة ساعتين لو انفجرت خلالهما بجواره قنبلة لما أحس بها .

يستيقظ في أول المساء .. يرتدي ملابسه ويخرج ليلتقي بأصدقائه ويعود آخر الليل طالبا العشاء ثم يخلد إلى النوم العميق حتى الصباح .

يوماً بعد يوم .. وشهراً بعد شهر بلا تغيير .. ولا محاولة لتجديد الحياة أو خلق المشاعر . أو نسج خيوط مشتركة من الاهتمامات ورزقت بطفل وأملت أن يقرب الوافد الجديد بينهما فلم تشهد حياتهما أى تغيير .. فكرت في حل آخر لحياتهما، دخلت عليه غرفة النوم بعد الغداء وعرضت عليه أن تنقطع عن الدراسة وتتفرغ له ولطفله مقابل أن يعطيها ما تفقده من حب وحنان واهتمام، وأن يخرج معها مرة أو مرتين كل أسبوع واضعا يدها في يده .. وأن يصحبها مرة كل شهر إلى السينما أو المسرح .. أن يسافر معها مرة كل ستة شهور وإلى أى مكان لمدة أيام .. أن يقول لها في الصباح: صباح الخير يا حبيبتى وفي المساء تصبحي على خير يا روحى ..

أن يمضي فترة الظهيرة معها يتحدثان عن شئون الحياة .. أن يمضى معها بعض الأمسيات أو يعود لها مرة كل فترة بهدية صغيرة تشعرها بحبه لها واهتمامه بأمرها.

وكان يستمع إليها وهو يغالب ثقل النوم الذي يتسلل إليه بتأثير العادة والوجبة الدسمة، فقال لها بصوت بطيء : هذا كلام أفلام ..

ثم سحب الغطاء .. وارتفع شخيره بعد لحظات عازفا أنغام الخيبة والإحباط !

وتخرجت من كليتها وأنجبت طفلة أخرى لم تضف إلى علاقتهما معا أي جديد .. وازداد جفاف المشاعر بينهما .. وتعدى حدود السلبية إلى حدود الإيذاء. إذا حاولت مداعبته نهرها وإذا وضعت بعض خطوط الماكياج في البيت لتشعر بأنوثتها معه سخر منها، وإذا حاولت تجميل علاقتها الخاصة معه التي تحولت بحكم الملل والعادة إلى طعام حيواني يسد رمق الجائع حين يفترسه الجوع .. هزأ بمحاولاتها. وأرادت ذات مرة أن تستقبل عودته بعشاء شاعرى على ضوء الشموع فتساءل بغباء : هل انقطعت الكهرباء ؟

وسلمت باليأس والإحباط وطالبته أن يسمح لها بالعمل. ووافق بشرط أن تسلمه مرتبها كل شهر. وقبلت بكل ترحيب فهي لم ترد العمل إلا لرغبتها في تجديد حياتها بعد أن افترسها الملل .. وعملت بإحدى الشركات وألحقت طفليها بمدرسة للحضانة وأقبلت على عملها الجديد

بحماس ، وتفانت في خدمة مديرها الذي عملت سكرتيرة له، واكتسبت ثقته الكاملة وكان مديرا ناجحا ومهذبا مع الجميع ..

وشهرا بعد شهر بدأت تحس بدبيب الحياة يتحرك في روحها الخامدة.

وبدأ ميل جارف يجتذبها إلى شخص مديرها .. ثم أصبح فارس خيالها المحروم تفكر فيه وهي ترقب زوجها النائم في فراشه بعد الغداء وتتمنى لو كان زوجها مثله، أو لو كانت قد تزوجته، وترافقها صورته في أفكارها طوال ساعات المساء التي يغيب فيها زوجها في سهراته «المقدسة» مع الأصدقاء .. ويصاحبها في نومها إلى جواره في الليل وهي تسمع عزف شخيره المزعج وتسأل نفسها ترى هل يعزف « الملائكة » من أمثال مديرها مثل هذا العزف المنفر ؟

وأدركت عمق الهاوية التي تقترب منها، فقررت أن تنقذ نفسها قبل فوات الأوان، وطالبت زوجها ذات يوم بأن يتخلى هذه المرة عن عادته في النوم بعد الغداء وان يستمع إليها .. ونظر إليها بضيق وهو يتحرك إلى غرفة النوم .. ولاحقته حتى جلس في فراشه ثم سألها عما تريد الكلام فيه.. فأعلنته انه تريد الاستقالة من عملها !

وتثاءب وهو يتساءل عن الأسباب .. فلم تستطع أن تفصح له عن حقيقتها، لكنها قالت له إنها فقدت حماسها له، وأنها تخشى أن تتعرض فيه لبعض المضايقات في المستقبل فاستسخف الفكرة .. واستسخف تفكيرها في أن تضحي بمرتبها الكبير لمجرد الخوف من مضايقات قد تحدث في المستقبل ونصحها بالعدول عن ذلك.

ثم سحب الغطاء .. ونام !

وبكت بدموع غزيرة وهي تراه يستسلم في سهولة للنوم في اطمئنان .. وتمنت في أعماقها : لو كان قد حاصرها بالأسئلة عن نوع هذه المضايقات التي تخشاها .. وممن تتوقعها وماهي مؤشراتها ولماذا تدعوها للاستقالة .. ثم يقسم عليها بأنها لن تذهب للعمل مرة أخرى ولو كان مرتبها هو موردهما الوحيد، فتبكي هي بين يديه وتقسم له أن شيئا مما جنح إليه خياله لم يجر في خاطرها .. لكنها أرادت فقط أن تتفرغ لأطفالها وله .. فلا يتنازل عن رأيه أبدا ويعلنها باصرار أنها لن تذهب للعمل غدا .

لكنه لم يفعل للأسف .. واستسلم لاطمئنان الغافلين وذهبت إلى عملها في اليوم التالي فلم تجد مديرها في مكتبه .. وانتابها القلق والضيق لتأخره عن الحضور على غير عادته .. ولم تمض دقائق حتى تلقت مكالمة تليفونية تنبئها بأنه مريض ونقل إلى مستشفي خاص بعد أزمة مرضية طارئة ، وفقدت كل مابقي من أسلحة مقاومتها وانفجرت فى بكاء عنيف في مكتبها ثم غادرته إلى المستشفى بلا وعى .. واندفعت تقتحم غرفته وما أن التقت عيناها بوجهه المبتسم الحنون .. حتى انهمرت الدموع من عينيها كالمطر .. ومد إليها يده ليصافحها فإذا بها تلتقط يده في لهفة وتمنع نفسها بصعوبة من أن تقبلها !

ونظر إليها فى فهم وتأثر ولمعت دمعة في عينيه .

وعادت إلى بيتها منهارة .. وانخرطت فى بكاء مرير وانزعج طفلاها

وسألاها عما ألـمّ بها فلم تدر بماذا تجيب . وعاد زوجها من الخارج فأبلغه طفلاه بأن أمهما تبكى بلا انقطاع منذ عادت من عملها فلم يبد أى انزعاج .. وطلب منها بهدوء قاتل أن تعد له طعام الغداء ليأكل وينام ، ونهضت متثاقلة فأعدت له المائدة ورفضت أن تشاركه الطعام ورفض طفلاها أن يتركاها وحيدة . وعزفا عن الأكل تأثراً بحالتها . وتناول هو طعامه وحيداً ثم اتجه إلى غرفة النوم فوجدت نفسها تنهض بانفعال وتجذبه من ذراعه بشدة حتى كاد يسقط على الأرض وهي تصرخ فيه : لماذا لاتسألنى عما أعانيه .. لماذا لاتحس بوجودي لماذا تعاملني وتعامل أطفالك بهذا الجمود وهذه القسوة وهذا البخل فى المال وفي العواطف .. لقد حاولت طوال ١٤ عاماً أن اقترب منك وأنت تصر على أن تبتعد عنى... فلماذا لاتحاول استردادى قبل أن أضيع منك إلى الأبد أو أقع فى هوى رجل آخر يعطيني مالا تعطيني إياه .. ألا تحبني ؟ .. ألا تحب أولادك ؟ ... ألا تريد لهم أن ينشأوا في بيت مستقر بين أبوين سويين ؟

ثم توقفت فجأة وقالت له بكل حقد الدنيا : طلقني !

ونظر إليها مندهشاً ثم قال لها بهدوء : ماذا جرى لك ... هل جننت؟

ثم نحاها عن طريقه ودخل غرفة النوم !.

ولم تستطع الذهاب إلى عملها في اليوم التالى وحصلت على أجازة لمدة أسبوع لم تتصل خلاله بمديرها .. وعافت نفسها كل شيء حتى

الاهتمام بشئون طفليها .. وزوجها يواصل روتين حياته اليومي بلا تغيير وكلما فاتحته في طلب الطلاق رفض مناقشة الأمر بغير انفعال وعادت إلى عملها بعد الأجازة فقدمت طلبا بنقلها من مكتب المدير العام إلى إدارة أخرى .. واستدعاها المدير بعد عودته من مرضه وسألها برقة عن سبب طلبها للنقل فلم تجبه بغير الدموع .. واحمر وجهه خجلا وطالبها بمعاودة التفكير في الأمر وطلب لها كوبا من عصير الليمون فلم تستطع يدها المرتجفة حمله فقدمه لها بيده .. وراح يحاول إقناعها بالاستمرار في العمل معه مؤكدا لها أن قربها منه يساعده على تحمل عناء العمل ويخفف من عناء حياته الخاصة ، وأنه لا يسمح لنفسه بتجاوز حدود المشاعر الخرساء مع زوجة رجل آخر ، لكن هذه المشاعر نفسها ترطب من جفاف الحياة وتعين المهمومين على احتمال أقدارهم ! وتلاقت العيون في فهم صامت.

وعادت إلى بيتها وهي أكثر إصرار على وضع حل لمشكلتها مع زوجها .. وطالبته من جديد بالطلاق فلم يتزحزح عن موقفه .. ولجأت الى أهلها لتستعين بهم عليه فلم يناصرها أحد . وتركز حديث الأهل والأصحاب على الأطفال ومستقبلهم.

وجرى كل ذلك تحت بصر زوجها وسمعه من غير أن يخرج على إطار حياته المطمئنة أو يحاول الأقتراب من زوجته ومساعدتها على النجاة.

وواصلت الحياة سيرها الكئيب .

ثم عادت بعد أيام من عملها فوجدت طفليها يلهوان بإعادة تركيب

لعبة معقدة اشترتها لهما من مرتبها فدخلت إلى غرفة نومها وبدلت ملابسها وخرجت إلى الصالة ، فسمعت طفلتها سوسن تسأل شقيقها بصوت هامس : مع من سنعيش اذا تركت ماما بابا ؟

فتوقفت مذهولة .. وأرهفت سمعها لتسمع رد خالد الصغير على سؤال شقيقته .. ورأته يتوقف عن اللعب حائرا ويفكر قليلا ثم يقول في ضيق : لا أعرف !

فامتلأت عيناها بالدموع .. وقفز وجه مديرها الباسم إلى مخيلتها .. فهزت رأسها بعنف كأنها تحاول طردها منه ثم اتجهت متظاهرة بالمرح إلى طفليها وهي تدعوهما لمشاركتها في إعداد وجبة مبتكرة لطعام الغداء وأسرع إليها الطفلان مبتهجين بهذ الدعوة التي ستقدم لهما مسرات جديدة . ووزعت الأم الأدوار والمهام ووقف الجميع في المطبخ يعملون في حماس ومرح وهم يتبادلون التعليقات والضحكات والتوقعات عما ستكون عليه هذه الوجبة الجديدة فإذا بصوت رتيب كئيب يأتى اليهم من الصالة قائلا:

– الغداء بسرعة .. أريد أن أنام ! .

كانت عاقلة .. وحكيمة !

** دهشت حين سمعت بنبأ زواجه ، وتمنيت أن أرى تلك الفتاة التي استطاعت أن تقنع هذا الصديق « المتوحد » بأن يتزوج . واختفى الصديق العجيب عدة شهور ثم ظهر في جلسته الليلية المعتادة بالمقهى.. واقتربتُ منه مهللاً ومهنئا بالزواج السعيد ، فأجابني في هدوء بأنه قد طلق زوجته منذ أيام ! وأحسست بحرج شديد وهممت بأن أعتذر له عن الإشارة لهذا الأمر المحرج ، لكني وجدته باسماً هادىء الأعصاب لا يحس بالحرج ولا بالضيق ، فتشجعت بعد قليل وسألته عن سبب طلاقه لزوجته فأجابني باسماً بسخريته المعتادة :

– لأنها كاذبة ! وأنا لا أحب الكذب !

وسكتُّ وأنا أقاوم رغبة طاغية في أن أعرف منه تفاصيل تجربته التي خرقت المألوف في سرعة الزواج .. وسرعة الطلاق ، فسألته بعد قليل :

– وماذا ظهر لك من كذبها إلى حد أن تدمر حياتك الزوجية بهذه السرعة ؟

فاتسعت ابتسامته وقال وهو يرشف قهوته ويدخن بتلذذ غريب :

ـ فوجئت بها بعد أسبوع واحد من زواجنا تقول لي: ان البيت « عاوز فلوس » فُدهشت لهذه الكذبة وقلت بيني وبين نفسي لعلها من آثار حياتها بين أهلها الذين كانوا فيما يبدو يتساهلون معها في « الكذب » .. ورجوت أن تتخلص تدريجيا معي من هذه الآفة .. لكنها ظلت بعد ذلك تقول لي كل يوم إن البيت « عاوز فلوس » فعرفت أنها مدمنة «للكذب » ولا أمل في إصلاحها فتفاهمنا وديا على الطلاق وانفصلنا بسلام !

واختلط عليَّ الأمر فلم أفهم شيئا .. وسألته محاذرا : ولكن أين الكذب فيما قالت ؟

فنظر إليَّ متظاهرا بالعجب وقال : وهل هناك دليل على الكذب أكثر من ذلك ؟ لقد كانت تقول لي بجرأة عجيبة: إن البيت « عاوز فلوس».. فهل البيت « يتكلم » لكي يطلب نقوداً ! .

وأدركت ما يقصده فانفجرت ضاحكاً .. وشاركني هو الضحك بابتهاج .. وفهمت سر فشل زواجه المتوقع من البداية .. فصديقي هذا ليس أعزبَ ، مزمن، فقط لكنه شخص « متوحد » في نفسه أورثته حياة الوحدة منفصلا عن أهله منذ سن الصبا عادات وطباع الأعزب المزمن الذي تنحصر كل اهتماماته في ذاته ، وأورثته معركته القاسية مع الحياة لتوفير الحد الأدنى من الأمان المادي له حرصاً شديدا على النقود ، وعجزاً غريباً عن الاستعداد لأن ينفق منها قرشاً واحداً لغير احتياجاته ومطالبه الشخصية هو وحده فقط ، ولهذا فلقد كان دائما صديقاً بلا

أصدقاء يجلس مع الجميع .. ويتسامر معهم ويستظرفه كثيرون لخفة ظله ولشخصيته الغريبة، لكنه لا يتنمي لأحد إلا لنفسه .. ولا ينتمي حتى لأسرته التي انفصل عنها وهو طالب بالجامعة لخلاف لم يبح لأحد بسرّه.. ولم يبحَ لأحد حتى بعنوان أسرته ولا بأي معلومات عنها .. فعاش بيننا ونحن لا نعرف عنه ما إذا كان له أب وأم وإخوة ككل البشر أم لا .. وانطلق إلى الحياة الواسعة .. يتكسب رزقه بالترجمة في مكاتب الترجمة وبممارسة كل الأعمال الممكنة وغير الممكنة .. ويتنقل بين الفنادق الصغيرة الرخيصة ، أو يؤجر أحياناً شقة مفروشة مع زميل له متزوج فيقيم هو فيها إقامة دائمة ويتردد عليها الزميل المتزوج من حين لآخر في مواعيد محددة ليلتقي فيها بزوجة سرية له يخفي أمرها عن زوجته وأولاده ، ويدفع نصف الإيجار وهو يوصي صديقه بكتمان سره وبعدم السماح لأحد باستخدام الشقة حتى لا يتصادف وجوده مع حضوره فيواجه الحرج . والصديق المتوحد يضمن له ذلك ويؤكده . وبعد عامين من المشاركة يبوح الزميل المتزوج بسرِّه لزميل ثالث لهما في العمل يعيش بالصدفة قصة مشابهة ويشارك هو الآخر شخصا « موثوقاً به » في شقته المفروشة التي يدفع له نصف ايجارها .. فيكتشف كل منهما أنه يشارك نفس الصديق «المتوحد » في شقته من غير أن يعرف ، ويتبينان أن كلا منهما يدفع نصف إيجار الشقة .. فلا يدفع الصديق الخبيث شيئاً .. وانه يرتب مواعيدهما بحيث لا يكتشف كل منهما أمره ، وحين يواجهه كل منهما

بالخديعة يتخلص منه بنكتة لاذعة فلا يملك كل منهما أيضاً إلا الضحك من أحواله العجيبة .

وهكذا عاش حياته حتى تجاوز الأربعين من غير أن يفكر في الزواج أو يعرف الحب .. أو يرتبط في يوم من الأيام بأي انسانة ، وكان ذلك منطقيا تماماً مع شخصيته .فالحب عطاء وهو غير قادر على العطاء إلا لنفسه .. فكيف يبذل من مشاعره وفكره واهتمامه لأي إنسان غير ذاته الغالية !

ثم استقرت أحواله المادية بعد كفاح رهيب وبفضل حرصه الشديد على ألا ينفق قرشاً واحداً إلا حين لا يصبح هناك مفر من إنفاقه . وقرر أن يصنع لنفسه حياة لائقة ، فكافأ نفسه بعد سنوات التشرد الطويلة بين الفنادق والشقق المفروشة باستئجار شقة صغيرة .. ورحم نفسه من المشي لمسافات طويلة فاشتري سيارة قديمة، ثم تلفت حوله يتساءل عما ينقصه، فقيل له الزواج ! فتساءل : وكيف السبيل إلى الزواج ؟ فأشاروا عليه بفتاة في الثلاثين من عمرها لم تتزوج وتعمل عملاً محترماً وتتقاضى مرتباً كبيراً وأحوالها المادية مستقرة ولها رصيد كبير في البنك ، ولا تتطلع لشيء إلا لحياة الأسرة والاستقرار، ورآها فأعجب برزانتها، وقال لنفسه إنه لا يحتاج إلا لمثل هذه الزوجة الرصينة التي كاد يفوتها قطار الزواج والتي تعتمد على نفسها في حياتها ولا تحتاج إلا إلى « ظل » رجل مثله .. أما مسألة الشكل فلا تهم، فإذا كانت ليست باهرة الجمال فهو أيضا ليس «عمر الشريف » ولا « آلان ديلون » وهكذا التقت النوايا المختلفة

وتزوجا . وأحسب أن صديقي هذا أقدم على تجربة الزواج وهو يتصور أنها تجربة مماثلة تماماً لتجربة المشاركة في السكن التى عرفها طويلاً وتحايل بها في بعض الأحيان على السكنى مجاناً ، ثم حين تكشفت له التجربة عن شيء آخر مخالف تماماً ارتجَّ عليه الأمر .. ولم يستطع أن يفهم « حكمة » أو منطق هذه العلاقة العجيبة التي اسمها الزواج !

إذ ما معنى أن يصبح منذ اليوم الأول الذى انتقلت فيه زوجته إلى بيته ليس مسئولاً فقط عن « ذاته » الغالية واحتياجاتها وإنما عن «ذات» أخرى غريبة عنه تنتظر منه أن يضعها في بؤرة اهتماماته ، ويصبح مسئولاً عن سعادتها وإرضائها والتسرية عنها ثم ـ ويا للهول ـ عن طعامها وشرابها وملابسها وعلاجها إذا مرضت .. وحمايتها إذا تعرضت لخطر .. إذن ماذا يتبقى من اهتمامه ونقوده ليوجهه لنفسه العزيزة ، إذا هو فعل ذلك ؟

إنها « كائن » مستقل عنه يعمل ويكسب ويتحمل مسئوليته عن نفسه فلماذا يطالبه بأن « يعوله » ويتحمل عنه مسئوليته ؟ إن هذا «استنطاع » عجيب لم يستطع أن يفهمه ويتعجب ممن يستسلمون له بلا مقاومة إذ هل من «العقل » أن تختار سيدة « غريبة » فستاناً جميلاً رأته فى محل تجارى وأعجبها .. فيلفه لها البائع ويقول لها مبروك، وبدلاً من أن تفتح هى حقيبة يدها وتخرج منها ثمن ما اشترت .. تنظر إلى آخر باسمة، وتنتظر منه أن يخرج هو نقوده الثمينة ليدفع عنها ثمن ما اشترت هي ؟ وهل من « العقل » أن تمرض «هى» فيدفع «هو» ثمن علاجها من

مرضها الذى أصابها ولم يصبه ؟ وهل من «العقل» أن تحمل «هى» فيصبح هو مسئولاً عن رعايتها الصحية ويدفع للطبيب وللصيدلية كل ما تتطلبه رعايتها من أجور ونفقات ؟

ثم ما هذا «الاستنطاع» العجيب الذى اعتادته المرأة منذ أقدم العصور ، حين تأتى لك من عالم الغيب بقطعة من اللحم الطرى فتصبح أنت ومنذ اللحظة الأولى مسئولاً عن تغذيتها ورعايتها وملابسها ولعبها وعلاجها وطعامها وتعليمها منذ لحظة الولادة إلى سن الخامسة والعشرين وربما أكثر . وكل هذا من غير أن تشارك السيدة التى «جاءت» بهذا المولود فى مسئوليته المادية بشىء طوال العمر .. عقل هذا أم جنون ؟!.

لقد كان يتصور أن زوجته رصينة ورزينة كما رآها لأول مرة وسوف تقنع من حياتهما المشتركة بأُنسِ الصحبة .. وشركة السكن .. وتناول القهوة معاً فى الصباح ، على أن يتحمل كل منهما مسئوليته الكاملة عن نفسه وعن « أفعاله» ، سواء أنجب أم لم ينجب ، فتدفع نصف إيجار الشقة ونصف فاتورة الكهرباء والتليفون والغاز ونصف بنزين السيارة ونصف كل شىء تتكلفه حياتهما .. كما يفعل المتحضرون .. ولا بأس بعد ذلك من أن يدعوها مرة لتناول فنجان من الشاى فى مكان عام ، فترد له الدعوة فى نفس الليلة بدعوته للعشاء فى مطعم أنيق . أو أن يهديها وردة فى عيد ميلادها فتهديه قميصاً وكرافت وبدلة وحذاء فى عيد ميلاده ، وبذلك يكون الزواج استثماراً ناجحاً ومباركاً ومفيداً للطرفين وليس

استنزافاً لطرف لحساب طرف آخر يتصاعد رصيده فى البنك وينمو !
وصارحها بأفكارها «التقدمية» ففوجىء بأفكاره «المتخلفة» .. وذهل
حين وجدها تتحدث عما يقول به الشرع عن مسئولية الرجل الكاملة عن
زوجته وأولاده حتى ولو كانت زوجته ذات مال ، أو عن انفصال ذمة
الزوجة المالية عن ذمة زوجها وحقها فى أن تتصرف فى مالها الخاص كما
تشاء بغير إذن زوجها ، وكره فى أعماقه تلك الحكاية السخيفة التى روتها
له عن احتكام زوجين فى هذا الأمر إلى أحد الفقهاء وكيف حكم الفقيه
«غير العادل » على الزوج بأن ينفق على زوجته أو يطلقها مختصراً القضية
كلها فى عبارة موجزة هى : إما انفاق وإما طلاق !

لم يكن صديقى مستعداً لأن «يدفع» من مشاعره أو ماله أو اهتمامه
لأى إنسان فى الوجود لهذا فقد تحطم الزواج سريعاً ، وتفاهما ودياً على
الطلاق . واستراح الصديق لما توصل إليه لكن ابتهاجه بهذا الحل السعيد
لم يطل ، فلقد فوجىء بمفاجأة مذهلة هى أن عليه أن «يدفع» أيضاً لكى
يصحح «الخطأ» الذى ارتكبه بالزواج .. وكاد عقله ينفجر وهو يتساءل
كأنه إنسان وثنى لايعرف شرعاً ولا ديناً عمن «أفتى» بأن يدفع الرجل إذا
أراد الزواج ثم «يدفع» مرة أخرى إذا أراد الطلاق ؟!

وأصيب بما يشبه اللوثة حين عرف أن عليه أن يدفع أجر المأذون
ومؤخر الصداق ونفقة المتعة ونفقة الزوجة المطلقة لمدة سنة وخاطب
زوجته أمام المأذون بلهجة مؤثرة قائلاً : هل ترضين «بأكل مال
اليتامى»؟ . إننى يتيم منذ صغرى وتخلى أهلى عنى منذ الصبا ، وكافحت

كفاحاً مريراً حتى تعلمت وتوظفت ، وتشردت فى الشوارع سنوات طويلة حتى استطعت أن أؤمن حياتى وأوفر لنفسى مسكناً وسيارة ورصيداً فى البنك صنعته بدمى وعرقى وحرمانى من متع الحياة ، وأنت «بنت ناس» .. طيبة من سلالة طيبين ولم أسىء إليك فى شىء منذ تعارفنا .. وما بيننا ليس سوى خلاف فى «وجهات النظر» فهل يرضى ضميرك «باغتيال» كل هذا القدر من مالى الذى شقيت لجمعه «بدعوى» الحقوق الشرعية للمطلقة؟! إننى أناشد قلبك وضميرك وإنسانيتك قبل كل شىء فهل ترضين بذلك حقاً؟!.

وتعجب المأذون مما سمع واستنكره .. وتهكم عليه والد الزوجة وشقيقها ، لكن الجميع فوجئوا بالزوجة تفكر قليلاً وهى مطرقة الرأس ، ثم ترفع رأسها باسمة وتعلن أنها توافق على التنازل عن نصف حقوقها الزوجية إكراماً للعشرة التى كانت بينهما ومراعاة لظروفه ؟ وثار عليها أبوها وشقيقها والمأذون نفسه لكنها صممت على رأيها ..

وتمت تسوية الأمر وكتب الصديق المفجوع فى ماله شيكاً بقيمة المبلغ المطلوب بعد التخفيض وتم الطلاق فى هدوء ورقد صديقى مريضاً فى فراشه بعد انصراف زوجته والمأذون ، وارتفعت حرارته إلى درجة الخطر وظلت كذلك لمدة ثلاثة أيام كان خلالها يهذى من الحمى .. ثم أشفق على نفسه الغالية من الاستسلام للمرض والغم والاكتئاب ، فاستجمع إرادته ليبرأ من الحمى والاكتئاب وروّح عن نفسه بأن راح يذكرها فى كل

لحظة بأنه قد وفر نصف المبلغ الذى كان ينبغى عليه أن يدفعه ثم خرج للحياة يلتمس السلوى والعزاء فى جلسة المقهى .

واختلف الأصدقاء أو المعارف بمعنى أصح لأن صديقى هذا ليس له أصدقاء ، فى تفسير سر استجابة زوجته لخطبته المؤثرة أمامها ، فقال البعض إنها رقت لحاله مع إدراكها العميق لبخله ، ولمدى تأثره بهذه الغرامة الباهظة فأعفته من نصفها لأنها لا تحمل له مرارة .. ولم تنكر عليه شيئاً خلال عشرتهما سوى مفهومه الخاص هذا عن الزواج ، حتى لقد كان يغلبها الضحك أحياناً حين يجادلها فى حكاية مصروف البيت!

وقال آخرون إنها أرادت أن تحافظ على شعرة معاوية بينه وبينها عسى أن يراجع نفسه فيما بعد ويصحح أخطاءه فيسعى ذات يوم لإعادتها لعصمته بعد أن يكون قد تحول إلى إنسان آخر يعرف معنى الحياة الزوجية .

أما أنا فلم أقتنع بهذا ولا بذاك وإنما رأيت أن مطلقة صديقى هذه سيدة عاقلة وبعيدة النظر .. تزوجته زواج صالون من غير أن تعرفه وتدرس شخصيته، ولو أتيحت لها فرصة معرفته عن قرب لعرفت أنه آخر رجل فى العالم يصلح لأن يكون زوجاً لها .

ثم عرفته بالمعاشرة وأدركت الحقيقة الخافية عنها .. وعرفت أنه رجل يعبد ذاته وعاجز تماماً حتى لو أراد عن أن يهتم بأى إنسان آخر سواه ، وليس بخله هذا سوى مظهر واحد من مظاهر «وحدته»، ولعله يهون إلى

جانب عجزه النفسي عن أن يعطى لزوجته من فكره ومشاعره واهتمامه شيئاً . وهى كامرأة فى حاجة إلى زوج يسكن إليها وتسكن إليه، ويهتم بها وتهتم به ، ويتحمل مسئوليتها وتصبح حقيقة ومجازاً فى «عصمته» بعد أن كانت فى عصمة أبيها . و«العصمة» لغوياً هى المنعة والاحتماء بملجأ يلتجىء إليه الإنسان فيمنع عنه الخطر .. والأذى .. والمعصية ..

والمرأة حتى فى أكثر المجتمعات تحرراً فى حاجة إلى «عصمة» من تحب ومن تشاركه الحياة ، أى إلى حمايته وحبه وعطفه وإحساسه بمسئوليته عنها ، ولقد أيقنت من أن زوجها ليس هو الملجأ ولا الحماية .. وأدركت ببعد نظرها أنها لو أنجبت منه فلسوف تكون الأم والأب لطفلها و«الأرملة» المسئولة عن أولادها فى حياة زوجها من ميلادهم حتى نهاية العمر فعرفت أنها قد تزوجت الرجل الخطأ .. وأن من صالحها التحرر من هذا الزواج قبل أن تتفاقم عواقبه بالإنجاب ، لهذا رحبت بالطلاق ، لكنها لبعد نظرها لم تبدأ بالمطالبة به حتى لايساومها على منحه لها مقابل التنازل عن حقوقها الشرعية .. وتركته هو يقترحه فتوافق عليه بلا مرارة.. ثم تنازلت عن نصف حقوقها وهى تغالب الضحك منه والرثاء له هو يستعطفها كطفل أخطأ ويطلب العفو من أمه !

أما ما لم يعرفه زوجها .. ولو عرفه الآن لأصيب بنوبة قلبية فهو أنه لو كان قد تماسك قليلاً خلال مفاوضات الطلاق .. ولم يتهافت .. ويفزع مما رأى نفسه مطالباً بأدائه فتجرأ وطالبها بأن تتنازل عن كل حقوقها مقابل الطلاق ثم أصر على هذا المطلب .. وإلا فالمحكمة أمامك .. لما

ترددت زوجته لحظة فى التنازل عنها كلها بلا ندم لكى تطوى هذه الصفحة الخائبة من حياتها سريعاً ..

إذ ماذا تعنى الحياة مع زوج لا تحبه ولا يشعرها بحبه واهتمامه ، ولا يريد أن يتحمل مسئوليتها النفسية والأدبية والاجتماعية .. ناهيك عن بخله المقزز وتوحده فى ذاته الذى يجعل من الحياة معه امتداداً لجلسة النادى بين زملاء لا يجمع بينهم سوى المكان !.

لقد «خسرت» نصف الحقوق .. لكنها «فازت» أيضاً بالنصف الآخر وبحريتها وبحقها فى أن تجد فرصة جديدة مع زوج آخر يفهم الحياة الزوجية كما أرادها الله .. «اثنين فى واحد وليس واحداً صحيحاً مجاوراً لواحد صحيح آخر ، ولا أمل فى امتزاجهما أو التحامهما ذات يوم» .

لقد أدارت المعركة بذكاء وكسبت نصف الجائزة بقدرتها على عدم إظهار تلهفها على الحصول على الطلاق . أما صديقى فلقد كان أحمق حين تصور أنه قد «فاز» بعدم دفع نصف الحقوق فى حين أنه لو صبر قليلاً لفاز بالإعفاء الكامل منها !

لقد كانت عاقلة وحكيمة وبعيدة النظر فتركته هو يبدأ الخطوة الأولى.. ولم تتهافت على طلب الطلاق رغم إصرارها عليه ، ففازت بالكثير ولم تخسر إلا القليل .. بل ولم تخسر شيئاً .. لأن خسارة مثل هذا الزوج «فوز» .. أما الحقوق المادية فما أهونها على من يطلب حريته .. وسعادته .. ونصيبه العادل من الحياة .



قصة قصيرة ...

ليلة سعيــدة !

** اقتربت السيارة المزينة بالورود من مدخل الفندق . تبادلنا نظرات الاستعداد والتهيؤ .. رفع نافو الأبواق النحاسية الأربعة أبواقهم استعداداً للحظة البداية وتحسس فريق الطبول طبولهم الست .. أما نحن عازفى «الرق» أو المزاهر العشر ، فقد رفعناها فى الهواء على أهبة الاستعداد .

توقفت السيارة ببطء أمام المدخل الرئيسى ونزل العروسان وتراجعت السيارة فأحطنا بهما على هيئة صفين طويلين ، ثم تقدمت فتاة من العروس لعلها أختها لتصلح من طرحتها وترتب ذيل فستانها ، أما العريس فقد عدل من وضع بنطلونه وأصلح شأن الجاكت والبابيون الوردى الذى يرتديه وتلفت حوله باسماً .

أشار رئيسنا صاحب الفرقة وهو من عازفى الطبول إشارة معينة فانطلقت الأبواق تعزف تحية العروسين . نغمات طويلة عالية هى فى الأصل جزء من مارش عسكرى وصل إلى فرقتنا المتواضعة بطريقة مجهولة. ومنذ انضممت لهذه الفرقة من ست سنوات ونحن نعزفه

ولانعرف أصله . أدّى «المارش» المشوه دوره فأعلن للمدعوين وصول العروسين .. فجاءوا من الفندق وتجمعوا حولنا ليشاركوا العروسين فرحتهما . الأهل الأقربون والأصدقاء الخلصاء هم الذين يحضرون الزفة ويتحملون الوقوف لفترة طويلة حول العروسين ويشاركون فى الغناء والتصفيق على الواحدة والرقص أمامهما .. أما الأغراب وكبار السن فينتظرونهما فى قاعة الفرح . مهمتنا نحن أن نغنى ونشيع البهجة فى عرض طويل على الواقف لايقل زمنه عن ساعة نمضيها واقفين وراقصين ومرددين الأغانى حول العروسين ، وكلما طالت الفترة وكثر عدد المشاركين فى الرقص والغناء من أهل العروسين وأصحابهما .. ارتفعت أسهم فرقة «الزفة» فى سوق الأفراح وكثر الطلب عليها .

حين بدأنا هذه الفرقة كنا نزف العروسين فى ١٠ دقائق فظهرت فرق جديدة تزفهما فى عشرين .. فزدنا عدد الأغانى والحركات الراقصة .. وقادتنا المنافسة فى النهاية إلى إطالة فترة الزفة إلى ساعة كاملة لا أعرف كيف يتحملها العروسان والمدعوون قبل بداية الحفل الأساسى فى قاعة الفرح . أما أنا فقد دربت نفسى على تحملها باسماً .. وضاحكاً ومبتهجاً مهما كان الألم الذى أحسه .. وقلبى لايتوقف عن الابتهال إلى الله ألا تفاجئنى الغيبوبة وسط الزفة فتضيع مجهودى فيها .. وتسىء لموقفى فى الفرقة .

لم يحدث ما أخاف منه حتى الآن .. ومع ذلك لايفارقنى الخوف من وقوعه .. كلنا شباب بين العشرين والثلاثين جمعنا صاحب الفرقة ودربنا

على ترديد أغانى الأفراح ، واشترى لنا الزى الموحد والطبول والرقاق والأبواق .. وساعده على ذلك أنه يهوى الأفراح منذ طفولته ، وكان يتطوع بالرقص والغناء فى كل زفة تصادفه ولو لم يكن يعرف صاحبها .. ثم فكر فى استثمار الهواية فباعت أمه ما تبقى لها من مصاغ واشترى بثمنه الآلات الموسيقية والملابس المزركشة ، وراح يقنعنا واحداً بعد الآخر بالانضمام إليه . بدأ بفرقة من عشرة لم أنضم إليها ، ثم نجحت فرقته وتوسعت أعماله فضاعف عددها .

وحين عرض على الأمر لم أجد مبرراً للرفض هذه المرة . كنت قد أنهيت دراستى وحصلت على دبلوم التجارة منذ ٣ سنوات ، ولم أجد عملاً ، فقررت الانضمام إليه لأكسب مصروفى على الأقل خلال فترة انتظار الوظيفة . صوتى لا بأس به لكنه لايكفى لأن أحترف الغناء المنفرد..

ومع ذلك يرى سعيد صاحب الفرقة أنه أجمل أصواتها ويخصص لى فى برنامج الزفة الطويل فقرة أؤديها بصوتى .. شىء واحد حاول أن يغيره فى ولم يستطع .. يقول أن صوتى حزين لا يتناسب مع بهجة الأفراح.. وأننى رغم ابتسامتى العريضة وأنا أردد الغناء أبدو حزيناً مثقلاً بالهموم.. ويطالبنى بالسعادة والابتهاج ونسيان الآلام أثناء الزفة على الأقل .. وأنا لا أقصّـر فى ذلك لكنه يطالبنى بالمزيد .

انتهى عازفو الأبواق من التحية .. وبدأنا نحن الغناء .. نتمايل يميناً

ويساراً ونغنى : طالعه السلالم يا ما شاء الله عليها .. ست العرايس .. والشموع حواليها .. ست العرايس .

ليس فى المكان شموع .. لكننا اعتدنا أن نفتتح البرنامج بهذه الأغنية، ثم ننتقل منها إلى الأغانى الشبابية التى يفضلها شباب هذه الأيام .

إيقاعاتها تغريهم بالرقص والمشاركة .. وكلما ازدادت المشاركة تأكد نجاح الفرقة فى إبهاج العروسين والمدعوين ، وزاد الطلب عليها .

سعيد رئيس الفرقة شاب طيب وفنان .. يخصم المصروفات وأجر سيارة الميكروباص التى نستأجرها للحضور والانصراف ويخصم مبلغ خمسين جنيهاً كاحتياطى لتجديد الطبول والآلات الموسيقية ثم يوزع علينا الباقى بالعدل . أنال عشرين جنيهاً كاملة عن كل زفة أشارك فيها .. ومنها أنفق على أمى وأخى الصغير الذى يتعلم فى المدرسة ، وأشترى الأنسولين الذى أحقن نفسى به كل صباح . معاش أبى لم يعد يكفى لشراء الخبز وحده .. ولولا الأفراح لعجزت عن الوفاء بمتطلبات الحياة الكثيرة .

انتقلنا الآن إلى الفقرة التالية بدأنا نغنى : تيجى نقسم القمر .. أنا نص .. وانتى نص .. تيجى نكتب ع الشجر حرفين أسامينا وبس .

دخل عدد من الشباب والفتيات الحلبة أمام العروسين وراحوا يرقصون فى بهجة .. رواد الرقص الأوائل فى كل زفة هم غالباً إخوة

العريس وإخوة العروس والأصدقاء المقربون .. أما الأهل فأيديهم تصفق حولنا مع الإيقاع والابتسامات تملأ الوجوه .. والزغاريد تفصل بين الفقرات .

تأسرني دائماً فرحة الأشقاء بزفاف الشقيق أو الشقيقة .. وأقول لنفسي هكذا أراد الله أن يكون الأشقاء حباً وصفاءً ، فلماذا يغير البشر ما أراده لنا الله سبحانه وتعالى ؟ ..

طفرت عيني بالدموع مرة حين رأيت شاباً يرقص بعصبية بين يدى العريس والدموع تنهمر من عينيه .. فترك العريس عروسه واندفع إليه محتضناً ومقبلاً بانفعال شديد ، ثم أمسك بذراعيه وراحا يرقصان معاً فى حركة دائرية جميلة وهما يضحكان بانفعال ودموعهما لاتتوقف ، وتعالت الزغاريد حولهما بطريقة غير مألوفة كأنما تسجل حدثاً غير عادى ، واندفعت بعض سيدات الفرح فأحطن بهما فى دائرة وهن يصفقن ويزغردن بابتهاج شديد إلى أن تمكن منهما الإرهاق تماماً فأنهيا الرقص بعناق حميم ، وكل منهما يقبل الآخر وأنفاسه تتلاحق . أحسست يومها بشىء غير طبيعى فيما حدث فسألت فتاة كانت تقف بجوارى عن الحكاية ، فعرفت منها أنهما شقيقان كانت بينهما جفوة طويلة قبل الفرح، حتى ظن العريس أن شقيقه لن يشاركه فرحته ، ولن يعود من أمريكا حيث يعمل ويعيش لحضور الزفاف .. ففوجىء به فى الزفة يرقص أمامه ويبكى فلم يتمالك نفسه . أما المزغردات فهن أمهما وشقيقاتهما وزوجة الشقيق العائد من أمريكا لحضور زفاف أخيه .

أقسمت يومها بيني وبين نفسي ، أن أرقص بين يدى جميل شقيقى الصغير يوم زفافه ، ولو جاءت الغيبوبة وأعجزتنى عن الحركة ، فهو كذاك الشقيق العائد من أمريكا طيب وانفعالى وسريع البكاء فى الحزن والفرح على السواء ، أما هو فلن يستطيع فيما يبدو أن يعبر لى عن مشاعره الطيبة فى موقف مماثل . لكن هذه قصة حزينة أخرى لا مجال لها الآن حتى لا تفسد بهجة الزفة .

جاء دور الاستعراض الراقص .. سنتحرك فى صفين .. صف لحملة المزاهر أو الرقاق وصف لحملة الطبول .. وسنرقص رقصة شعبية معروفة ونحن نغنى : يا ولاد بلدنا يوم الخميس .. حاكتب كتابى وأبقى عريس.. والدعوة عامة .. وحتبقى لمه يوم الخميس .. يا ولاد بلدنا .

● ● ●

قال لى أبوها : أنت يا حسين «رجل» منذ طفولتك .. ومنذ مات أبوك وأنت تتصرف بإحساس بالمسئولية عن أمك وأخيك .. لهذا فإنى أعتبرك أباً لأخيك تعرف معنى الأبوة والمسئولية وستفهم موقفى كأب يريد لابنته الأمان فى حياتها . وأنت تعرف ظروفك الصحية جيداً ، وقلبى يتمزق من أجلك كلما فاجأتك آلام الكلى مع ما تعانيه من عذاب المرض المبكر بالسكر ، وظروفك المالية ليست على ما يرام ، وهذه الظروف كلها تدفعنى آسفاً للاعتذار .. وكلى أمل ألا يغير الاعتذار من علاقتنا الطيبة كأهل بل إنى أتوقع منك أن تقنعها بأن الارتباط بك ليس فى صالحها ، وأن تحثها على قبول الخطيب المناسب الذى تقدم لها .. فهى «أختك»

أولاً وأخيراً وليست فقط بنت خالك .. ولاشك أن مصلحتها تهمك كما تهمك مصلحة جميل شقيقك .. فهل تعدنى بذلك ؟.

وعدته .. والتزمت بما وعدت .. وقلت لها .. هذه أقدارنا أن يحرم كل منا من الآخر رغم الحب القديم الذى جمع بيننا منذ الطفولة .. ولأبيك أفضال كثيرة على أسرتى لا أستطيع جحدها أو التنكر لها ، كما أنى لا أريد أن أكون سبباً فى قطع صلة الرحم بينه وبين أمى ، وهو سندها الوحيد فى الحياة قبلى ومن بعدى .. فليحتفظ كل منا للآخر بأجمل المشاعر .. وليشق كل منا طريقه فى الحياة بعيداً عن الآخر ، وبكت كثيراً وبكيت أكثر ، وما كان باليد حيلة سوى الفراق والاستماع لصوت الحكمة ، فخطبت لمن تقدم إليها وقامت فرقتنا بزفتها فى حفل الشبكة مجاناً مجاملة لى ، لكنى لم أشارك فيها واكتفيت بالحضور وتقبل التهانى !

هذه العروس التى تقف إلى جوار عريسها الآن بها ملامح من فتاتى الطيبة .. عيناها واسعتان ومعبرتان مثلها .. فلتكن سعادتها حقيقية هى الأخرى .. وليسعد الله كل قلبين اختار كل منهما الآخر بلا مشاكل ولا عقبات .

جاء دور أغنية :

يا رب تسعد أوقاتنا .. وتحلِّى بالفرحة حياتنا .

وهى ـ للمفارقة ـ الأغنية التى أؤديها منفرداً .. فخرجت من الصف وتقدمت إلى منتصف الحلبة وانطلقت أغنيها ، وراح الزملاء والمدعوون يرددون كلماتها معى .

أنهيت الأغنية بنجاح ونظر إلى سعيد رئيس الفرقة مشجعاً ومبتسماً فعدت إلى مكانى .. وزدنا من سرعة الإيقاعات الراقصة فتزايد عدد الشباب الذين يرقصون أمام العروسين .. وتقدم سعيد من العروسين وجذبهما إلى حلقة الرقص ، فاستجابا على الفور ، واندفع كل منهما يرقص فى اتجاه !

أما أنا فأحسست بالخدر يتسلل إلى ساقى .. وأصبحت أمنية حياتى أن أجلس على مقعد لأستريح .

مضت ست سنوات على عملى بهذه الفرقة ولم أجد وظيفة بشهادتى الدراسية بعد ،. معظم زملائى بالفرقة لهم أعمال صباحية ، بعضهم موظفون بالحكومة وبعضهم بالشركات أو المحال التجارية .. أما أنا فكل الأعمال التى أتيحت لى ، كانت بمحال تجارية تتطلب منى الوقوف ١٠ ساعات كل يوم على قدمى ، فلم أستطع الصمود فى إحداها أكثر من شهور . حالتى الصحية لاتسمح إلا بعمل مكتبى وهو غير متاح لأمثالى ممن لا واسطة لهم ولا أقارب ، ولا مفر من انتظار تعيين القوى العاملة بعد عشر سنوات من التخرج .. أما دق المزهر لمدة ساعة فأستطيع تحمله بعناء شديد ، ثم أستسلم للنوم والراحة معظم ساعات النهار .

لا بأس بحياة كهذه لشاب فى السادسة والعشرين من عمره ولا أمل له فى الزواج مثلى . كل ما أطلبه من الدنيا هو أن تكثر أفراح الشباب .. لأجد ما أنفقه على أمى وأخى والعلاج، ويكفينى بعد ذلك دعاء أمى

وحب أخى ومشاعر أصدقائى وزملائى بالفرقة .. كلهم شباب طيبون يحلمون بالزواج والسعادة وتحقيق الأحلام فى حياة مريحة . تزوج منهم ثلاثة حتى الآن .. وأحيينا أفراحهم ، وسيتزوج سعيد فى نهاية الصيف ، وسيكون فرحه مهرجاناً تشارك فيه الفرق المنافسة مجاناً ، لأن هذا تقليد قديم يحرص عليه صانعو الأفراح .

جاء دور الأغنية المرحة التى وضعت أنا كلماتها ولحنها سعيد لحناً بسيطاً ويعتبرها من تراث الفرقة الخصوصى :

ـ اللى غَيْرَانْ يتجوز .. وما حدش فيكو يبوِّز !

فازدادت بهجة الزفة .. وضحك الشباب والفتيات وازداد حماسهم للرقص والغناء .

يمثل لى أداؤنا لهذه الأغنية البشير بقرب انتهاء معاناتى الصحية أثناء الزفة .. فهى الأغنية قبل الأخيرة فى برنامجنا الطويل . بعدها نغنى أغنية دينية وضعت أنا أيضاً كلماتها ونغنيها ونحن نتحرك مع العروسين إلى قاعة الفرح .

معاناتى الحقيقية تتضاعف حين يفرض علينا الشباب الذى يشارك فى الرقص والغناء .. أداء بعض الإيقاعات والأغانى الإضافية فى قاعة الفرح قبل أن يجلس العروسان فى «الكوشة» ..

هنا تزداد خشيتى من أن يفاجئنى الإغماء أو نوبة آلام الكلى اللذان يتهددانى فى حالة الإرهاق الشديد ..

ذات يوم لاحظ سعيد ارهاقى واصفرار وجهى ، فطلب منى الانسحاب أثناء الفقرة الأخيرة إلى الميكروباص إلى أن تنتهى الزفة فرفضت بشدة وعاتبنى فى اليوم التالى .. وعرض على بكرم أن يعفينى من المشاركة على أن يعطينى نصيبى من كل زفة لأنى عضو مؤسس بالفرقة ومؤلف الأغانى الخاصة بها.

فاعتذرت له شاكراً مشاعره الطيبة وأصررت على العمل .. هو طيب وشهم .. ولكن إلام يدوم العطف فى هذه الحياة القاسية ؟

انتهينا من الأغنية المرحة .. فبدأنا معاً نردد أغنية الختام التى يستريح قلبى لكلماتها :

ـ عيشوا فى بهجة ومحبة وسلام .. ببركة محمد رسول الأنام ..

وتحركنا صوب قاعة الفرح .. ودخل الموكب البهيج القاعة وتقدم العروسان إلى الكوشة .. وانتهت الأغنية الجميلة .. فعزف نافخو الأبواق مارش النهاية .. وشرعنا نحن الطبول والمزاهر فى الهواء ثم بدأنا ندق دقة الزفاف التقليدية التى تستغرق ٥ دقائق كاملة بعنف شديد ، ونحن نحرص على توافق الريتم بيننا لكى نتوقف معاً فى لحظة واحدة حاسمة.

رحت أدق المزهر بعنف شديد وذراعى وباطن كفى وأصابعى تؤلمنى ألماً شديداً وصداع ضغط الدم المرتفع الذى أعانى منه بسبب الكلى يكاد يشق رأسى ، إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة وتوقفنا عن الدق بانضباط شديد.

أنزلت المزهر وأنا أحمد الله فى سرى على انتهاء الليلة السعيدة بلا مشاكل ، ووضعت المزهر تحت إبطى .. وغادرت القاعة وأنا أجفف عرقى ..

سبقت الجميع إلى سيارة الميكروباص وألقيت بنفسى على أول مقعد صادفنى وأخرجت «الترموس» الذى أحتفظ به وشربت منه الماء المحلى بالسكر ليعوض نقصه فى دمى بعد المجهود الكبير ، ثم أخرجت منديلى وعقدته فوق رأسى وشددت عقدته بقوة لكى يخفف من صداع الضغط الذى يقتلنى ، ثم أسندت رأسى على مسند السيارة ورحت تدريجياً فى الغيبوبة القصيرة التى أستسلم لها عادة فى السيارة بعد كل زفة ، والتى يظنها سعيد وزملائى لحسن الحظ .. من سلطان النوم اللذيذ ! .



الحب أعلى مراحل «الاستعمار»!

** كنا فى جلسة مسائية هادئة بأحد الشواطىء المصرية بالساحل الشمالى ، لم نحتمل الجلوس فى شرفة الفيللا المطلة على البحر ، لشدة تيار الهواء ، فانتقلنا إلى الشرفة الخلفية حيث الهواء أقل .. وتعجبنا من أن نحس بالبرد فى مساء ليلة من ليالى شهر يوليو المعروف بشدة الحرارة ..

كلنا قاهريون هربنا من حر القاهرة وزحامها فى أجازة قصيرة ، واستأجرنا ثلاث فيللات متجاورة على رمال شاطىء سيدى كرير . ثلاث أسر تجمع بينها الصداقة وتقارب الميول نتلازم معظم ساعات النهار ، ثم نسترخى بعد العشاء فى سهرة دردشة تمتد إلى ما لا نهاية ، فى إحدى هذه السهرات سرحت بذهنى للحظات عن ثرثرة سيدات الشلة ثم تنبهت فإذا بمناقشة صاخبة بين الحاضرين .. سألت عن القصة فعرفت أن شقيقة إحدى الزوجات الثلاث وهى موظفة شابة لم تتزوج بعد ، قد أطلقت تصريحاً خطيراً أثار حنق الزوجات ، إذ قالت إن الزواج يقلل من إبداع الزوج فى عمله بل والزوجة أيضاً إذا كانت تعمل بما يلقيه على عاتق كل منهما من مسئوليات وأعباء عائلية تشغل حيزاً كبيراً

من طاقة كل منهما على حساب إبداعه وتقدمه فى العمل ، وتحمس لرأيها الزوجان الصديقان وأحدهما رجل أعمال يعمل عملاً حراً والآخر مهندس مدير بإحدى شركات المقاولات ، فى حين نهضت لمعارضتها على الفور والتدليل على فساد فكرتها الزوجات الثلاث .. وبين التأييد الصاخب والتعليقات اللاذعة الضاحكة اتجهت الأنظار إلى تطلب رأيى فاختلست النظر إلى زوجتى التى راحت تتحدث بحماس عن كيف أنها توفر لى كل الظروف الملائمة لكى أعمل وأبدع فى عملى .. وكيف أنى حين أجلس إلى مكتبى فى البيت لأكتب أو أقرأ تعزل عنى كل مشاكل الحياة اليومية وشئون إدارة الأسرة والبيت إلى أن أنتهى من عملى .. فلم يهن على أن أخذلها فى هذا الموقف العصيب .. وقلت لنفسى إن الشهامة تقتضى أن أساندها فى محنتها بغض النظر عن أى اعتبارات ، فأشرت برأسى مصدقاً على ما تقول ، ثم قلت مهوناً من الأمر كله : إن هذه «المناظرة » مثارة منذ عرفت البشرية نظام الزواج ولست أرى فيها جديداً يدعونا إلى إعادة طرحها، فالزواج هو سنة الحياة الطبيعية .. ولكل حياة مميزاتها وسلبياتها .. لكنه فى المحصلة النهائية فإن معظم الناجحين فى حياتهم كانت لهم حياة زوجية سواء كانت مثالية أو غير مثالية ، وعلى أية حال فإن الشقاء فى الحياة الشخصية لم يمنع نجاح بعض من عانوه ، فى إبداعهم بل لعله ضاعف منه بهروبهم إليه من محنة التعاسة الزوجية والأمثلة على ذلك كثيرة كما أن أمثلة نجاح بعض من لم يتزوجوا وعاشوا منفردين أيضاً ليست قليلة ، والحساب الختامى يأتى على أى حال فى

صالح الزواج بغير شك فهو الحياة الطبيعية .. ومن أكبر عوامل نجاح أي إنسان فى عمله أن يتوافر له الاستقرار العاطفى والنفسى وأن يعيش حياة طبيعية كما أرادها له الله بين زوجة وأبناء ، يفكر فى شئونهم كما يفكر فى شئون عمله ومستقبله ، بل إن ما نسميه نحن بالأعباء العائلية ويتصورها البعض أثقالاً تقلل من الإبداع قد تكون فى حالات كثيرة من أكبر حوافز الزوج لمواصلة العمل ولتحقيق النجاح لكى يلبى احتياجات أسرته ويوفر لها متطلبات الحياة ، والفيصل فى كل الحالات هو شخصية الزوجة فإذا كانت قادرة على فهم شخصية زوجها وظروف عمله .. وساعدته على التفرغ له بتوفير المناخ الملائم الذى يطلق إبداعاته وقدراته، كان الزواج إضافة لقدرات الزوج .. وشعلة تضىء له طريق النجاح. أما إذا كانت عكس ذلك وأثقلته دائماً بعبئها النفسى وعبء الأبناء .. وعبء مشاكل الحياة اليومية ولم تر فيه كما تفعل بعض الزوجات سوى «ثور» مهمته فى الحياة أن يدور فى ساقية لاتكف عن الدوران ليلبى لها متطلباتها المادية والعاطفية والنفسية ، ولم تراع ظروفه.. وحاجته إلى أن يتفرغ بعض الوقت لذاته وطموحه ، كان الزواج خصماً من قدرات الزوج وصخرة يحملها على ظهره أينما توجه .. وأينما حل ..

وتوقفت عن الكلام برهة ونظرت إلى الزوجات الثلاث ثم قلت : كل منكن طبعاً تعتبر نفسها الزوجة الفاهمة لشخصية زوجها ومتطلبات عمله وظروفه .. إذن فالنتيجة النهائية هى أن الزواج دافع للتقدم فى

الحياة ، وليس عامل جذب إلى الوراء .. ونحن نسلم بذلك وأقترح غلق باب المناقشة والانتقال إلى جدول الأعمال !

ولا أعرف لماذا تذكرت فى هذه اللحظة الكتاب القديم الذى قرأناه فى شبابنا من أدبيات الفكر الماركسى «الراحل» وهو كتاب «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية»! وتعجبت من هذا الربط الغريب بين الموضوعين لكن عجبى لم يطل فالفكر الماركسى كان يرى أن تطور الرأسمالية يؤدى إلى تراكم رءوس الأموال التى تحتاج إلى أسواق جديدة للحصول منها على المواد الخام ولتصريف منتجاتها فيها ، وأن ذلك كان هو الذى دفع الدول الرأسمالية الكبرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى استعمار دول أفريقيا وآسيا ، فوجدت نفسى أستعير قانوناً من قوانين الجدل الماركسى المعقدة لأعبر بها عن فكرة تراودنى منذ فترة طويلة ، ففى الجدل يقولون إن التراكم الكمى لابد أن يؤدى فى النهاية إلى تغير فى الكيف ، وإذا استعرت هذا القانون استطعت أن أقول : إن تراكم مشاعر الحب لدى رجل وامرأة لابد أن يدفعهما بإلحاح إلى البحث عن الوسيلة التى يستطيعان بها تحقيق أمل المحبين الخالد فى أن يتلامسا ويعيشا معاً ما بقى لهما من العمر، وبالتالى لابد أن يقودهما إلى الزواج .. وهذا هو التغير «الكيفى» فى شكل العلاقة الذى أدى إليه التراكم الكمى فى مشاعر الحب

وبهذا المفهوم الذى أرجو ألا تنسى أن تسجله لى وتصكه باسمى ، فإن الزواج هو أعلى مراحل الحب ! وهكذا ينبغى أن يكون .. وليس

الحب هو أعلى مراحل الزواج كما نظن نحن وإذا انسقت وراء هذه الموجة الفلسفية التى هاجمتنى بتأثير الجو المنعش على الشاطىء والفراغ، فإن الحب بهذا المفهوم هو أعلى مراحل الاستعمار العاطفى ! لأنك حين تحب تستعمرك حبيبتك .. وتحتل قلبك وأراضيك وتلغى استقلالك الشخصى ، وتمحو نشيدك الوطنى ، وتحرمك من حق التمثيل الدبلوماسى المنفرد لدى الأشخاص ، والأسر والأصدقاء الآخرين .. وهى أيضاً حين تحب يستعمرها حبيبها ويشغل قلبها وتفكيرها ، ويحرمها من أن يكون لها علمها الخاص ونشيدها المستقل .. والفارق الوحيد بين استعمار الشعوب واستعمار القلوب هو أن الأخير هو الاستعمار الوحيد الذى لايكافح أحد لطرده وتحرير «التراب» منه .. بل على العكس يكون الجهاد «الوطنى» فيه لإطالته ومد أجله إلى أقسى حد ممكن .. وعلى حين تحتفل الشعوب بتحررها من الاستعمار وتخصص يوماً لذلك تسمية «يوم الاستقلال» تحزن القلوب إذا انتهى استعمارها العاطفى وتنكِّس الرايات وتسمى يوم انتهائه بيوم الحزن على ضياع الحب وافتقاد المشاركة.. وعودة الاستقلال ..

وفى حين يسلب الاستعمار إرادة الشعوب رغماً عنها .. تسلم القلوب إرادتها أو جزءاً منها على الأقل طائعة لمن تحب .. فتختفى الإرادة المستقلة لكل طرف وتحل محلها الإرادة المشتركة .. لدولة الحب «الوحدوية» الجديدة ..

وكما عرفنا من التاريخ أن الدول الاستعمارية قد نزحت ثروات

الشعوب التى استعمرتها فازدادت غنى ، فهناك «نزح» استعمارى أيضاً فى الحب ينزح فيه كل طرف ثروات الطرف الآخر .. ولكن بإرادته هو وعطائه ورغبته وسعادته ، فكل طرف فى علاقة الحب يفيض بما يملك على من يحب ويستمتع بالعطاء له ، أكثر مما يستمتع بالأخذ منه ، وكلما تمكن الحب منه كلما ازدادت رغبته فى أن يعطى لمن يحب .. وهل بعد الروح والقلب والإرادة و«الاستقلال» الذى يتنازل عنه المحب طائعاً، من عطاء يرقى إلى مستواه أى عطاء مادى؟

أما عين المحب التى هى عن «كل عيب كليلة» ، فهى أبلغ دليل عل الحب ولقد قرأت مئات الأمثلة على عين المحب فى شعر الشعراء وكلام المحبين فلم أجد أبلغ تصوير لها من هذه العبارة العجيبة للأعرابى الذى سئل : ما بلغ من حبك لفلانة ؟

فأجاب : والله إنى لأرى الشمس على حائطها أحسن منها على حيطان جيرانها !!

يا إلهى .. إن هذا هو الحب حقاً وصدقاً ، وهذه هى عين من يحب التى ترى فيمن تحب كل شىء جميلاً ومتميزاً حتى إن لأشعة الشمس على حائطها رونقاً خاصاً يختلف عنه على حوائط جيرانها ، مع أن الشمس هى الشمس .. وأشعتها الحارقة هى نفس الأشعة التى تغمر الكون كله لكنها أجمل على حائط من نحب، ليس لأنها كذلك فى الواقع والحقيقة ، ولكن لأننا «نراها» كذلك و«نريدها» كذلك .. نريدها على

حائطه أكثر جمالاً وصفرة ذهبية .. ونحن نرى ما نريد ونحوله إلى إحساس .. وإلى حقيقة ..

ألم أقل لك من البداية : إن الحب هو أعلى مراحل الاستعمار ؟ وإن الزواج الذى يجمع بين المحبين هو أعلى مراحل الحب .. وليس كما يزعم بعض الخرقاء قاتلاً للحب .. أو شيئاً مخالفاً له !

إن التدخين الضار بالصحة هو مسئولية كل مدخن أو هو على الأصح «مصيبته» وكذلك الحب فهو مسئولية كل محب وقد يكون مصيبته .. وقد يكون سعادته الأبدية ، وقد يقتله المحب بسوء الرعاية بعد الزواج .. وقد ينميه ويرسخ جذوره فى أرضه فيصمد للزمن ويتحدى الأعاصير القوية ..

والفتيات فى أوروبا وأمريكا الآن يعتبرن الزواج «تضحية كبيرة» من جانبهن لايرضين بأن يقُدِّمنها إلا لمن بلغ بهن حبه أقصى الحدود، ومن اختبرت حبه فانبأتها السنون أنه حب العمر الذى لن يكون بعده حب.. ذلك أنها تفعل كل ما تريد مع من تحب بلا زواج .. وتشاركه سكناً واحداً لعدة سنوات دون أن تطالبه بالزواج أو تقبل إلحاحه عليها بأن يتزوجا زواجاً رسمياً ، فلماذا ـ بمنطقها ـ تتنازل عن استقلالها المادى والاجتماعى وتتزوج زواجاً لا فكاك منه ولاطلاق بعده إلا بصعوبة هائلة، وترتبط بأسرة وأطفال تتحمل مسئوليتهم إلى نهاية العمر ؟

هكذا تفكر كثير من الفتيات هناك فإذا قرر اثنان أن يتزوجا فهذا

معناه أنهما قد بلغا أعلى مراحل الحب والاستعمار العاطفى .. ويرغبان فى «توثيق » حبهما والتصديق عليه بوثيقة رسمية مختومة بخاتم المجتمع والكنيسة .. ولسنا نطالب بشيء من ذلك بالطبع فى مجتمعاتنا لما فيه من مخالفة لقيم ديننا وأعراف مجتمعنا وتقاليده .. لكننا نحلم فقط بألا يتزوج المرء إلا ممن يحب حباً صادقاً أو على الأقل ممن يرتاح إليه نفسياً ويأمل فى أن يحبه .. ويجد فى نفسه بذرة الاستعداد لحبه بعد الاقتراب منه ومعايشته.. ونحلم أيضاً بأن ننظر للزواج ليس كشيء لابد منه رغبنا فيه أو لم نرغب .. ولا كمجرد وسيلة للأمان .. والبيت المستقل والخروج من تحت مظلة سلطة الأهل أو اللحاق بالقطار قبل أن يغادر محطته ، وإنما كوسيلة مشروعة للحب .. والسعادة .. والاستقرار أحلها الله لنا ... وهيأ سبلها .. ووصفها بأرق ما توصف به علاقة إنسانية وعاطفية فى أى زمان ومكان .. فقال إنها «سكن» تسكن إليه الأرواح والقلوب ومودة ورحمة يتبادلها الطرفان .

وأفقت من تأملاتى على صوت يدعونى للاشتراك فى المناقشة التى مازالت صاخبة .. فنهضت متجهاً إلى الشاطيء وأنا أقول لمن معى : دعونى لأتمشى على شاطيء البحر قليلاً وواصلوا أنتم حديثكم كما تشاءون .. لكم «فكركم» .. ولى «فكر»!..

صباح الخير !

** نهض من نومه متراخياً .. توجه إلى الحمام ووقف يحلق ذقنه فى كسل وملل . أدار مؤشر الراديو فتدفقت منه الأخبار الكئيبة . عاد إلى غرفة نومه وارتدى ملابسه بلا حماس .. خرج إلى الصالة وجلس إلى المائدة المستديرة ونشر أمامه صحيفة « الصباح» واختفى وراءها . تنبه بعد قليل إلى حركتها وهى تضع فنجان الشاى أمامه على المائدة وتهمهم بصوت مبحوح لايكاد يُسمع : صباح الخير .. رد على همهمتها بهمهمة مماثلة ومد يده إلى الفنجان وعاد إلى قراءة الصحيفة .. من بين صفحاتها تسلل بنظراته إليها ، ليستكشف «الأحوال الجوية» هذا الصباح .. فأنذره تجهم وجهها بغيوم متلبدة تهدد بسقوط بعض «الأمطار» قبل خروجه إلى عمله ..

.. ما أسرع ما تجرى أمور الحياة .. حين تزوجها كانت شعلة متوهجة دائماً بالمرح والبهجة والابتسام .. خفيفة الروح متسامحة تكره النكد وتسرع بمصالحته إذا غضب منها ولاتدعه يغادر البيت إلى العمل أبداً إلا وهو مبتسم وسعيد مهما حدث بينهما من خلافات ومشادات . الآن أصبحت ضيِّقة الصدر وعصبية.ومتجهمة معظم أيامها كأنما تؤدى

حكماً صادراً عليها بالأشغال الشاقة .. تتهلل لإثارة المشاكل .. ولا يسمع منها إلا حديث المطالب وشئون الأولاد .. ومهما أخطأت لاتبدأ بالاعتذار ولاتسعى إلى مصالحته كما كانت تفعل فى الأيام الخالية .. وإذا عاتبها فى ذلك احتجت بمتاعب الأبناء وصعوبة الحياة واتهمته بالأنانية واللامبالاة والتخلى عن مسئولياته ! يا إلهى من يصدق أن هذه هى مديحة التى حارب الدنيا لكى يفوز بها ويتزوجها وتزوجته هى على غير إرادة أهلها وتحملت مقاطعتهم لها عدة سنوات حتى رضوا عنها وتحملت متاعب البداية معه بلا شكوى حتى حققا معاً أحلامهما وبدلاً من أن يسعدا بجنى ثمار الكفاح . بدأ الشقاق يعرف طريقه إلى عشهما السعيد . متى بدأ التحول ؟ ربما منذ ٤ أو ٥ سنوات ..

جفت ابتسامتها .. ونضبت كلمات الحب على شفتيها حتى خيِّل إليه أنها لم تعد تحبه وحزن حتى الموت على ضياع حُب حياته .

أفاق من أفكاره عن نظراتها المسددة إليه فأغلق صحيفته .. وتوجه إليها ببصره ..

قالت : الولد لا يذاكر كما ينبغى .. وأنت لا تأخذه بالحزم الواجب ! قرر أن يتفادى الاشتباك معها بكل وسيلة ليذهب إلى عمله هادىء الأعصاب فاليوم هو يوم اجتماع مجلس الإدارة .. وعليه أن يكون حاضر الذهن فقال لها راغباً فى المهادنة : سأتكلم معه عند عودتى هذا المساء وسأطالبه ببذل جهد أكبر .

قالت : لايكفى هذا .. عاقبه بخصم نصف مصروفه .. وتوعده بأنك ستخصم مصروفه كله إن جاءت نتيجة الامتحان الشهرى على غير ما يرام .

قال : حاضر .. سأفعل .

تصور أن الأمر انتهى عند هذا الحد .. لكنها لم تكتف : لماذا تبدو غير متحمس هكذا ، لماذا تتركنى وحدى لأواجه إهماله وألاحقه بالرقابة والزجر لكى يذاكر وأنت لا يسمع منك سوى المداعبات .. هل تريد أن أبدو قاسية عليه وأنت فقط الأب الحنون ؟ وحدى أحترق وأنت هادىء سعيد لا يزعجك شىء ؟!.

يا فتاح يا عليم .. فى الخارج يستطيعون تحديد مواعيد دقيقة للأعاصير القادمة قبل هبوبها فيستعدون لها .. أما فى بيتى فالعواصف تهب بغير إنذار .. قال محترساً من أن يزيد النار اشتعالاً :

ليس الأمر كما تقولين .. فكثيراً ما أتحدث إليه فى ذلك .. وهو له منطقه الذى لانستطيع تجاهله خاصة وأنه فى سن المراهقة وهى سن الحساسية والرغبة فى إثبات الذات إنه يقول : إنه يؤدى واجبه وإنه واثق من نجاحه لكنك تطالبينه با لمزيد وبالتفوق دائماً ..

هتفت : وطبعاً أيَّدته ضدى فيما قال .

أجاب : لِيس ضدك .. وإنما استمعت فقط لوجهة نظره ولابد أن نسمع له فالولد لم يعد طفلاً وإنما فى السادسة عشرة وهو يشعر أنه رجل

ولايصح معاملته معاملة الأطفال ، إنه يقول : إنه سواء ذاكر أم لم يذاكر فإنك تتهمينه بعدم أداء واجبه حتى إنه يفكر أحياناً فى أن يوفر تعبه ولا يذاكر ما دامت النتيجة واحدة وهى أنه متهم عندك بأنه لا يذاكر !

نفخت فى ضيق وقالت متهكمة : وطبعاً صدقته ؟ دائماً تصدق أولادك ولا تصدقنى .. وهل أنا عمياء حتى لا أعرف إذا كان يذاكر أو لا يذاكر .

قال معتصماً بأكبر قدر من ضبط النفس : لا يا ستى لا أصدقه وإنما أصدق فقط أنه يؤدى بعض واجبه .. لكن الإلحاح عليه دائماً ولومه وتعنيفه باستمرار لن يحققا الغرض .. إنه يحتاج إلى التشجيع أكثر من الزجر .. وإلى التجاوز أحياناً عن تراخيه المؤقت ، لأنه فى سن المراهقة .. وهى سن تتناوب الأولاد فيها دورات من الحماس .. ومن الخمول .. فساعديه على اجتيازها بالحنان والتشجيع وليس بالتقريع المستمر .

قالت مشتكيه : أهكذا ترى جهدى فى تربيته وتربية أخته ، إننى أشقى من الصباح حتى المساء فى خدمتهما ورعاية بيتك ورعايتك .. ولا أسمع منك كلمة تقدير واحدة .. وفى النهاية تصورنى كما لو كنت قاسية على ابنى .. أهذا هو العدل بعد ١٩ سنة من الحياة معك ؟

استقرت سحب الكآبة فوق المائدة المستديرة التى يجلسان إليها فأحس بحجر ثقيل يرزح على صدره وتنفس بعمق قبل أن يقول : لا أقصد شيئاً من ذلك .. وأنت تعرفين كم أقدِّر دورك فى حياة أولادنا وفى حياتى فلا تحوِّلى هذه المناقشة العابرة إلى نكد .

ونهض واقفاً وحمل حقيبته وقال لها مودعاً كعادته منذ الأيام الأولى لزواجهما : صباح الخير !

فلم ترد وقالت فى ضيق : تقول ما تشاء من الكلمات الجارحة ثم تحمل حقيبتك وتنصرف وتذهب إلى عملك وتنشغل به وتنسى كل شىء وأبقى هنا وحيدة بين جدران الشقة أفكر فى مغزى كلماتك ويحترق دمى!

يا إلهى .. لكم يتغير الإنسان دون أن يدرى .. كان حين يودعها قائلاً.. صباح الخير ويهم بالانصراف تحتال عليه بكل الحيل لكى يبقى دقائق أخرى وتغريه بشرب فنجان آخر من الشاى أو برواية نادرة جديدة سمعتها من جارتها البدينه .. أو تشاكسه بجذب حقيبة أوراقه من يده ليتحدث دقائق أخرى .. والآن جفَّ نبع الكلام الممتع .. وأصبح يشرب فنجان الشاى صامتاً فى معظم الأحيان ثم يحييها تحيته التقليدية عند انصرافه فتجيبه بمثلها بلا زيادة ولانقصان صباح الخير .. صباح الخير .. وهاهى الآن لاتجيب حتى هذه التحية!

توقف حاملاً حقيبته وقال لها برقة مفتعلة : لم أقل شيئاً يستحق الغضب ورغم ذلك فحقك علىَّ أرجو ألا تغضبى وسأفعل ما تريدين .. صباح الخير ..

.. ومد يده إلى مقبض الباب فلاحقَتَه بصوتها الساخط : وماذا قلت فى موضوع ريهام ؟

.. يبدو أن هذا اليوم لن ينتهى على خير ..

استدار إليها وقال : تانى يا مديحة ؟

أجابت بعناد وإصرار : تانى يا كمال !؟ لقد جاءتنى أم عادل أمس وأكدت لى أن الخطبة لن تعوقها عن الحصول على الثانوية العامة وأن ابنها ملتزم بأن تستكمل تعليمها كما تشاء وخسارة أن تضيع هذه الفرصة من يدها .

نظر إلى ساعته فوجدها تعدَّت الثامنة .. فقال لها متسلحاً بالصبر :

هل يمكن تأجيل هذه المناقشة للمساء .. فإنى أوشك على أن أتأخر ولدىَّ اليوم اجتماع مجلس الإدارة .

قالت : وهل مجلس الإدارة أهم من مستقبل ابنتك ؟ هل تريدنى أن أبدو أمام أسرة عادل كأنه لا رأى لى فى زواج ابنتى وأن الرأى كله لك وحدك .. لقد وعدتها بالرد عليها فماذا تقول ؟

قال لها وهو يتهيأ للانصراف : الحقيقة أنه لا رأى لى ولا لك فى هذا الموضوع فأنا لم أرفضه فقط لأنها صغيرة ولم تتعدَّ١٨ سنة ولا لأنها مشغولة فقط بالثانوية العامة .. وإنما لأنها وهذا هو الأهم ترفض الفكرة من الأساس ولا تميل لهذا الشاب بل تكرهه ، وقد فشلت أنت وأنت أمها فى اقناعها به فماذا تريديننى أن أفعل ؟

قالت : طبعاً رفضت وتمسكت بالرفض لأن بابا «الحنون» يؤيدها ولايريد أن يضغط عليها .. أنها لاتعرف مصلحتها كما نعرفها نحن ومن

واجبك أن تضغط عليها بشدة لترى وجه العدل فيما أقوله لها ؟

انتزع ابتسامة ساخرة وقال :

أنت يا مديحة التى تقولين ذلك ؟ أنت التى رفضت أن يضغط عليك أهلك للزواج من العريس الجاهز الذى كانوا يرغبون فيه وتمسكت بالزواج منى رغم معارضة أسرتك .

قالت بلهجة ساخرة : كنت مخطئة .. والآن عرفت أنه لا ينبغى أن يكون للبنت رأى فى زواجها !!

قال متسامحاً : الله يسامحك .. هل شبعت من الإساءة إلىَّ وأستطيع الانصراف الآن .. صباح الخير .

كادت الابتسامة تفلت من وجهها لكنها كبحتها بتجهم مفتعل وقالت :

ـ انتظر .. لماذا طلبت تأجيل الكلام للمساء ألن تعود فى موعد الغداء .

ـ سأتناول طعام الغداء مع ضيوف للشركة فى فندق «الشرق» .

قالت : طبعاً كل يوم غداء فى الخارج . وكل عدة أيام عمل فى المساء ولا اعتبار «للحيوانة» التى تعيش بين أربعة جدران فى انتظارك ومهمتها أن ترعى الأولاد وشئون البيت لتصنع نجاحك وتتمتع أنت بالمركز المرموق فى الشركة .. لماذا لا تعترف بالحقيقة ، وهى أنك لم تعد تحبنى

وأنك ستتناول غداءك «معها» .. ثم تطلق سراحى .

يا إله السماوات .. قالها لنفسه ساخطاً ثم قال لها :

ـ لو فعلت ما تقولين لما لامنى أحد .. فلقد فقدت عقلك وافتقدتُ فيك كل ما كنت أحبه .. ورغم ذلك فإنى لم أفعَل ولم أخن عهدكِ .. ولا أعرف لماذا لا أفعل .. ولماذا أظل أحبك رغم كل هذا الجنون الذى أواجهه منك .. أأنت المرأة الوحيدة فى العالم التى بلغت سن الأربعين منذ شهور .. هل فقدت ثقتك فى نفسك لهذا الحد .. إنك مازلت نفس الفتاة التى أحبها إننى سأتغدى فى فندق «الشرق» بقاعة السحاب الأحمر وتستطيعين مُفاجأتى هناكِ للتأكد من ذلك .. إذا لم تصدقينى ! .

قالت متهكمة : مفاجأتك ؟ هل تريدنى أن أطاردك فى الأماكن العامة كما تفعل الزوجات المجنونات بالغيرة على أزواجهن .. لكى تسعد بغيرتى عليك وتحس إنك الرجل المرغوب الذى تخاف عليه زوجته من أن يضيع من يدها؟ لن يحدث هذا أبداً .. إننى لا أرضى لنفسى بأن أعيش مع رجل غادر مثلك .. كمال .. طلقنى !

يا مثبِّت العقل والدين يارب !.. نفس الاسطوانة المشروخة القديمة التى كانت تديرها زمان فى الخلافات العابرة وأصبحت تكررها بكثرة من حين لآخر منذ اقتربت من سن الأربعين .. علمته التجربة معها أنه مطلب شائك إذا أجاب عليه بكلمة «لا» غضبت أو تظاهرت بالغضب.. وإذا أجاب عليه بكلمة «حاضر» هاجت وماجت وانهارت

باكية مولولة نادبة حظها الذى أوقعها فى هذا الرجل الغادر الذى تفانت فى حبه وإسعاده وتحملت معه كل أنواع المعاناة حتى صنعت منه رجلاً مرموقاً وموعوداً بأرقى المناصب ثم تسقط فجأة على الأرض شاحبة الوجه عاجزة عن تحريك ذراعها اليسرى وساقها .. ويستدعى الطبيب فيصف لها دواء مهدئاً وينصحها بالراحة فى الفراش لمدة ٣ أيام فتقضيها بلا حراك فى سريرها وعيناها لاتتوقفان عن البكاء كأنها تخرج دموعها من بحر لاينضب .. ويلازمها هو بالطبع هذه الأيام الثلاثة ويدها لاتفارق يده ولسانه لايتوقف عن اقناعها بأنه لم يوافق على الطلاق إلا من باب العناد معها لكنه لم يكن ينوى أبداً طلاقها .

مرَّ الشريط المعتاد أمام مخيلته .. ونظر إلى ساعته فوجدها تقترب من الثامنة والنصف .. وتذكر اجتماع مجلس الإدارة فقرر أن يفوت عليها الفرصة هذه المرة .

ففتح الباب والتفت إليها قائلاً : مديحة .. صباح الخير ..

أجابته بنفس العناد : كمال .. طلقنى ..

فخرج من الباب وهو ينظر إليها نظرة معبِّرة كأنها يقول لها : لا داعى لهذه الحركة لأنى متعجل ثم قال لها وهو خارج الشقة : مديحة : صباح الخير ..

أدركت أنه مصر على تفويت الفرصة فلاحقته والباب يتحرك لينغلق:

ـ صباح القطران .. لا تتأخر !

ثم نهضت عن المائدة وتعبيرات وجهها تتراوح بين التجهم والابتسام ودخلت إلى المطبخ لتبدأ مشوار واجباتها اليومية !



جمعية ضرب الزوجات !

ضرب صديقى زوجته علقة ساخنة !

الضرب هو قمة انفعال الإنسان وعدوانيته تجاه الآخرين ، كثيراً ماينفعل الإنسان ويفقد سيطرته على نفسه فى معاملات الحياة اليومية .. لكن لماذا لا يترجم غالباً هذا « الانفلات» العصبى إلى لكمة أو صفعة .. إلا مع أقرب الناس إليه !؟

إن للحياة ضوابط كثيرة منها الدين والقانون والعرف والتقاليد وهى تحكم إلى حد كبير تصرفات الإنسان وتجبره على أن يسيطر على نفسه ويردها عما تريد أن تفعل ، فلماذا لاتفقد هذه الضوابط تأثيرها علينا إلا مع أقرب الناس إلينا .. وأحقّهم بأن نعتصم معهن بالحكمة وضبط النفس ؟

دارت فى رأسى هذه الخواطر وأنا فى طريقى إلى منزل صديقى الذى استغاث بى بعد المعركة لأحاول إنقاذ أسرته من التصدع . أحسُّ دائماً بشىء من الحرج حين يشركنى أصدقائى فى مشاكلهم الشخصية وهو حرج لا أستشعره حين أقبل راضياً السعى للإصلاح بين زوجين من

قرائى احتكما إلى بغير صلة شخصية بيننا . من لا أعرفهم يتحدثون أمامى بحرية ولا يستشعرون حرجاً من اطلاعى على دقائق حياتهم لأنى غالباً لن أراهم مرة أخرى ، كما أنى فى حالات كثيرة أفضل ألا يبوحوا لى بأسمائهم لأنها لاتعنينى فى شيء .

لكن الأمر يختلف مع الأصدقاء ، فالحرج قائم .. واحتمال إغضاب من لا يرضيه حكمى كبير .. ومن المستحيل غالباً إرضاء الطرفين معاً .

دخلت إلى شقة صديقى فخيل إلىّ أنى أخطأت العنوان . فبهو الشقة فى حالة فوضى عجيبة وبعض مقاعد مائدة الطعام راقدة على الأرض .. وقطع من الخزف متناثرة فوق السجاد تعرَّفت فيها على بقايا «فازة» من الخزف الأزرق الجميل كانت توضع فوق المائدة . وصديقى الذى فتح لى الباب قادنى إلى الصالون واجماً ، ثم قال لى وهو مطرق : إن زوجته فى غرفة النوم تجمع ملابسها وتصر على مغادرة البيت ، وإنه اتصل بى لعلى أستطيع تدارك الأمر قبل أن يتحول إلى مشكلة مستعصية .. وفضيحة عائلية . وطلبت أن يدعوها للقائى ، وجاءت زوجته بعد قليل وآثار المعركة واضحة على وجهها وإحدى عينيها متورمة وقطعة من البلاستر الطبى فوق خدها الأيمن ! .

وسمعت القصة .. خلاف عابر ككل الخلافات العائلية .. إحدى قريبات زوجته اتصلت بها تليفونياً ودعتها مع أطفالها لتناول العشاء بعد يومين ، ورأت زوجته أنه لاشيء سيشغله عن تلبية الدعوة ، فارتبطت مع قريبتها على الدعوة ، وعاد صديقى من عمله مجهداً ، فلم

تبلغه بها ونام ، ثم استيقظ وتناول طعامه ، وبعد ساعتين تذكرت زوجته القصة ، فأبلغته بها ، فاستاء ، لأنها ارتبطت بالقبول قبل أن تستشيره لأنه مرتبط بعمل في نفس الموعد ..، وكلمة من هنا .. وكلمة من هناك نعق غراب الخلاف في عشهما الهادىء .. وتطايرت منه عبارة حادَّة.. فجاوبتها عبارة أكثر حدة وتصاعد الموقف وكعادة معظم الزوجات والأزواج ، تمت تنحية المشكلة الصغيرة التى أثارت الخلاف جانباً ، واستدعيت الذكريات القديمة من مكامنها وتحوّلت المشكلة من مسألة «الدعوة» إلى قضية العلاقة بين الزوجين والأيام التعيسة التى عاشها كل منهما مع الآخر ... و«الفظائع» التى ارتكبها طوال خمسة عشر عاماً فى حق شريك عمره وانتهى «التقييم» العلمى لتاريخ العلاقة إلى أن كلاهما «شخص لايطاق » ولايدرى صاحبه كيف احتمله كل هذه السنوات .. ولولا صبره واحتماله وتضحيته لما استمر هذا البيت يوماً واحداً منذ البداية !

وهكذا بدأ الحديث بخلاف عابر .. وانتهى بكلام فى قضايا فلسفية عويصة ! لهذا فإن نصيحتى التى أوجهها دائماً للأزواج والزوجات هو أن يكون خلافهما منطقياً ومحصوراً فى دائرة السبب المباشر له دون إعادة طرح العلاقة بينهما ككل للنقاش الذى لابد أن ينتهى غالباً بالحكم عليها بالفشل ! فالاختلاف فى الرأى والشخصية والسمات من طبيعة الحياة والله سبحانه وتعالى لم يخلق بعد شخصين متماثلين فى كل السمات النفسية والشخصية ولو كانا من التوائم ، ولو دققت النظر كما كان

الأديب الألمانى جوته يقول لما وجدت ورقتين من أوراق الشجرة الواحدة متماثلتين تماماً فى أغلب الأحوال فما بالك بالبشر ؟ إذن فاختلاف الآراء وراد دائماً والنزاعات الصغيرة متوقعة من حين لآخر بين أكثر المحبين عشقاً لبعضهم البعض . ولا وجه للتعجب من تشاحن زوجين أو حبيبين من وقت لآخر لكن المهم هو أن يبقى التشاحن بل والتغاضب فى دائرة السبب المباشر الذى أثاره .. وأن تكون أوقات الصفاء طويلة ودائمة وأوقات التشاحن قصيرة وعابرة .

ولو استطاع الزوجان أن يتعاملا مع خلافات الحياة العادية بهذا المنطق لتخففت الحياة بينهما من كثير من المتاعب ، ولما حفظ لنا «الأثر» قول الرسول الكريم ﷺ ما معناه هو أنك لو أحسنت إليهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً لقالت لم أر منك خيراً قط !

ولما ترددت أيضاً على ألسنة الزوجات عبارات « شوف الرجل الجاحد ناكر النعمة لقد نسى لى كل ما فعلت من أجله .. ويقول إنه لم ير معى يوماً واحداً من السعادة !»

ولما روى لنا التاريخ حكاية اعتماد الرميكية التى أحبها أحد ملوك الطوائف بالأندلس وانتشلها من الفقر والبؤس وأغدق عليها النعيم والحب والإعزاز ، وبالغ فى تدليلها حتى تشهَّت عليه يوماً أن تمشى حافية فى الطين كما كانت تفعل مع صديقاتها فى طفولتها البائسة ، ففرش لها حديقة قصره بالطين المعجون بالمسك والريحان ، ونثر فوقه الدرر والجواهر ، ودعاها لتمارس رغبتها فجاءت مع جواريها وتلهَّيْن

با لمشى فى الطين والتقاط الجواهر ، ثم تلاحت معه بعد ذلك بفترة قصيرة فى شىء عابر فقالت له متشكية : لم أر منك خيراً قط ! . فسألها متعجباً : حتى ولا يوم الطين ! .

والحقيقة المؤكدة هى أنه فى حياة كل زوجين أياماً كيوم الطين .. كل حسب قدرته و إمكانياته ، حاول فيها وحاولت فيها إرضاء الطرف الآخر و إسعاده بإخلاص ، لكن حمق الخلاف يُنْسى الإنسان فضل شريكه فى ذروة العمى العصبى الذى يصاب به من يفقد سيطرته على نفسه .

لهذا فالمهم دائماً هو ألا يحاكم الزوج زوجته عن «تاريخها» معه حين يختلف معها وألا تحاكم الزوجة زوجها عن نفس التاريخ . وأن يضع كلٌّ منهما العلاقة الزوجية بينهما فى حرز حريز بعيداً عن موضوع الشقاق العابر المثار الآن وفى هذه اللحظة .. ولو فعلاً لما تحطمت زيجات كثيرة دمرها الحمق واجترار المرارة واستعذاب الشكوى والأنين .. وتحويل الخلاف العابر إلى مأساة إغريقية بلا مبرر .

قلت كل ذلك لصديقى وزوجته ، وتعجبت من تطور الشقاق بينهما حول هذه المسألة التافهة إلى إهانات متبادلة انتهت بتحول الحبيبين فى قمة الحمق إلى خصمين يتصارعان وينتهى الصراع بلكمة قاضية فى عين الزوجة ! ثم طلقنى !

إن للخلاف آداباً ينبغى أن يراعيها الأزواج والزوجات على وجه الخصوص .. ومن أولها ألا يحاول أحدهما ان يزيد من استثارة الطرف

الآخر وهو فى قمة انفعاله وأن يبذل كل منهما غاية جهده لامتصاص غضب الآخر وتأجيل المناقشة إلى وقت آخر يكون فيه أهدأ أعصاباً وأن يقول لشريكه ما يشاء بشرط ألا يجرح كرامته ، وألا يعزف على أوتار الحساسية عنده التى يعرف بالتجربة أن مسها يفقده صوابه ويعمى بصيرته .

وألا يستنكف أن يعترف بالخطأ معتذراً .

أما مسألة الضرب هذه ففيها نظر طويل .

لقد اعترف صديقى بخطئه .. ورضيت زوجته بصعوبة شديدة باعتذاره ، وتنازلت عن قرارها بترك البيت ، لكن صديقى لفت نظرى بعبارة قالها لها خلال محاولته استرضاءها ، وهو أنه رغم خطئه لم يرتكب إثماً ، لأن الشرع يبيح له أن يؤدب زوجته بالضرب إذا ما خرجت عن الصواب، فكان اعتراضها صاخباً ، وكادت ترجع فى الصلح لولا أن تدخلت بينهما .. و«فوّتها» فى حينها حتى لا أساهم فى تأزيم الموقف بينهما لكنى حين انتحيت به جانباً قلت له : إنك ومن يرى رأيك تظلمون الإسلام بعدم فهمكم له ، فالإسلام لم يشرع ضرب الزوج للزوجة إلا بشروط، وفى باب واحد هو الإصلاح كراهية للطلاق ، ولم يشرعه فى كل الأحوال فالآية الكريمة تقول : «واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن» والنشوز لغوياً هو الارتفاع .. والمقصود به هنا الترفع والعصيان ، لهذا فهو ليس مقصوراً على المرأة ،

لأن المرأة تكون ناشزاً إذا أساءت معاملة زوجها لأنها بذلك قد ترفعت على أمر الله لها بإحسان عشرته ، والرجل أيضاً يكون ناشزاً إذا أساء معاملة زوجته لنفس السبب .

ولأن الإسلام لا يكره شيئاً حلالاً ككراهيته للطلاق فلقد أمر الزوج بأن يأخذ احتياطات عديدة قبل أن يضطر إليه وهذه الخطوات بالترتيب هى الإرشاد والوعظ ثم الهجر فى الفراش ثم الضرب ثم التحكيم .

وأما الضرب فهو ثالث خطوة فى محاولات الإصلاح تجنباً للطلاق وهو محكوم بشروط قاسية أهمها عند بعض الفقهاء اعتقاد الزوج أنه قد يفيد فى إصلاح الزوجة فإن تأكد من عكس ذلك لم يكن له أن يضرب ، ومن شروطه أيضاً ألا يكون شديداً وألا يترك أثراً فى الجسم ، وألا يكون فى مواضع مؤذية كالوجه والصدر والبطن ، وهو بهذه الشروط أقرب إلى التهديد منه إلى الضرب الفعلى ولو التزم الزوج بهذه الشروط لتعذر عليه تقريباً تنفيذه .

ولا أريد أن أغرق فى بحر الآراء الفقهية التى تختلف فى التفاصيل لكنها تتفق تقريباً على أنه ينبغى أن يكون إذا حدث «فللإعلام» وليس للإيلام حتى إن بعضهم قال بأنه يجوز بالسواك ، وأن طاعة الزوج التى تعتبر الزوجة ناشزاً إذا خرجت عليها هى عند معظمهم عدم الإجابة فى الفراش ، وعدم الخروج بغير إذنه ، لكنى ذكَّرت صديقى فقط وهو من أهل السنة المتدينين بأن حبيبه وحبيبنا رسول الله ﷺ لم يضرب امرأة قط ،

وأن ابن سعد قد روى عن عائشة : أنه ما ضرب رسول الله (ﷺ) بيده امرأة قط ، ولا خادماً ، ولاضرب شيئاً قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله .

كما روى ابن سعد أيضاً عن الرسول حديثه الشريف لائماً الرجال : «يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد .. ثم يظل يعانقها ولا يستحى»! فضلاً عن أنه القائل أيضاً خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى . لهذا كله يا صديقى فمن سوء العشرة وقوعه بهذه الطريقة وتكراره فى كل مشاجرة يبرر للمرأة طلب الطلاق للضرر .. ويساندها الشرع والقانون فى ذلك .

أما الإمام ابن حزم الأندلسى وأنا وصديقى من محبيه فيقول فى هذه المسألة «فإن عصته كان له هجرانها حتى تطيعه ، وضربها بما لا يؤلم ولا يجرح ولا يكسر ولا يعفن ، فإن ضربها بغير ذنب أُقيدت منه « أى أُخِذ لها بالقصاص منه» ! كما أن الآية الكريمة التى أشرت إليها تقول أيضاً «فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » . أى فلا تلتمسوا سبيلاً لإيذائهن ثم يختم الحق سبحانه وتعالى نفس الآية بقوله : « إن الله علىٌّ كبير » لينبِّه ـ كما قال المفسرون ـ العبد إلى أن قدرة الله فوق قدرة الزوج وأنه سبحانه وتعالى عون للضعفاء والمظلومين .

ولكل هذه الأسباب فلا داعى للضرب أصلاً لأنه لو روعيت فيه كل هذه الشروط الشرعية لاستحال عمليا تنفيذه أو كاد ، فضلاً عن أن الأسوة الحسنة وهو رسولنا الكريم قد تركه وترفع عنه أفلا نتأسى به ولو

فى هذه الناحية فقط التى ترفعنا قدراً وتزيد من احترامنا لأنفسنا .. وتحفظ لنا السلام الزوجى بغير حاجة للكلام عن حقوق المرأة وقانون العقوبات !.

.. واقتنع صديقى ووعدنى بعدم استخدام يديه فى أى مناقشة قادمة مع زوجته .. وأرجو أن يصدق فى وعده ! .



جمال « الحظ »

** المرأة حين تعبر عن نفسها تتحول فجأة إلى شاعرة وروائية و«خطيبة » تنافس أشهر خطباء التاريخ من شيشرون خطيب الرومان .. إلى قس بن ساعدة خطيب العرب الذي كان أول من قال في خطبه عبارة أما بعد ! .. ولست أقول هذا من فراغ ، لكنى أستقبل دائماً سيدات وآنسات كثيرات ، أسمع منهن مشاكلهن ، وأحاول مساعدتهن بالرأى فيما يشغلهن ، وأقرأ خطابات كثيرة لسيدات يتحدثن عن حياتهن ، وأستقبل رجالا كثيرين من المهمومين، وأستمع لهم .. ومن خلاصة تجربتي مع الجنسين أستطيع أن أقول إن المرأة « أبلغ » من الرجل في التعبير عن نفسها .. والمتزوجة « أفصح » من غير المتزوجة في الشكوى من ظروف حياتها .. والمرأة متزوجة أو غير متزوجة تنحل عقدة لسانها إذا اطمأنت إلى استعداد من يسمع لها لأن يعطيها من وقته فتنطلق لترسم صوراً بيانية وبلاغية لمعاناتها لا يرقى إليها أحيانا خيال الشعراء .

ومن العبارات الشائعة على لسان المرأة والتي اعتدت سماعها في التليفون وفي المقابلات الشخصية عبارات : لا أعرف من أين أبدأ حكاية مشكلتي .. من اليوم الذي ولدت فيه ؟ .. أم من اليوم « الأسود »

الذي تزوجت فيه ؟ .. أم من اليوم « الأغبر » الذي اكتشفت فيه عقدة حياتي ؟

أو عبارة آه .. انني لو بدأت الحديث عن آلامي فسأحتاج إلى أيام .. وساعات لألخصها لك .. لكني سأحاول أن اختصرها في كلمات قليلة ! ثم تشغلني بالحديث عن مشكلتها لمدة ساعة على الأقل وتنصرف وهي تؤكد أنها لم ترو لي سوى قطرة من بحر مشكلتها !

أو عبارة : أرجو أن تصبر عليّ حتى النهاية فإن في قلبي ناراً أريد أن أطفيء لهيبها !

وفي البداية كنت أسمع للجميع بصبر وأؤجل كل أعمالي إلى ما بعد انصراف زواري، ثم أبدأ في أداء واجباتي الصحفية فلا أغادر مكتبي كل يوم قبل الفجر .. ثم فرضت على ظروف الصحة والعمل أن أحدد حداً أقصى لوقت الزيارة وأن أرجو زائرتي أو زائري أن يحاول اختصار قصته في حدود الوقت المخصص للقاء وهو ٢٠ دقيقة لكل زائر .

فلم يحدث إلا في حالات نادرة أن التزمت سيدة أو آنسة بهذا الوقت المخصص لها .. فالرجل يروي لي مأساته وقد تكون من المآسي الإغريقية في ربع ساعة .. والمرأة تروي لي قصتها وقد تكون من مشاكل الحياة العادية في ساعة إن لم تزد .. ولا تغادر مكتبي قبل أن تفتحه عليها السكرتيرة عدة مرات لتذكّر ضيفتي أن في الانتظار سيدات ورجالا آخرين ينتظرون منذ ساعات .. وربما أنهض لمصافحتها مودعاً فتواصل

الحديث معي واقفة عشر دقائق أخرى وتغادرني وهي آسفة لأنها لم تعبر عن كل ما في قلبها !

ولا عجب في ذلك فالمرأة أكثر انشغالا بهمومها ومشاعرها من كثير من الرجال .. وأكثر ميلاً للشكوى من الرجل .. وهي حين تكتب عن نفسها تستعير غالباً قدرة الشعراء والروائيين في رواية مشكلتها وتنهي رسالتها غالبا بالاعتذار عن تشوش أفكارها وعدم قدرتها على التعبير عما أرادت أن تقول !

وفي بعض الأحيان كنت أتلقى رسائل صوتية مسجلة على شرائط كاسيت من القراء والقارئات .. ثم اعتذرت بعد فترة عن عدم تلقيها بعد أن اكتشفت أنها تضيع الكثير من وقتي .. فالرجل يتحدث فيها على راحته متحرراً من حرج وجود شخص آخر معه وتستغرق رسالته حوالي الساعة .. أما المرأة فلم تكن ترسل لي أقل من شريطين مسجلين وجها وظهرا عن مشكلتها يحتاجان إلى ساعتين لسماعهما .

وميل الانسان للشكوى قديم قدم النفس البشرية .. وأول شاك في الأرض قابيل بن آدم الذي شكا حظه وتطلع الى حظ غيره من الحياة .. فحين هبط آدم مع حواء إلى الأرض كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى.. وأمر بأن يزوج كل ابن له أخته التي لم تولد معه ، وأراد هابيل أن يتزوج أخت قابيل لكن قابيل أراد أن يستأثر بها ولم تكن تحل له، فأمره أبوه أن يزوجها لهابيل فلم يمتثل ، فأمرهما بأن يقربا قرباناً لله رب العالمين فقرب هابيل وكان صاحب غنم « جذعة » سمينة منها .. وقرب قابيل حزمة

من زرع رديء زرعه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل.. فغضب وقال لأخيه : لأقتلنك حتى لا تنكح اختي فأجابه : إنما يتقبل الله من المتقين .. وانتهز قابيل فرصة وجودهما معاً بعد أيام في الخلاء وقتله وحمله على ظهره لا يعرف ماذا يفعل به حتى بعث الله له بغرابين تقاتلا أمامه فقتل أحدهما الآخر وحفر له حفرة وواراه فيها فتعلم منه كيف يواري سوأة أخيه . فشكا مرة أخرى عجزه وجهله فقال « يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي » (المائدة - ٣١) .

ويقال إن أخت هابيل التي عرفت الدنيا أول جريمة من أجلها كان اسمها قليما .

ومنذ ذلك الحين والرجال يقتتلون من أجل المرأة والنساء يقتتلن من أجل الرجل .. وفي السنوات الآخيرة ظهرت أو كثرت نسبيا الجرائم التي تقتل فيها المرأة الرجل (الزوج) لتستمتع بحياتها مع رجل آخر .

ومنذ ذلك الحين ونحن جميعاً نشكو حظوظنا .. والشاعر القديم الذي قال : « كل من في الكون يشكو حظه » كان محقاً حين قال « حظه» ولم يقل عقله .. لأننا جميعاً نشكو حظوظنا ولا نشكو أبدا عقولنا كما قال صادقاً الأديب الشاعر الراحل كامل الشناوي .. ولقد وجد كامل الشناوي تفسيراً لذلك فى أسطورة قديمة تزعم أن الله سبحانه وتعالى حين خلق البشر خلق أجسامهم وأرواحهم ، ودعاهم إلى ساحته وراح

يوزع عليهم الأرزاق والأعمار والحظوظ ثم دعاهم إلى مائدة رُصَّت عليها العقول وطلب من كل منهم أن يختار العقل الذي يريده .. فاختار كل انسان عقله . ولهذا فلا أحد يشكو من عقله أبدا لأنه من اختياره لكنه يشكو حظه لأنه لا حيلة له فيه .. أو هكذا يتصوره ، وكل مهموم يحلم بلحظة كشف الغمة التي أذن الله فيها بكشف غمة سيدنا أيوب وأمره بأن يضرب برجله الأرض فنبع له نبعان ، شرب من أحدهما واغتسل من الآخر فذهب بلاؤه بأمر الله ﴿ أُركض برجلك هذا مُغتسل بارد وشراب﴾ . وكلنا نحلم بهذه اللحظة لكن قليلا منا من يصبر على همومه صبر أيوب على بلائه أو له عمق إيمانه حيث استحق بهما نعمة ربه عليه.. وإنما نشكو كثيراً ونصبر قليلاً، ونطلب من الدنيا مُغتسلاً بارداً وشراباً وسعادة دائمة .. وثراء لا حد له .. ونفوذاً ووجاهة .. وأفضل الأشياء في كل وقت وكل أوان.

وقد حدث أن نشرت منذ سنوات فى بريد الجمعة بـ « الأهرام » تعليقاً استشهدت فيه بكلمة للمفكر الفرنسى جان جاك روسو يقول فيها : بولادتي بدأ سوء حظي في الحياة !

فجاءتني صيحات « الطرب » والاستحسان من قارئات وقراء كثيرين في التليفون وفي الرسائل لأن هذه العبارة كما قالوا تعبر تماماً عن حالهم ! وقد « استراحوا » حين « عثروا » عليها لكي يصوروا بها شقاءهم !

واتصلت بي ذات مرة قارئة لتسألني سؤالا عجيباً هو : أليس عندك عبارة « أقوى » تعبر عن سوء الحظ وقلة البخت في الحياة ؟

فضحكت .. وتعجبت .. وألحت القارئة علي فقلت لها إن الشاعر الانجليزى لورد بايرون كان مذهبه : « الحياة شقاء » !..

فقالت كأنها مدرس يشجع تلاميذه على بذل مزيد من الجهد : لا بأس ماذا عندك أفضل ؟

فقلت لها :

ان الشاعر المصري البائس إمام العبد له بيت من الشعر يقف به على حافة الكفر هو :

لولا بقية ديـن أمسَكْت قلمي لقلت إن إلّه العرش لم يـرني !

فصاحت كأنها تسمع مطرباً يغني : الله .. الله يا أستاذ .. وماذا أيضا؟!

فلم أتمالك نفسي من الضحك وقلت لها: إن الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت بعد أن أطلق صيحته الأصلية عن الشك .. ماتت طفلته غير الشرعية فاكتوى قلبه بالألم وقال : أنا أتألم .. اذن أنا موجود !

فلم تتمالك هي هذه المرة نفسها وراحت تعبر عن إعجابها بالعبارة في « نشوة » غريبة كأنما عثرت على ضالتها المفقودة التي تصور تماماً كما تقول « حالتها » ! .

وهكذا كل إنسان يتصور نفسه أحيانا أتعس من في الوجود .

ورغم احترامي دائما لآلام كل إنسان .. مهما بدت هينة فإني أحاول

أن أنصحه دائماً بألا يغالي في تقدير حجم همومه لكي يُعين نفسه على احتمالها وتخطيها .. وبأن ينظر حوله ليرى أنه ليس أتعس التعساء كما يتصور وأن هناك من يُعَدُّ هو بالقياس إليهم من المحظوظين .. والمهم دائماً هو ألا ينسينا التطلع إلى المفقود .. الشكر على الموجود .. وإدراك قيمته .. والقدرة على الاستمتاع به.

ولو راقبت حياة البشر لعرفت أن في حياة كل إنسان منحنى صاعدا وآخر هابطا وأنه يظل يصعد ويواصل الصعود حتى يبلغ القمة التي ليس بعدها صعود .. ولا يكون بعد القمة سوى الهبوط .. التدريجي في سلم العمر وفي كل شيء إلى أن يصل إلى منتهاه الطبيعي .. بالموت .

وحين قرأت سيرة نابليون لاحظت أن المنحنى الصاعد في حياته ظل يوالي الصعود حتى بلغ منتهاه في اتفاقية « تِلست » التي عقدها سنة ١٨٠٧ مع قيصر روسيا بعد نجاح نابليون في هزيمة بروسيا وإخراج القيصر من تحالفه معها. فأخضع نابليون بذلك أوروبا كلها لنفوذه ونفوذ القيصر وبلغ أعلى قمة في هرم مجده .. ثم بدأ المنحنى الهابط والنزول تدريجيا من الناحية الأخرى للجبل حتى وصل إلى السفح والنفي والعزلة الصامتة الموحشة.

وربط العرافون بين طلاق نابليون لزوجته جوزفين بسبب عدم إنجابها وزواجه من الأميرة النمساوية ماري لويز .. وبين تخلي الحظ السعيد الذى رافقه دائما .. وربما كان ذلك صحيحا.

أما المؤكد فهو أن في حياة كل إنسان نقطة « تلست » مماثلة لا

يستطيع أن يحقق لنفسه بعدها أقصى مما حققه من قبل .. وعليه أن يسعد بما حقق .. وأن يؤهل نفسه لقبول حكم الطبيعة في الهبوط التدريجى لقواه وصحته وكل شيء، وأن يتعايش مع هذه الحقيقة ولا يشقى بها ، ولا يشكو منها .. لكن المشكلة هي أن كثيرين منا لا يصدقون أن لكل شيء « تلست » لا مفر منها .. ويفزعون لأي شيء ينغص عليهم حياتهم ويستجيبون لميل الإنسان الغريزى للرثاء للنفس.. وللشكوى .. فيتألمون ويشكون .. ويبالغون في تصوير شقائهم ومعاناتهم.

ومن أجمل العبارات التي قرأتها في رسائل قراء بريد الجمعة وقارئاته عبارة كتبتها سيدة جميلة جدا فشل زواجها مرتين متتاليتين .. وتجرعت التعاسة حتى الثمالة .. فروت لي قصتها ثم اختتمتها بهذه العبارة المريرة : ما قيمة الجمال الذي لا تجني صاحبته من ورائه الا التعاسة .. صحيح يا سيدي أن الجمال الحقيقي هو : جمال الحظ !

ووجدت نفسي أنا هذه المرة الذي أصيح طرباً كما كان يفعل عشاق أم كلثوم معها وأقول : الله .. ياست !. وأحلم لنفسي وللجميع بجمال الحظ .. وجمال النفس .. وجمال الصبر على المكتوب .. والرضا به .. فاللهم استجب .

قصة قصيرة ...

هــو الحــب !

-١-

- لا زلت غير مقتنعة بما تريدني أن أفعل ..

- بعد كل ما قلته لك ؟

- بعد كل ما قلته لي ؟

- وإذن ؟

- وإذن .. لا أعرف ماذا ينبغي أن أصنع .. إننى أحبك .. لكنك تطالبني بمطالب جديدة .. إن رفضت أغضبتك .. وإن قبلت فعلت مالا يرضاه عقلي .

- العقل مرة أخرى ؟

- نعم مرة أخرى وثالثة

- وإذن ؟

- إذن .. سأقبل هذه المرة فقط لأني لا أتحمل أن أراك حزينا هكذا سآتي معك إلى منطقة الأهرامات .. لكن بشرط أن تكونْ عاقلا .

ـ يا حبيبتي !

ومال إلى اليسار وهو يتوثب فرحا لأنه استطاع أن « يقنعها » أخيرا .

وانحرفا إلى الطريق الهابط إلى التمثال التاريخي « أبو الهول » وعند نقطة معينة فيه مالا إلى الخلاء الواسع خلفه . ومد يده يتلمس يدها ، فمنحتها له ، واستراحت كفها في كفه. لم تكن تستطيع أن ترفض ، كان رجاؤه في عينيه شديدا نفس الرجاء الذي شدها إليه عندما رأته لأول مرة على ناصية الطريق إلى معهدها . كان يأتي إلى نفس المكان ويترقب وصولها مع زميلاتها ويتابعها بعينيه حتى تغيب وراء أسوار المعهد، ويوما قالت لها صديقتها إن هناك « من » يهتم بها وينتظرها كل يوم ، وفي الصباح التالي راقبته في مكمنه التقليدي والتقت عيناها بعينيه ، وأحست في اللحظة الأولى أن قصة ما تولد بينها وبينه . بعد أسابيع طويلة من الترقب والانتظار تقدم منها وهي بين صاحباتها في الصباح المبكر فجفلت الصديقات لكنها لم ترتبك ولم يهتز ثباته . وفي صمت مد إليها يده بورقة صغيرة ، ومدت يدها وأخذتها ، ثم اختفى . وفي المعهد قرأت كلمات الحب في رسالته الأولى وبدأت قصتها معه ، كل صباح ينتظرها أمام محطة الأتوبيس وكل أسبوع تلقاه بعد الدراسة في الحدائق القريبة . ثم بدأ يلح عليها أن تقوم معه بهذه الرحلة إلى منطقة الأهرامات في الصباح الباكر، رفضت في البداية وقاومت ، لكنها انهزمت أمام نظرة الرجاء التي تبدّت في عينيه ، وقررت أن تغيب عن المعهد وأن تذهب معه إلى المنطقة الخالية التى قال لها إنه يعرفها جيدا ، وإنهما هناك يستطيعان

أن يجلسا بعض الوقت في كهف قريب من الحفريات لا يزوره أحد في الصباح الباكر ويتحدثان بعيدا عن العيون .

- ٢ -

أزاح الغطاء عن وجهه ونهض ولمَّا يغمض له جفن طوال الليل .. أحس لسعة الماء البارد وهو يغسل وجهه ، ثم ارتدى ملابسه وألقى نظرة على وجه شقيقه الوحيد الغارق فى النوم ثم غادر الشقة .. الشارع صامت هادىء فى هذه الساعة المبكرة من هذا اليوم قارس البرودة .. انحرف إلى الميدان واشترى من محل علبة سجائر صغيرة وعلبة بسكويت ومضى إلى المقهى القريب .. توارى خلف زاج المقهى من برودة الصباح المبكر والتهم البسكويت وشرب كوب الشاى الساخن ودخَّن سيجارة ثم أخرج ورقة وقلماً وراح يكتب رسالة قصيرة إلى أخيه الذى تركه نائماً فى مسكنهما . كتب «اعذرنى يا أخى واغفر لى الآلام التى تسببت لك فيها طوال حياتنا المشتركة منذ توفى والدنا .. لقد كنت نعم الأخ الأكبر لى لكننى لم أكن أخاً طيباً لك فكثيراً ما تعثرت فى دراستى وطالما رسبت لسنوات عديدة وطالما رسبت لسنوات عديدة وطالما أرهقتك بمطالبى ونفقاتى التى لا يتحملها مرتبك الصغير ، ولكم كنت ظالماً وأنانياً فحتى السجائر طالبت بها وحتى نفقات الخروج «معها» طوال العامين الماضيين كنت تقدمها لى راضياً ، وهاهى تضحياتك تضيع عبثاً ، فبعد أن تخرجت من كلية التجارة ورحت أنتظر العمل لكى أكوِّن لنفسى حياةً مستقلة وأتزوجها وبعد كل العذاب الذى عانيته من أجلها اكتشفت أن

هناك شخصاً آخر لا ينتظر العمل كما أنتظره ، ولا يقترض نفقات الخروج معها من شقيقه الوحيد مثلى ، سوف تسألنى كيف عرفت هذا وسأخبرك .. لعلّك تذكر عندما أجريت لها عملية الزائدة الدودية وتذكر عذابى معها وقلقى عليها وإقامتى معها شبه الدائمة فى المستشفى ، كنت أزورها كل يوم فى الصباح وفى المساء ، وأحمل لها ملابسها النظيفة من بيتها .. ثم رأيته هناك . شخص غريب لم أره من قبل لكنه موضع اهتمام الجميع، الأم تركز نظراتها عليه والأب يتملقه والإخوة يتحدثون عنه باحترام شديد حتى هى تعامله برقة وترمقه بنظرات توحى بأن هناك شيئاً ما قديماً ومتجدداً بينهما . وبعد ظهوره على الفور بدأت أحس بأن الأسرة تضيق بوجودى معهم فى غرفتها ، بدأوا يتجاهلوننى لساعات طويلة فلا يوجه إلى أحد كلمة واحدة .. فإذا انصرفت لايخفون ارتياحهم لانصرافى حتى هى بدأت عيناها تهرب من عينى .. وتتجاهل أسئلتى الصامتة عما جرى ولماذا تغيرت .. لم أكن فى حاجة إلى ذكاء شديد لكى أعرف حقيقة ما جرى .. فهو خطيب جديد من أقارب الأسرة . يعمل فى دولة عربية وعاد فى أجازة قصيرة إلى بلاده ويريد أن يتزوجها وأن يعود بها إلى مقر عمله كعادة بعض المصريين الذين يعملون فى الدول العربية .. وكان ذلك كافياً لكى يلهب خيال كل أفراد الأسرة .

هكذا لم يصمد حبها للإغراء الجديد .. ولم يشفع لى حبى وإخلاصى عندها ، ثم جاءت النهاية على يد خالها .. ذات مساء وأنا جالس بجوار سريرها رغم الاحتجاج الصامت والجو العدائى الذى يحيط بى من كل

جانب .. أحسست يد خالها الوقور تتحسس كتفى ثم سمعت همساته :
مجدى أريدك فى كلمتين .. خارج الغرفة .

وخرجت معه إلى مقهى قريب .. كان يحاول بجهد شديد أن يختار كلماته متفادياً إيلامى لكن كل جهوده ضاعت فى الهواء ، فمع كل كلمة نطق بها أحسست بسكين باردة تقطع قطعة من لحمى الحى ثم تلقى بها إلى الكلب الذى وقف على رصيف المقهى يرمقنا بدهشة كأنه يفهم ماذا يجرى بيننا وماذا يريد منى الخال الوقور .. كانت كلماته المُعادة تذكرنى بمأساة غادة الكاميليا وبكلمات الأب الطيب «دوفال» لعشيقة ابنه عن ضرورة التضحية من أجل سعادة الحبيب .. ثم كلمات أخرى قارسة من نوع ويا مجدى رحم الله امرأً عرف قدر نفسه ، أنت مثلاً ماذا تستطيع أن تقدم لها .. أنت خريج شاب ينتظر العمل ولن تعين قبل أعوام .. وعندما تعين كم سيكون مرتبك ؟ ماذا تصنع ؟ وأنت لاتملك أية مدخرات ولا مورد آخر لك . من أين ستجد شقة تقيم فيها ؟ كم تنفق على المواصلات وكم على السجائر .. وكم على الملابس ؟.. هل تعرف كم أصبح سعر كيلو اللحم أو كم أصبح ثمن الحذاء أو كم ألفاً من الجنيهات تحتاج إليها لكى تجد مسكناً .. صحيح أن كلا منكما يحب الآخر منذ أول سنة فى الدراسة العالية لكن من يستطيع الآن أن يأكل حباً أو يلبس حباً .. إن الدنيا صعبة جداً الآن يا بنى ..

صعبة إلى درجة لم تعد تسمح للحب وحده بأن يقيم عشاً للزوجية .. ثم كيف يهون عليك أن تحرمها من فرصة الحياة الكريمة مع زوج مستوف

لكل الشروط .. لا أريد أن أؤلمك سأقول لك شيئاً واحداً هل تعرف قيمة المهر والشبكة التى يريد الخطيب الجديد أن يقدمها لها ؟ يا حبيبى الحب لم يعد له وجود وأى فتاة الآن لا تريد حبيباً بقدر ما تريد عريساً جاهزاً .. فهل أنت جاهز ؟..

لقد قضت زحمة المواصلات على الحب فمهما كانت زوجتك فإنها سوف تلعنك كل يوم مرتين لأنك تضطرها لأن تنحشر فى زحام الأتوبيس كل يوم .. يا مجدى إن كنت تحبها بالفعل .. فابتعد عنها !

هكذا اختتم كلماته مقرراً ببساطة شديدة إننى لابد أن أبتعد عنها لكى أتركها للعريس الجاهز .

وهكذا أيضاً تحددت نهايتى .. لا تظن أننى قد اتخذت هذا «القرار» حزناً عليها وحدها فهناك أسباب أعمق كثيراً وراءه .. إن صدمة الحب وحدها لاتكفى لكى يتخذ الإنسان قراراً من هذا النوع فلا شك أن هناك ظروفاً صعبة كثيرة تحيط بحياتى وجاءت صدمة انهزام الحب فجسمتها ولم أعد أطيق الاستمرار فى المعاناة ..

يا أخى الوحيد سامحنى واعذرنى وتذكرنى .. شقيقك غير «الجاهز» .... مجدى» .

قرأ الرسالة من جديد ببطء .. ثم وضعها فى جيبه ، وغادر المقهى وركب الأتوبيس المتجه إلى منطقة الأهرامات .. فى نهاية الخط نزل وصعد المرتقى على قدميه ثم انحرف إلى طريق التمثال التاريخى

الصامت ، وبقدمين تعرفان مسالك المنطقة انحرف إلى الكهف المهجور الذى يجاور حفريات الأهرام .. وتوقف على بابه قليلاً يلتقط أنفاسه ومرت على مخيلته ذكرى اليوم الأول الذى «اكتشفا» فيه هذا الكهف بعد جولة طويلة فى المنطقة .. وذكرى لحظات سعيدة أمضياها وذكريات مشحونة عاشاها فيه ، حتى ذكرى يوم فاجأهما خفير الآثار واضطرابهما وحيرتهما .. ثم بحثهما العصبى عن كل ما معهما من نقود لكى يعطيها للخفير مقابل أن ينصرف بعيداً .. ثم اكتشفا بعد انتهاء الجولة وعودتهما إلى محطة الأتوبيس ، أنهما أعطياه فى غمرة الارتباك كل ما معهما فلم يبق لهما ثمن تذاكر الأتوبيس وعادا منهكين على الأقدام من الأهرام إلى الجيزة .

كان يوماً لا ينسى بالفعل .. لكن كل شىء يُنسى الآن تحت وطأة الحياة الصعبة وأزمة المساكن !

دخل إلى الكهف وراح يتحسس جداره الأيمن باحثاً عن القلب المحفور فيه وبداخله اسمها واسمه وتاريخ أول لقاء داخل الكهف .. مازال القلب محفوراً فى موضعه ولم يندثر كما اندثر الحب نفسه فى قلبها .. فتأمله طويلاً ثم انفجر فجأة فى بكاء حار، فى غمرة بكائه مد يده إلى جيبه وأخرج الشفرة ذات الغلاف الأحمر وغرسها فى رسغه الأيسر فتدفق الدم الساخن كالينبوع .

- ٣ -

أحس ضوء الشمس يلامس وجهه ففتح عينيه ببطء ثم أسرع

يغلقهما ليتفادى الضوء وتمنى لو استغرق فى النوم مرة أخرى ليعود إلى متابعة الحلم الغريب الذى رآه .. نفس الحلم الذى يزوره بين حين وآخر فيملأ لياليه خوفاً ورهبة ومتعة وشوقاً ثم فجأة يستيقظ قبل أن تكتمل القصة فينهض وفى نفسه غصة وليس فى ذاكرته من الحلم سوى رموز مبهمة لمكتب وزملاء وامرأة ونظرات حب ولهفة وأعاصير من الغيرة والامتهان والعذاب . تحسس عينيه بيديه ثم جلس فى فراشه ومد يده وهو مغمض العينين إلى يمينه ليوقظ زميله فى الفراش فامتدت يده فى الفراغ .. فتح عينيه واكتشف لأول مرة أن شقيقه قد غادر الفراش قبله فتعجب لاستيقاظه فى هذا الوقت المبكر .. وتوقع أن يراه جالساً يدخن فى الصالة فوجد الشقة صامتة خاوية ، قال لنفسه .. عجيب .. أين ذهب ؟ ثم نفخ فى ضيق واتجه للحمام وهو يقول لنفسه .. لا أعرف ماذا ألـمَّ به هذه الأيام .. أصبحت تصرفاته غريبة فى الفترة الأخيرة .. يمضى الليلة مؤرقاً ثم يخرج مبكراً ؟ ماذا يعنى هذا ؟ هل ذهب لزيارتها فى المستشفى بعد كل ما جرى ؟ .. إن كان قد فعل فهو مخطىء .. هذا ما قلته له مراراً وما يجب أن يقتنع به .. لابد أن يخجل من نفسه .. فرغم كلمات الخال القارصة لم يمتنع عن الذهاب كل يوم والجلوس صامتاً بجوار السرير .. و ..

ثم تنبه إلى أن ماكينة الحلاقة خالية من شفرتها وأن غلافها الأحمر أيضاً غير موجود فغادر الحمام حانقاً إلى غرفة النوم ليرتدى ملابسه دون أن يحلق ذقنه .

أمام صيوان الملابس وقف يخلع ملابسه صامتاً .. هذا القميص ذو الخط الأزرق هى التى اختارته .. سيرتديه .. لعله يثير فيها الذكريات القديمة التى تريد أن تتجاهلها الآن .. ببساطة شديدة قالت أريد أن أتفرغ لبيتى وزوجى وأسرتى ! هه .. أنت ؟ ونيران الجحيم التى أطلقتيها فى داخلى من يخمدها إذن بعد أن تتفرغى لبيتك؟ .. وهذا اللهيب الذى يكوينى ليل نهار من ينقذنى منه بعد أن تتفرغى للأسرة السعيدة ؟ .. وهل تنوين حقاً أن تتفرغى لهما أم هو رئيس الإدارة الجديد ؟ منذ جاء إلى إدارتنا وأنت تنتابك نوبة الجنون التى انتابتك من قبل ثلاث مرات .. وفى كل مرة تنقلين إلى الخبر بنفس البساطة وربما بنفس السادية .. ترى هل يختلف الجحيم كثيراً عن إدارة العلاقات العامة بمؤسسة التوجيه الفكرى التى أعمل بها منذ خمس سنوات ؟ أصدقائى يقولون لى إنك لا تحبيننى لكنك تحبين تذللى لك .. وتحبين نـظراتى الضارعة وهوانى معك .. واستعدادى العجيب لكى أغفر لك كل شىء .. كل شىء حتى خياناتك العديدة .. وحتى كلماتك القارصة .. لم تذهب تلال الكتب التى قرأتها عبثاً .. فعند الضرورة نستخرج من صفحاتها كلمات عويصة تخفى مهانتنا فى إطار فخم من التحليل النفسى والفرويدى .

لماذا أغضب إذن من خنوع شقيقى أمام فتاته .. وتجمده أمام فراشها صامتاً بالساعات بالرغم من الكلمات القارصة ، لكل إنسان عذابه الخاص فلماذا كتب علينا الانكسار وحدنا أمام من نحب؟ .. انتهى من ارتداء ملابسه .. وغادر مسكنه إلى العمل .

دخل غرفة المكتب الذى يجمعه بمعذبته .. وحيا زملاءه وأرهف السمع ليسمع صوتها فيمن ردّوا عليه التحية فلم يتبينه .. سيمضى يوم آخر من أيام العذاب .. يعمل ويكتب ويرد على أسئلة زملاء المكتب وهو يحس أنفاسها قريبة منه ويخفق قلبه لكل همسة أو ضحكة أو إشارة تصدر عنها .

فى فترات الجفاف السابقة كان يحترق صابراً من لحظة دخوله العمل إلى لحظة مغادرته .. منتظراً إشارة العفو كما يُمنِّى المحكوم بإعدامه نفسه بالأمل المستحيل فى نقض الحكم الصادر ضده قبل تنفيذ الإعدام فتمضى الأيام قاسية وبطيئة ثم تجود السماء فجأة بالراحة .. ويفاجأ بها توجه إليه الكلام مباشرة فيضطرب بالفرحة غير مبال برثاء الزملاء !.

طال تجهم السماء هذه المرة .. لكن متى فقد المحكوم بإعدامه ذاك الأمل الغامض .. حتى وهم يضعون حبل الخيَّة حول رقبته ؟

اشتاق لأن يختلس نظرة طويلة إلى وجهها فهمَّ بأن يفتعل كلاماً يوجهه لجارتها فى المكتب المجاور ليختلس النظر إليها .. لكن رنين التليفون قطع عليه تدبيره .. ورفع السماعة واستمع لمحدثه قليلاً ثم وضعها مضطرباً .. وهرول خارجاً من المكتب ونظرات الدهشة والاستفسار تلاحقه .

ـ ٤ ـ

اقترب الضابط الشاب من نقطة شرطة الهرم فى السابعة صباحاً ..

فانتفض الشرطى الواقف ببابها واعتدل قوامه ودخل طارق إلى مكتبه بالنقطة ودق الجرس طالباً فنجان القهوة .

جاء الشرطى العجوز بفنجان القهوة السادة وحيا رئيسه متودداً وهو يسأله عن سر حضوره مبكراً عن موعده بساعتين فأجابه متنهداً :

لم أنم معظم ساعات الليل .. وصحوت قبل الفجر .. تأمله الشرطى قليلاً ثم قال له بألفة من جمعتهم العشرة لعدة سنوات :

ـ وإلى متى العناد .. يا طارق بيه ؟

ـ وماذا أفعل يا عم حسين ؟

ـ يا ولدى كفاك الله شر الوحدة .. أنت شاب طيب وابن أصول وهى أميرة وبنت ناس .. والولد الصغير لا ذنب له فى عنادكما .. وأنت تتعذب من أجله ومن أجلها وكل يومين تأتى إلى النقطة بلا نوم .. فلماذا كل هذا الغلب؟ ..

وهز الضابط الشاب رأسه شاكراً فانصرف الآخر ورشف رشفة طويلة من فنجان القهوة .. وأشعل سيجارة وفكر فيما قاله له الشرطى الذى يقترب من الستين . كان يرتاح إليه ويعجب بخبرته بالحياة والناس .. وكثيراً ما استشاره فى بعض أموره الخاصة فأشار عليه بخبرة السنين .. نعم هو العناد الذى يقف بينه وبين راحة القلب المعذب . كان خلافاً ككل الخلافات العابرة لكنه أدخل إلى حياتهما الحافلة بالسعادة والهناء تقليداً جديداً لم تعرفه من قبل هو هجرها للبيت على

غير إرادته واعتصامها ببيت أهلها رافضة العودة إلا إذا وفر لها مسكناً مستقلاً بعيداً عن أمه التى لا عائل لها سواه ولا تقبل أن تعيش فى كنف زوج شقيقته وإلا إذا جاء وتعهد أمام والديها بتعهدات عديدة منها أن يحسن معاشرتها .. وألا يعترض على زيارتها لأسرتها حتى ولو أرادت ذلك كل يوم .. وألا يتدخل فى أسلوب تربيتها لطفلها ذى السنوات الخمس فلا يفسده عليها بحنانه الزائد .. إلخ ..

وقال لعمها حين جاءه بهذه المطالب : إذا فسد الحب .. لايصبح هناك مبرر عاقل لاستمرار الحياة . وإملاء الشروط وأخذ التعهدات فى حضور شهود وإخضاع إرادة طرف لطرف آخر إلى حد التسلط .. كل ذلك لا شأن له بالحب .. لهذا فلن آتى .. ولن أتعهد بشىء وإذا أرادت أن تتفاهم معى على أى شىء يتعلق بحياتنا فأنا على أتم استعداد لذلك ولكن بينى وبينها .. وبلغة الحب وليس بلغة القهر وفرض الشروط .. ثم كيف ترضى لى «هدى» بأن أتخلى عن أمى فى شيخوختها وماذا أفعل معها .. ومن يتحملها إذا لم أتحملها أنا .. وزوجتى التى أحببتها وعاهدتنى على أداء هذا الواجب تجاه أمى ؟

فغاب العم كأنما بلعته الأرض ولم يعد مرة أخرى . ومضت الأيام وهو ينتظر ويتعلق أمله بأن ينتصر الحب على الصغائر . فتتصل به .. أو توحى إليه عن طريق وسيط بأنها تتنازل مؤقتاً عن مطلب السكن المستقل الذى لا يقدر عليه مادياً وإنسانياً وأنها لن تعرضه لمهانة تقديم التعهدات فى محكمة الأسرة .. فيطير إليها ويعيدها مع طفله الحبيب إلى

العش الخالى فيطول انتظاره ولا تأتى من ناحيتها أية إشارة مبشرة .. يا الهى هل مات الحب الذى جمع بينهما منذ كان طالباً بكلية الشرطة وهى طالبة با لمعهد العالى للتربية البدنية ؟

وإذا كان حقاً قد فتر فى قلبها تحت وطأة مشاكل الحياة فما سر هذا «الخائن» الصغير الذى ينبض فى صدره بحبها ويوسوس له كل ليلة وهو فى فراشه الخالى بأن ينهض فى الصباح ويعلن استسلامه بين يديها .. إنه ليس «شادى» الصغير وحده الذى يفتقد غيابه بحرقة لكنها «هى» أيضاً من يفتقدها بشدة .. بلحظات صفائها الجميلة .. ولحظات غضبها العابرة !

ترى أيكون هذا اليوم هو نهاية الصمود والاصرار على أن تتنازل عن مطالبها المهينة .. فيسرع إلى بيت أبيها ويعدها بتحقيق ما تريد فى المستقبل القريب ؟

قرر أخيراً أن يدير رقم تليفون أبيها ليسمع صوتها ثم يغلق السماعة كما اعتاد أن يفعل منذ أيام فمد يده إلى التليفون وقبل أن يدير الرقم اندفع إلى غرفته لاهثاً بالانفعال شاب صغير لعله طالب فرفع عينيه إليه باستياء فإذا به يقول له فى كلمات مضطربة :

ـ شاهدته .. هناك عند حفريات الأهرام شاب صغير منتحر .. والدم يسيل منه فى كهف صغير فى طريق أبى الهول .. و ..

فتنبه إحساس الضابط الشاب وراح يستفسر منه ما رآه .. ثم نهض

بحماس واصطحب الشاب إلى سيارة جيب تقف أمام النقطة وقادها مندفعاً إلى المرتقى التاريخى والشاب لايكف عن الكلام وإعادة رواية ما حدث .. وقبل أن تقترب السيارة من الكهف تذكر الضابط الشاب شيئاً فسأله فجأة :

ـ ماذا كنت تفعل فى تلك المنطقة فى هذا الصباح الباكر ؟

ـ ٥ ـ

حول فراش بسيط فى المستشفى القريب وقف الضابط الشاب والطالب الغريب والشقيق المنزعج يرقبون مجدى وهو يهذى تحت تأثير البنج بأسماء عديدة من بينها اسم فتاته واسم شقيقه الوحيد .. وإسمىْ أبيه وأمه الراحلين .. ودموع شقيقه تسيل فى هدوء فقطع الصمت طبيب شاب دخل إلى الغرفة وانشغل قليلاً بقياس نبض المريض .. ثم قال لشقيقه بارتياح :

ـ معجزة بكل المقاييس .. أن يدخل هذا الشاب الكهف المهجور بعد أن قطع أخوك شريانه بدقائق .. ويهرول إلى النقطة فى السابعة والنصف صباحاً فيجد فيها الضابط الذى لايأتى قبل الثامنة أو التاسعة.. فيهرول معه بالسيارة الجيب لاحضاره إلى هنا .. ويتم إنقاذه قبل أن يستصفى كل دمائه .. لقد اختار أخوك مكاناً لا يطرقه أحد قبل الظهر لكن إرادة الله فوق كل شىء .. فلا تنسى أن تشكر الضابط

والطالب ليس فقط لنجدتها لشقيقك .. وإنما أيضاً لأنها قد تبرعا له بكمية من دمهما وهذه معجزة أخرى !

نظر الشقيق بعرفان مؤثر للشابين ولسانه يتعثر بكلمات. الشكر والوفاء.. وغادر الجميع الغرفة فوقفوا فى الممر القريب.. وأخرج الشقيق علبة سجائره وقدمها للضابط فالتقط سيجاره .. واعتذر الطالب الذى لايدخن .. وخلق التعاطف المشترك بينهم ألفة سريعة .. فتبادلوا الحديث وتبادلوا الأسماء وأرقام التليفون والوعود بالزيارة بعد استيفاء الاجراءات الرسمية ومن حين لآخر يقطع الضابط الحديث ويقول للطالب باسماً :

ـ ماذا كنت تفعل فى هذه المنطقة المهجورة فى الصباح الباكر !

فيعترف الطالب بالقصة الحقيقية .. ويروى فى خجل كيف «أمرها» وهو يهرول نازلاً المهبط التاريخى أن تذهب إلى معهدها ثم واصل عدوه إلى نقطة الشرطة .

فيعده الضابط الشاب صادقاً بأن يتجاهل ذلك فى محضره الرسمى عن واقعة الانتحار .

ثم يسأله باهتمام خفى : هل تحبها حباً صادقاً ؟

.. ويجيبه الشاب على تساؤله بأنه سوف يربط حياته بها إلى الأبد .. فيثنى الضابط على شهامته التى دفعته لعدم النكوص عن الإبلاغ عما رأى متغلباً على الخوف من أن يجره ذلك إلى متاعب عائلية هو فى غنى عنها .

ويؤيده الشقيق بحماس وعرفان .

وينظر الضابط الشاب إلى ساعته فيجدها تقترب من التاسعة ويستأذن الشابين فى الانصراف إلى النقطة على أن يعود بعد ساعتين لاستيفاء المحضر .. ويوصله الشقيق حتى باب المستشفى.. والضابط يسأله عن دوافع شقيقه للانتحار .. وهو يجيبه بصدق عن أسبابه ويشتعل الاهتمام الباطنى عند الضابط الشاب إلى قمته وهو يستقصيه التفاصيل ثم يقول له الشقيق وهو يهم بركوب سيارة الجيب :

ـ إنه الحب الذى قتله !

فيدير الضابط موتور السيارة وهو غارق فى أفكاره .. ثم يلتفت إليه قائلاً :

ـ وهو «الحب» أيضاً الذى أنقذه !

ثم يلوح له بيده وينطلق بالسيارة .. وهو يقول لنفسه كأنما يراودها على الاعتراف بالحقيقة التى تكابر فى الاعتراف بها .

نعم هو كذلك .. وإلا فلماذا ذهب هذا الطالب إلى الهرم فى هذا الوقت المبكر .. ولماذا جفانى النوم فذهبت إلى النقطة قبل موعدى هارباً من وحدتى وأفكارى ؟

ولكننا لا نتعلم أبداً ؟

ليس جديداً أن نقول : لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع نعم ليس جديداً ولا فريداً لأننا لا نعلم الغيب .. ولن نعلمه .. ومع ذلك يظل الإنسان دائماً يحلم بواقع أفضل من واقعه ويتحرك فى اتجاه «الحلم» مضحِّياً بواقعه ، آملاً فى مستقبل أسعد ، فلا يجد فى يده غالباً إلا حسرة الندم ! وهكذا الإنسان فى كل عصر وزمان .

فشاه إيران السابق محمد رضا بهلوى مثلاً كان متزوجاً من زوجة جميلة تتصدر صورها أغلفة المجلات العالمية كنموذج للجمال الشرقى الأصيل، وكان سعيداً بها ومعها ، لكن الامبراطورة الجميلة ثرياً أصفندياري لم تكن قادرة على الإنجاب وهو يتلهف على إنجاب ولد يرث عرشَهُ ويحمل اسمه من بعده . وللسياسة أحكام لا تخضع لأحكام القلب لهذا فقد طلب من زوجته أن تسمح له بالزواج من أخرى لإنجاب الوريث الذى سيحفظ العرش فى ذريته ، والزوجة الجميلة تأبى.. وتبكى ثم توافق فى النهاية لكنها تضع شروطاً عسيرة تجعل من زواجه أمراً مستحيلاً . هى ألا يكون للزوجة الجديدة أى دور فى حياة زوجها سوى إنجاب الطفل .. وألا يكون لها أى وضع فى البروتوكول فلا

تظهر مع زوجها فى مكان ولا فى احتفال ، وأن يطلقها بعد إنجاب الطفل مباشرة فتتعهده ثريا بالتربية ليصبح صالحاً للجلوس على العرش فى المستقبل ، والشاه السابق يحب زوجته وهى تحبه .. لكنه يحب عرشه أكثر وهذه الشروط لن تقبل بها فتاة من أسرة كريمة تليق بأن تكون أماً لشاه المستقبل ، إذن فلا مفر من التضحية بالحب على مذبح العرش ، وطلق الشاه زوجته وهو يبكى ، وأشاد العقلاء بحكمته التى ضحَّت باعتبارات الحب والسعادة الشخصية من أجل مصلحة العرش والوطن! وغادرت ثريا إيران إلى أوروبا .

وأصبحت حكايتها قصة أثيرة لدى الصحافة الغربية تكتب عنها كل يوم وتنشر صورها دائماً تحت عنوان «الجمال الحزين»!

وتزوج الشاه من فتاة جميلة أخرى من عائلة عريقة ، وحققت الامبراطورة الجديدة فرح ديبا لزوجها أكبر أحلامه فأنجبت له وريثاً للعرش وأبناء وبنات واطمأن قلبه نهائياً للمستقبل .. فالدولة فى ازدهار.. و«الوريث» السعيد ينمو ويكبر .. وكل الحسابات سليمة وفى الاتجاه الصحيح .. لكن الأرض زلزلت فجأة تحت الأقدام وهبَّت العاصفة فاقتلعت عرش الشاه من جذوره وغادر الشاه وأسرته إيران إلى المنفى ولم يعد هناك عرش يحتاج إلى وريث ولا إلى التضحية بزوجة محبة من أجل إنجابه .

وأسرع الصحفيون إلى ثريا يطلبون تعليقها على ما حدث فاكتفت

بالصمت المعبّر لكن من المؤكد أنها تأملت هذه المفارقة الساخرة طويلاً.. وتعجبت لها !

وفى قمة انتصار نابليون بونابرت وسيادته لأوروبا تلفت حوله وسأل نفسه : من سيرث عرش هذه الامبراطورية الشاسعة بعدى ؟ ولم يسمع جواباً ! فزوجته الجميلة الامبراطورة جوزيفين التى تدلهت فى حبه وغالت فى غيرتها عليه ، لا تنجب .. وهو يريد بإلحاح وريثاً لعرشه ويرفض نصيحة مستشاريه بأن يتبنى طفلاً ليخلفه على العرش ويرى أن الوقت قد أصبح مناسباً لتأسيس أسرة إمبراطورية تحمل اسمه ، وهكذا طلق زوجته جوزيفين ، وأجمع المؤرخون على وصف قراره هذا «بالقسوة» والغلظة ، وتزوج من الأميرة مارى لويز ابنة امبراطور النمسا بعد أن أنزل بجيوش بلادها وبكبرياء أسرتها التى أرغمها على التضحية بالأميرة الجميلة ، ضربات قاصمة . وتزوج مارى لويز وأنجبت لزوجها طفلاً سعد به نابليون ومنحه لقب «ملك روما» لكنه لم يهنأ بميلاده ولا بزواجه السعيد طويلاً فلقد لاحظ العرافون أن طلاقه لجوزيفين وزواجه من مارى لويز كان بداية لتخلى الحظ السعيد عنه خاصة وأنه قد توافق مع قراره الآخر الذى هزّ العالم المسيحى فى ذلك الحين بخلع البابا بيوس التاسع ونفيه من روما ، فأمضى نابليون معظم أيامه بعد الزواج السعيد فى معارك خاسرة وتوقفت الانتصارات وبدأت الهزائم حتى اضطر للاستسلام لجيوش ملوك أوروبا والتنازل عن العرش والخروج منفياً إلى جزيرة ألبا . أما الامبراطورة الجميلة مارى لويز فقد رفضت أن تصحبه

إلى منفاه وأما «وريث العرش» فلقد عهدت به أمه إلى البلاط النمساوى لتربيته فلم يطل به العمر ومات فى سن مبكرة بمرض غامض ، ولم تزد الفترة ما بين ميلاد الوريث الذى ضحى أبوه بزوجته الأولى لكى ينجبه.. وما بين هزيمة نابليون وانكساره سوى عامين وبضعة أسابيع !

والملك فاروق الأول ملك مصر السابق طلّق زوجته الملكة السابقة فريدة لأسباب كان أهمها أنها لم تنجب له سوى البنات ، وهو يتلهف على إنجاب ولد ليحفظ له العرش فى ذريته . وبعد طلاقه لها راح رجال حاشيته يبحثون له عن فتاة بارعة الجمال تصلح لأن تكون ملكة وأمًّا لوريث العرش ، وكان من بين المكلّفين بهذه المهمة جواهرجى الأسرة المالكة أحمد نجيب ، وذات مساء دخلت إلى محله فتاة جميلة فى السادسة عشرة من عمرها لها وجه باسم برىء لتشترى مع خطيبها الموظف الشاب بإحدى المصالح الحكومية شبكتها الذهبية ورآها أحمد نجيب فصعق بجمالها و«استكثر» أن يفوز بها هذا الموظف الصغير .

فتعمد أن يعرقل عملية شرائها للشبكة وطلب منها أن تعود إليه بعد يومين ليريها خاتماً جميلاً رخيص الثمن سيحضره لها خصيصاً ، وأسرع يتصل بالملك فاروق ويطلب منه الحضور إلى محله فى الموعد المحدد ليرى هذه الفتاة . وعادت الفتاة مع خطيبها فى الموعد المحدد ورآها فاروق فى مكتب الجواهرجى من خلف ستار وقرر خطبتها .. وسعى رجاله إلى أسرتها بالنبأ السعيد .. فلم تتردد الأسرة ولا الفتاة نفسها فى التضحية بخطيبها الموظف الصغير الذى فوجىء بالتنكر له بلا سبب مفهوم .

وكان تصرف الفتاة بأحكام العقل المجردة «حكيماً» للغاية ! فأين هذا الموظف الصغير الذى لا تَعدها الحياةُ معه إلا بحياة ربة أسرة عادية تشرف على المطبخ وتكوى ملابس زوجها ، من حياة القصور التى يعدها به الزواج من فاروق ، وتزوجت الفتاة الموعودة بالحظ السعيد من الملك وحققت له أكبر أحلامه فأنجبت له ولداً ، واختال فاروق طرباً بمولد من سيحفظ له العرش فى ذريته وأقام الأفراح ابتهاجاً به فلم تمض ستة شهور حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو وفقد فاروق عرشه إلى الأبد وغادر مصر إلى إيطاليا مصطحباً زوجته وطفله الوليد ، ولم تطل العشرة بينه وبين ناريمان بعدها أكثر من شهور تضاعفت خلالها معاناتها معه ، وقيل إنها لم تسعد بالحياة منذ تزوجته أكثر من أيام معدودة ، وحصلت على الطلاق وعادت لمصر .. وبعد فترة تزوجت من طبيب شاب فلم تستقر بها سفينة الحياة الزوجية معه أكثر من عامين أو ثلاثة ثم طلقت منه ، وعانت لفترة طويلة من الاكتئاب النفسى حتى أوشكت على الانتحار ذات مرة ، ثم تزوجت بعد سنوات من طبيب آخر واستقرت سفينة زواجها معه ، وعاشت ومازالت تعيش حياة ربة بيت من الطبقة المتوسطة فى شقة بحى مصر الجديدة .

أما الموظف الصغير الذى امتحنته الحياة بهذه المحنة فقد عرف بعد قليل سر فسخ خطبته حين رأى صورة خطيبته السابقة فى الصحف وقرأ أنباء زواجها من الملك . وتجاوز آلامه بعد قليل وتقبل أقداره . ثم تزوج من فتاة جميلة فاضلة من أسرة كريمة سعد بها وسعدت به ومضت بها

رحلة الحياة سعيدة هادئة .. ولم يمض وقت طويل حتى حقق نجاحه ، واستقال من الوظيفة الصغيرة وحصل على الدكتوراه فى القانون الدولى وعمل محامياً دولياً للشركات العالمية ، وصعد نجمه حتى شغل منصب الوزير وحقق ثراءً عريضاً هيأ له ولزوجته حياة ناعمة كحياة القصور ، وأتيح لى أن اقترب ذات مرة من حياته الشخصية وهو فى منصب الوزير فلمست فيه وفى زوجته الفاضلة دمائه الخلق والطبع الوديع الذى يرشح أهله لحسن العشرة والحياة الهادئة .

وآهٍ حقاً لو كنتم تعلمون الغيب !

فلقد تزوج الشاعر الإنجليزى العظيم ميلتون صاحب «الفردوس المفقود» من ابنة قاض إنجليزى .. ولم تكن زوجته فى البداية سعيدة بزواجها منه لأن عمره ضعف عمرها ومزاجه كمزاج بعض الفنانين عنيف بعض الشيء ، وقد ظلت تسأل نفسها طويلاً : ماذا سأفعل حين أنجب أولاداً منه ثم يموت زوجى وهم صغار وأواجه الحياة كأرملة وحيدة !! وأثَّرت هواجسها من المستقبل على حياتها معه فلم تنجب منه، وهجرته فى عام زواجهما الأول ، وعادت لبيت أسرتها وبقيت به عامين ، ثم ثَابَتْ إلى رشدها وعادت إليه وأنجبت له ثلاث بنات . ولم تتحقق مخاوفها من أن تواجه الحياة كأرملة وحيدة فلقد ماتت «هى» وتركت بناتها فى رعاية الشاعر الذى كُفَّ بصره وهو فى الرابعة والأربعين فتقبل أقداره بشجاعة وقال فى إحدى قصائده :

« أنا لا أعترض على مشيئة السماء »

« ولم أضعف ولم يمت الأمل فى قلبى»

وبعد قليل تزوج ميلتون من زوجة أخرى فماتت أيضاً بعد سنة من زواجها منه فتزوج بعدها من زوجة ثالثة كانت «هى» التى طال بها العمر وعاشت بعده !

أما الأديب الإنجليزى العظيم شارلز ديكنز فلقد أحب الفتاة الجميلة ماريا بندل ابنة مدير أحد المصارف ، وهو أديب يكافح لبناء حياته بقلمه وألحَّ عليها فى أن تتزوجه .. لكن الفتاة «العاقلة» لم تضعف أمام دموعه ولا أمام العاطفة التى تؤثر فى غيرها من «الحمقاوات» ورأت أنه لن يستطيع أن يوفر لها إمكانيات الحياة المريحة .. وقالت «إن ديكنز شاب لطيف .. لكنه أديب فهل يستطيع أن يعولنى بقلمه ؟ » وحطمت قلب الأديب الشاب وتزوجت من ثرى إنجليزى يملك الضياع والبيوت ويستطيع أن يهيىء لها الحياة اللائقة بها .. وأشادت الأسرة بقرارها وبرجاحه عقلها فلم تمض أعوام قليلة حتى أفلس زوجها وبيعت الضياع والبيوت وعاشت حتى آخر أيامها فى مستوى الكفاف تحاصرها الديون من كل جانب .

أما ديكنز فقد تغلب على آلامه وواصل كتابة روائعه القصصية وكسب بقلمه ما لم يحلم به ذات يوم، وأصبح من أغنى الرجال فى انجلترا فى عصره «وعبدته نساء انجلترا» كما قال عنه من أرخوا لحياته .

ولو علمتم الغيْب حقاً لاخترتم الواقع .

أو كما يقول الإمام الحسن بن على : من اعتمد على حسن اختيار الله له لم يرض بغير ما اختاره الله .

لكننا لا نرضى بكل أسف .. ولا نتقبل أقدارنا بشجاعة .. وإنما نتطلع دائماً لما نرى أننا جديرون به .. ولا نكفُّ أبداً عن الحلم بأن تجتمع لنا كل أسباب السعادة فى بوتقة واحدة ، كأننا بشر فوق العادة أو كأننا «درّة البشر» التى ينبغى أن يكتمل لها ما لم يكتمل لأحد من قبلها ولا يجوز أن يجرى عليها ما يجرى على غيرها من الناس . أو كأننا نعلم الغيب ونضمن تماماً أننا إذا تخلينا عما بين أيدينا وضحَّينا به على مذبح أحلامنا فسوف نجنى السعادة التى نبحث عنها ونحصل على الأنفع والأرفع دائماً .

وأبداً لا نتعلم من دروس الحياة ودروس التاريخ التى تطالبنا بالعكس، أو قليلاً ما نتعلم وقليلاً ما نتقبل أقدارنا ونقول مع «ميلتون» :

« أنا لا أعترض على مشيئة السماء » !



وقت للسعادة ... وقت للبكاء

** بكى أحد الحكماء على قبر ولده فقيل له : كيف تبكى وأنت تعرف أن الحزن لا يفيد؟

فنظر إلى سائله طويلاً ثم قال متحسراً : إن هذا هو ما يبكينى !

وهكذا نحن أيضاً .. نبكى فى أحيان كثيرة ونحن نعرف أن الحزن لايفيد .. لكننا مع ذلك نجد راحتنا فى الدموع ونلتمس فيها السلوى والعزاء .. وحسناً نفعل كلما اشتدت الحاجة لذلك ، فالإنسان القادر على البكاء حين تثقل عليه همومه أو حتى أفراحه إنسان طبيعى يتخفف بدموعه من توتره النفسى ويغسل أشجانه ويبرد بها لهيب أحزانه كما تخفف مياه الرداياتير من حرارة موتور السيارة وتحميه من الانصهار أو الانفجار ، ولقد أثبت العلماء أن للدموع أفضالاً كثيرة على الإنسان ولولاها لما احتمل كثيرون حياتهم والمواقف المؤلمة فيها .. فالإنسان فى تعاسته يفرز جسمه مواد كيماوية ضارة تساعده الدموع على التخلص منها وتزيد من ضربات القلب فتعتبر تمريناً مفيداً للحجاب الحاجز وعضلات الصدر والكتفين .. وعند الانتهاء من نوبة البكاء تعود

ضربات القلب إلى سرعتها الطبيعية وتسترخى العضلات ويتسلل إلى الإنسان شعور غريب بالراحة يساعده على أن ينظر للهموم التى أبكته نظرة أكثر وضوحاً وموضوعية ..

والحق أن تعاملى مع هموم البشر فى بريد الجمعة بالأهرام وفى لقاءاتى مع أصحاب المشاكل الذين يروون لى همومهم قد أكسبنى خبرة ثمينة فى تقدير أهمية الدموع فى تخفيف الآلام .

وقد اعتدت أن أضع بينى وبين من يشبنى همه علبة المناديل الورق فى وضع استعداد لاستقبال دموعه حين تغلبه انفعالاته ويعجز عن كبح جماحها ..

واعتدت أن أصغى باحترام لآلام محدثتى أو محدثى حتى إذا تجمعت الدموع فى العيون ووقفت ببابها تستأذن فى الهطول شجعت محدثى على البكاء بلا تردد وقربت منه علبة المناديل .. وجلست صامتاً فى خشوع إلى أن يفرغ ما فيه منها ويجففها ثم يعود لمواصلة حديثه وهو أكثر هدوءًا وقدرة على التعبير عن نفسه والتفكير معى فى مشكلته ..

ومن كثرة تجاربى معها .. وجدت نفسى ذات يوم أكتب هذه العبارة: إن الألم الجاف أشد قسوة من الألم المبلل بالدموع فبللوا آلامكم لتخف قسوتها عليكم ! كما وجدت نفسى دائماً أحترم دموع المرأة .. وينفطر قلبى لدموع الرجل إذا كانت صادقة ! لأن البكاء لا يخالف طبيعة المرأة فى حين لايبكى الرجل بدموع صادقة إلا إذا كان همه عظيماً وألمه فوق الاحتمال ..

والمرأة تبكى فى حالات عديدة ومختلفة فقد تبكى من شدة التعاسة والإحساس بالقهر وخيبة الأمل فى الحب ومن أشياء كثيرة فى حياتها .. وقد تبكى من شدة السعادة أو شدة الحب أو شدة الخوف على الحب من الضياع .. وقد تبكى غيظاً وحنقاً .. وقد تبكى ضيقاً بألم جسدى أو نفسى طارىء .. أو خجلاً وندماً على شىء فعلته وندمت عليه ..

أما الرجل العادى فإنه لا يبكى غالباً إلا فى شدائد الحياة ، أو تعبيراً عن فرح لم يتمالك نفسه معه ..

وفى دراسة أمريكية طريفة تبين من خلال متابعة عينة كبيرة من النساء والرجال التزم أفرادها بأن يسجلوا بأمانة مرات بكائهم وأوقاتها ، إن المرأة تبكى خمس مرات فى الشهر فى المتوسط لأسباب مختلفة فى حين لا يبكى الرجل سوى مرة واحدة فى المتوسط كل شهر ، أما الأغرب من ذلك فهو أن هناك وقتاً مفضلاً للبكاء عند المرأة هو الوقت بين السابعة مساءً والعاشرة مساء.. ولم يفسر العلماء سر هذا التوقيت .. لكنه من الجائز أن يكون من أسبابه أن هبوط المساء وحلول الظلام يثير الشجن ويهيىء جواً مناسباً للبكاء .. كما أنه من الجائز أن يكون السبب هو أن هذا الموعد هو موعد عودة الزوج فى أمريكا من عمله وبدء المناقشات العائلية والمشاكل ..

ولاشك أن سرعة استجابة المرأة للبكاء من أسباب طول عمرها بالقياس للرجل .. لأن كبت الدموع يضاعف من التوتر النفسى ويورث صاحبه الصداع المزمن وارتفاع ضغط الدم وربما قرحة المعدة .. وفى

النهاية فإن أمراض القلب تنتمى كلها لجدٍّ واحد بعيد هو القلق النفسى .. فهل كان شاعر النيل حافظ إبراهيم يعرف هذه الحقيقة العلمية الحديثة نسبياً حين قال :

يا من خلقت الدمع لطفاً منك بالباكى الحزين
بارك لعبدك فى الدموع فإنها نعم المعين

أم أنها حكمة الشاعر الفطرية .. وتجربة السنين التى ألهمت من قبله ابن الرومى فقال:

لم يُخلق الدمع لامرىء عبثا
الله أدرى بلوعة الحزن ..

والبكاء عند اشتداد الألم النفسى ليس علامة ضعف عند العقلاء ومنهم أديب كبير كالدكتور زكى مبارك فقد كتب يقول : لو كان البكاء مما يشين الإنسان لما كان الأنبياء بكاءون ولخلت التوراة والإنجيل والقرآن من مواضع الحزن والبكاء ، ولما بكى الرسول عليه الصلاة والسلام يوم مات ولده ابراهيم ، ولما قالت عنه كتب السيرة إنه كان دائم الفكر متواصل الأحزان ..

ومن مواضع الحزن فى القرآن الكريم التى تمس قلبى دائماً وأرددها حين يضيق صدرى ببعض الهموم ما جاء على لسان سيدنا يعقوب حزناً على ولده يوسف :

«إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله » .

والبث فى اللغة هو أشد الحزن الذى يضيق به صاحبه فيود أن يبثه أحداً يشكو له منه ..

ولقد قرأ هذه الآية الكريمة عمر بن الخطاب وهو يؤم الناس فى صلاة الفجر بعد أن ولى أمرهم فبكى حتى ابتلت لحيته الشيباء من شدة همه بأمر الناس ، لكن هموم الأنبياء والعظماء شأن آخر .. أما همومنا نحن فصغيرة وإن كانت أيضاً تستحق الاحترام .. والشعراء والفنانون والموهوبون فى التعبير عن أنفسهم أسعد حالاً من غيرهم لأنهم يستطيعون البكاء بسهولة فيما يبدعون وفى حياتهم الشخصية على السواء..

فنزار قبانى بكى علناً زوجته الراحلة بلقيس فى قصيدة رائعة تنزف دماً ولوعة .. وعزيز أباظة بكى زوجته الأولى فى ديوان كبير اسمه «أنات حائرة» وبكى غيرهما من الشعراء والموسيقيون العظام همومهم وأوجاعهم وآمالهم المحبطة فى السعادة وراحة القلب فيما أبدعوا من أنغام الشعر والموسيقى ..

وقال الشاعر الانجليزى شيللر : علمتنا الأحزان نظم القصيد فأهدينا الناس فى أنغام الشعر ما تلقيناه من ضربات الألم والشقاء ..

لكن ماذا تملك أنت وأنا من وسيلة أخرى لتفريج الهموم وتخفيف ضغوطها علينا سوى الدموع الحقيقية بلا شعر ولا أنغام ؟

ألسنا نضحك من قلوبنا حين نكون سعداء ؟ لماذا إذن لا نبكى حتى

نشتفى وتهدأ نفوسنا حين نكون تعساء وفى قمة الألم ؟

وإذا كان الأمر كذلك فلا تُعِب على المرأة كثرة دموعها فهى إحدى وسائلها الدفاعية عن نفسها ضد الاكتئاب والمرض والصداع والخوف .. ولا تخجل من دموعك حين تضطرك الحاجة الملحة إليها ، ولاتقل مع الشاعر أحمد زكى أبو شادى : «لكن البكاء للحر قيد»، فالجميع صدقنى «يراق لهم دمع» .. وأولهم قائل هذا البيت نفسه لكن الفارق الوحيد هو أن البعض يتخفى بدموعه وينكرها والآخرون الأسوياء لايخجلون منها .. ولاينكرونها فاستخفِ بها عن الناس إذا شئت .. لكن لاتنكرها لأنك إن فعلت أنكرت إنك إنسان .. وادعيت لنفسك قوة لم يدعها لأنفسهم الأنبياء .. والعظماء .. وشكراً ! ..



أكتبُ اسمك .. يا حبيبي !

هناك أشخاص قد نلتقى بهم بالصدفة .. فتتهيأ ظروف طارئة تقربهم منا وتقربنا منهم، ونكاد خلالها نصبح أصدقاء ثم تتغير الظروف التى جمعتنا بهم .. ويمضى كل منا فى طريق فلا نلتقى أبداً وقد لا يسمع كل منا عن « صديقه » مرة أخرى !

ورغم ذلك فلقد كانت « صداقتنا » لهم خلال تلك الظروف العابرة شبه حقيقية ..

وكان تعاطفنا معهم وتعاطفهم معنا صادقاً .. لكنها الظروف التى حكمت عليها بأن تكون صداقة كتلك التى تجمع بين مسافريْنِ يلتقيان فى صالة الترانزيت بالمطار فيتبادلان البطاقات ومشاهدة صور فتاة القلب أو صور الزوجة والأولاد والحديث عنهم .. ثم يؤذن الميكرفون بقيام الطائرة فيودع كل منهما صاحبه .. ويركب طائرة تنقله إلى الطرف الآخر من الدنيا .

ومن هذا النوع من الصداقة كانت صداقتى بذلك الشاب الأيِسلندى « ألان » وفتاته « آنى » اللذين التقيت بهما بالصدفة فى

إحدى دول أوربا الشرقية منذ حوالى خمسة عشر عاما ولم تطل صداقتى لهما سوى بضعة أيام ومع ذلك فقد جرت خلالها أحداث درامية لَوْ شاهدتها فى فيلم سينمائى لاتهمت مؤلفه با لمبالغة !

فلقد كان باقيا على انتهاء زيارتي لتلك الدولة ثلاثة أيام .. وانتهى البرنامج الرسمى للقاءات تقريبا ، ولم تبق إلا مقابلة أو اثنتين ، .. ولم يكن لدى ما يشغلنى ذلك المساء ، فقد رتبت نفسى لمشاهدة الباليه ، لكن المرافق الذى خصصته لى الجهة الداعية اعتذر عن تلبية الرغبة تلك الليلة ؛ لعدم وجود تذاكر وطلب تأجيلها لليلة التالية ، وسألنى عما سأفعل فى ليلتي فطلبت منه أن يدعنى لنفسى لأتجول فى الشوارع المحيطة بالفندق أو أدخل أى محل عام لقضاء الليلة فيه، وتهلل لذلك ليتفرغ هو لأسرته وشئونه الخاصة وتمنى لى قضاء سهرة طيبة وأسرع بالانصراف .. وجلست قليلا فى كافيتريا الفندق فأحسست با لملل ، وغادرتها ، وتجولت فى الشوارع حتى رأيت باراً كافتريا صغيرة فدخلتها .. وجلست إلى المائدة الوحيدة الخالية فيها ، وطلبت فنجانا من القهوة ورحت أتأمل وجوه الرواد وأستمع إلى أحاديثهم بلغة بلادهم المحلية التى لا أعرفها ..

ثم سمعت أطراف حديث باللغة الانجليزية من المائدة المجاورة لى بين شاب سكسونى اللحية وفتاة تبدو من ملامحها أنها من أهل البلاد.. واستغرقني حديثهما، وهو الحديث الوحيد الذي أفهمه فى ذلك المكان ولعلهما لاحظا ذلك فابتسما لى .. وابتسمت لهما وحييتهما .. والتفت إلىّ

الشاب يسألنى عن كبريت .. فقدمت له الولاعة مرحباً .. وبدأ حديث الغرباء بيننا .. من أى بلد أنت .. ؟ ماذا تعمل .. ؟ هل أعجبتك هذه البلاد إلخ .. وتحمست للحديث معهما لعله يبدد ما أحس به من ملل ووحدة ودعيانى للانضمام إليهما إذا لم يكن لدى مانع . ولم أمانع بالطبع وانتقلت إلى مائدتهما وأسرعت أشير إلى الجارسون ليحضر لهما كأسين من الشراب الذى يحتسيانه .. وتأكدت من صدق ظنونى فى أن الفتاة من أهل تلك البلاد حين قالت لى إنها طالبة جامعية ودرست الانجليزية فى كليتها ثم توثقت « صداقتنا » الطارئة فعرفت منهما أن الشاب الذى يجالسها من ايسلندا وهى دولة أوربية غربية تقع قريبا من المنطقة المتجمدة الشمالية وأنهما تحابا منذ عامين ، وبدأت علاقتهما العاطفية بطريق الصدفة حين جاء « ألان » إلى بلادها فى رحلة سياحية، وتعرف عليها فى هذا المكان نفسه ، .. ثم صاحبته فى جولاته طوال فترة إقامته ، وأحس كل منهما بعد عشرين يوما من اللقاء بدبيب خفى يتسلل إلى قلب كل منهما ، فمد « ألان » وهو موسيقى ويعمل عازفا لآلة الأبوا فى أوركسترا الإذاعة الإيسلندية، ومد أجازته أسبوعين آخرين ثم غادرها إلى بلاده وتواصلت الرسائل بينهما ، وفى الرسالة العاشرة اعترف كل منهما للآخر بأنه يحبه ويتمنى الارتباط به .. لكن دون ذلك أهوال وأهوال ! .. فالفتاة من دولة شيوعية والسفر للخارج ممنوع أو مقيد والزواج من أجنبى والسفر معه للخارج حلم بعيد المنال ، ويتطلب موافقات عدة جهات حزبية ورسمية وهو تصرف مكروه ويلقى على أسرة

الفتاة بظلال من الشك والريبة فى « رجعيتها » وميولها الإمبريالية الرأسمالية ! وإذا كان أبوها موظفا موعودا بالترقى والنفوذ فإنه يُحسب نقطة سوداء فى سجله تمنعه من أن يلى منصبا كبيرا فى الحزب أو الحكومة.. وإذا غامرت الفتاة ونجحت فى الهرب من بلادها تحت أى ستار وتزوجت من فتاها ورفضت العودة تعرضت أسرتها لمضايقات كثيرة.

ورغم إدراكها لكل ذلك فقد انساقت وراء الحلم المستحيل واستسلمت لعواطفها . وجاء « ألان » بعد ٦ شهور وأمضى معها شهرا آخر وتكررت الزيارة كل خمسة أو ستة شهور أو كلما تجمع لديه مبلغ كاف لشراء تذكرة السفر ونفقات الإقامة .. ، والأيام تمضى فتزيد كل منهما اقتناعا بأنه لا يصلح إلا للآخر .

واستهوتنى القصة الرومانسية التى يغالب فيها طرفاها ظروفا أقوى منهما وأقدارا تحكم عليهما بعدم اللقاء .. تماما كما فى الأساطير الاغريقية وعرضت عليهما قضاء السهرة فى ملهى ليلى قريب يقدم بين ما يقدم من فقرات غناءً تركيا حزينا كمعظم ملاهى تلك العاصمة التى خضعت للنفوذ التركى جوالى ثلاثة قرون .

وتحمسَّ الشابان .. وبدأنا نتهيأ للانصراف بعد قليل فاذا بجارسون الكافتريا يأتى ويتحدث للفتاة بلغتهما فتضطرب .. ثم تنهض وتتجه معه إلى البار حيث يقف رجلان جامدا الملامح يرتدى كل منهما معطفا رماديا فاتحا . وراقبناها وهى تتحدث إليهما بقلق ثم عادت مرتبكة تفتش

فى حقيبة يدها التى تركتها على المائدة عن شيء ؟ ، وسألها « ألان »
مضطربا عما حدث ؟ فأجابته بوجوم : حدث شيء سيِّيء جدا ..
وأخذت ما كانت تبحث عنه وتوجهت للرجلين .. وعادت بعد قليل
والدموع تنساب من عينيها بغزارة فارتدت معطفها وقالت لنا باكية : إن
الرجلين من رجال الأمن وقد شاهداها فى هذا المكان بعد العاشرة مساءً
تجالسُ أجنبيين فتصوروا أنها فتاة سيئة تعرض نفسها على السياح .. لكنها
أثبتت لهما أنها طالبة جامعية تقيم فى المدينة الجامعية ، فطلبا منها ترك
هذين الأجنبيين والعودة للمدينة ، وسوف يصاحبانها إلى محطة
الاتوبيس؛ ليتأكدا من عودتها وكان «ألان » يرتجف من الخوف والارتباك
والضيق لما تعرضت له فتاته، فطالبته « آنى » بالهدوء ووعدته بالاتصال
به صباحا فى فندقه ثم التفتت إلى ورجتنى ألا أتركه وحده لأنه يفزع فزعا
شديد فى مثل هذه المواقف .. إلى أن نلتقى جميعا مساء الغد، ووعدتها
بذلك وانصرفت حزينة وغادرت المكان وغادره وراءها رجلا الأمن
وسارت على الرصيف ، وهما يتابعانها ، ونحن نتابع الموكب الكئيب عن
بعد ، إلى أن جاء الاتوبيس وحملها إلى المدينة الجامعية .. واطمأن
الرجلان إلى أن الحركة الاشتراكية التقدمية قد أصبحت فى أمان من
محاولات التسلل الإمبريالى التخريبي .. وانصرفا راضيين عن نضالهما
الثورى وهما يرمقاننا شذرا !

وكانت أسنان ألان تصطك من الخوف والانفعال ، فاقترحت عليه أن
يمضى السهرة فى نفس المحل الذى اقترحته عليهما .. ووافق مستسلما ،

وسرنا إليه وهو يسألنى من حين لآخر لماذا يفرقون بين قلبين جمعهما الحب!

فأجبته بما يعرفه جيدا من أسباب

ثم يسألنى : هل ترى أى أمل فى تغير الأحوال ؟

فلا أجد ما أجيبه به سوى ما أومن به دائما من أن الفلْك دوّار وأنه لا شيء يثبت على حال واحدة إلى النهاية .. وأن كل شيء قابل للتغير .. إلا قانون التغير نفسه كما كان يقول : الفيلسوف الإغريقى هو قليط .. فإذا كانت الحياة فى تغير مستمر والشىء الوحيد المؤكد فيها هو اللحظة التى نعيشها ، فلماذا نفسدها بحمل هموم مستقبل خاضع بالضرورة لقانون التغير ؟

ولم تنجح محاولاتى فى إخراجه من ضيقه .. وزاده الغناءُ التركىُّ الحزين فى الملهى الليلى اكتئاباً ووجدا وغادرناه قبل انتهاء البرنامج ، وودعنى أمام فندقى على موعد للقاء مساء الغد فى نفس الكافتيريا ، التى شهدت حدث الليلة المزعج..، ودخلت إلى فراشى فلم يطاوعنى النوم قبل ساعتين على الأقل .. وما أن استسلمت له حتى فزعت على صوت التليفون يرن بإصرار ونظرتُ فى الساعة فوجدتها السابعة والنصف صباحا .. ورفعت السماعة متضايقا فإذا بصوت « آنى » تحدثنى من بهو الاستقبال بالفندق ، وترجونى النزول فورا ، .. وارتديت ملابسى على عجل ونزلت فوجدتها تسألنى باضطراب عما فعلنا أنا

وصديقها « ألان » بعد أن غادرتنا فقد اتصلت به فى السابعة صباحا فى فندقه كعادتها كل يوم فأبلغها موظف الاستقبال أنه غير موجود فى حجرته ، وأبلغتها أنه تركنى فى الثانية صباحا أمام باب فندقى ومضى إلى فندقه ، فسألتنى هل أسرف فى الشراب فأجبتها : إنى لا أشرب الخمر وأنه لم يجد منى مشاركة له فى الشراب فلم يحتس سوى كأس واحدة من الويسكى أمامى .. وجنحت ظنونى إلى احتمال تعرضه لمضايقة رجال الأمن وهو أمر ليس مستبعدا فى مثل هذه الظروف ، فاصطحبتها إلى فندقه ، وحاولت أن أعرف من موظف الاستقبال ما جرى له .. فلم يُفدنا بشىء سوى انه تسلم عمله فى السابعة صباحا وأن زميله قد أبلغه أن أحد النزلاء قد تعرّض لأزمة صحية واستدعى له سيارة الإسعاف لكنه لا يعرف إلى أين نقلته .. ؟ ورويتُ له باختصار قصة « ألان » وفتاته ، ورجوته أن يحاول معرفة أين نقلت السيارة هذا النزيل ؛ لأنه غالبا فتاها ، فقبل بعد إلحاح أن يتصل بزميله تليفونيا فى بيته وكتب لنا اسم المستشفى فى ورقه صغيرة وأمسكت بالورقة فى يد واصطحبت « آنى» باليد الأخرى وهرولنا إلى أول سيارة أجرة وسلمت لسائقها العنوان . وفى المستشفى قادونا إلى عنبر الحروق ودخلنا إلى غرفة تضم ستة أسرة رأينا « ألان » جالسا فى أحدها وذراعه اليسرى ملفوفة بضمادة كبيرة .. وهرولت إليه آنى باكية تحضنه وتقبله وسط دهشة المرضى والممرضات .. وبعد أن هدأ روعها قليلا إلتفت ألان إلىّ وقد ازداد وجهه اصفرارا ونحولاً وشكرنى على زيارتى له فسألته آنى عن ضمادة ذراعه فلم يجب بكلمة .. وكررت

عليه أنا السؤال .. فابتسم فى استحياء ولم يجب . وتركتنا آنى إلى الممرضة القريبة ورطنت معها ثم عادت إلينا وهى تنظر اليه نظره غريبة يمتزج فيها الحب باللوم ودموعها تنهمر بغزارة ثم وضعت يديها حول عنقه كأنها تخنقه وقالت لى : أتعرف ماذا فعل هذا الطفل الصغير بنفسه بعد أن تركته .. ؟ لقد دخل غرفته وأخرج فيما يبدو زجاجة الشراب وراح يعُب منها حتى فقد سيطرته على نفسه ثم تملكه حبُّه لى فقرر أن يكتب اسمى على ذراعه الأيسر .. بسيجارته المشتعلة !

وصرخت من الذهول : أهذا صحيح ! ؟

فأحنى الشاب الأيِسلندى رأسه صامتا !

واكملت « آنى » الحكاية العجيبة : فكتب بالسيجارة الحرف الأول اللاتينى A بغير أن يصرخ ثم كتب حرف N وهو وهو يصرخ مع كل لسعة سيجارة صرخات مدوية وأغمى عليه وهو يحاول كتابة الـI الأخير وكان النزلاء قد أبلغوا موظف الاستقبال بصراخه ، فجاء وفتح الغرفة ووجده مغمى عليه ، والسيجارة مشتعلة بجواره ، ورائحة الجلد المحترق تملأ المكان !

وانتقلت نظرة الإعجاب.واللوم والإشفاق إلى عينى وأنا أسمع هذه القصة الغريبة وتمنيت لو كان الموقف يسمح لى بأن أساله عن إحساسه وهو يحرق جلده ليحفر عليه اسم حبيبته ، لكن الممرضة جاءت تطلب منا الانصراف ، فانصرفنا مشفقيْن .. وفى الطريق سألتنى الفتاة نفس

سؤال فتاها لى بالأمس .. هل ترى لنا أى أمل فى اللقاء والزواج .. فكررت عليها ما قلته لحبيبها من قبل وأضفت إليه ان الحب العظيم الذى يشوى الجلود بعد القلوب لابد أن ينتصر فى النهاية على الحدود والسدود ولابد أن يصمد للزمن ولكل العقبات .

ثم زرت الفتى الأيسلندى خلال اليومين الباقين لى من الرحلة فى المستشفى مع فتاته ـ وحملت إليه زهوراً حمراء رأيتها أنسب الورود لحالة توهج الحب التى يعانى منها ، وتبادلت معه ومع فتاته العناوين وأرقام التليفونات والوعود بأن نكون على اتصال دائم فيما بعد ، لأعرف ماذا ستصنع بحبهما الأيام . وعدت إلى بلدى وأنا أعاهد نفسى على أن أكتب لهذا الفتى الإيسلندى فى وطنه لأعرف أخباره فجرفتنى الحياة الهادرة فى أمواجها .. ولم أكتب إليه أو إليها مرة واحدة منذ فارقتهما وسقطت القصة الدرامية المثيرة من الذاكرة فيما سقط منها عبر رحلة الأيام ومضت السنوات وامتد الزلزال السوفيتى إلى بلد آنى وانهارت الشيوعية فيه .. وسقط الحزب الشيوعى الحاكم .. وأبيح السفر وأزيلت القيود والسدود بينه وبين العالم الخارجى . فإذا بى وسط هذه التطورات السياسية المذهلة ..لا أتذكر سوى طالبة الجامعة الصغيرة آنى وفتاها الموسيقى الإيسلندى الشاب آلان وأستعيد من الذاكرة حديثى إليه عن قانون التغير الذى لايتغير وأتساءل ترى هل صمد حبهما للنهاية وتوَّجاه باجتماع الشمل والزواج .. أم جرفه قانون التغير فيما جرف من رواسخ

وأنظمة وأصنام؟ وهل مازالت آثار اسم آنى محفورة فى ذراع ألان .. أم تجددت الخلايا فمحت اسمها .

أرجو أن يكون حبهما قد استعصى على هذا القانون .. .. وبقى محفوراً فى القلب وفوق الجلد حتى الآن .



أمـام المصـعـد

** فى مدخل العمارة التقيا فتبادلا تحية المساء بكلمات مقتضبة ، وجاء المصعد ففتح الأول الباب ودعا جاره للدخول فدخل شاكراً .. واحتواهما المصعد فلاذ كل منهما بالصمت إلى أن توقف فى الدور الرابع وغادره الشاب الوسيم مودعاً ، وواصل المصعد رحلته إلى الدور الخامس فغادره الشاب الأكبر سناً إلى مسكنه . كلاهما أعزب لكن الشاب الوسيم يعيش بين أفراد أسرته .. ويبدو مترفعاً ومعتزاً بوسامته التى تشبه وسامة نجوم السينما، أما الآخر فكان أكبر منه ببضع سنوات .. يعيش وحيداً فى مسكنه ومهموماً دائماً بأشياء كثيرة .

ومع ذلك فلم يكن يخلو من إعجاب بوسامة شاب الدور الرابع ، وقد قدَّر بخبرته بالحياة أنه لابد أن يكون فتى أحلام كثيرات يتمنين الفوز به ، وربما غبطه أحياناً على ما أغدقته عليه الحياة من قوام رياضى رشيق وملامح متناسقة جميلة وبشرة نحاسية جذابة وعينين خضراوين وشعر فاحم السواد يبدو أنه سيتحدى به الزمن .. فى الوقت الذى يعانى فيه هو من سقوط شعره منذ بداية الشباب . وطوال أكثر من عشر سنوات كانا يتلاقيان بالصدفة أمام باب المصعد فيتأمله بما طُبع عليه من ميل

لتأمل الأشخاص والأشياء ومحاولة استشفاف ما وراء الوجوه ، ولم تتجاوز علاقتها مجرد التحية العابرة فالشاب متحفظ بطبعه مع الغرباء وربما يكون لما يحسه من تهافت الفتيات عليه أثر فى ذلك ، وقد سمع فى وقت ما أن فتاة جميلة من ساكنات الدور الثانى قد فعلت المستحيل لتلفت نظره إليها فلم يتجاوب معها، وقابل كل محاولاتها للتقرب منه بجفاء وصمت متكبر ، كما سمع عن أخرى بارعة الجمال كانت تقيم فى العمارة المقابلة وكانت تبالغ فى تلهفها عليه وثالثة من ساكنات الدور الثامن بنفس العمارة تدلهت فى حبه بلا أى تجاوب من ناحيته .. وتوقفت لقاءات المصعد فجأة وغاب عن نظره فترة طويلة علم خلالها أنه قد تزوج وأقام فى شقة بحى بعيد ولم يعد يأتى للعمارة لزيارة أمه وإخوته إلا فى المناسبات ، وتلهف لرؤية من فازت بقلب محطم القلوب هذا وخمن أنها لابد فاتنة وإلا لما نجحت فيما لم تنجح فيه غيرها .

وذات يوم رآه يركن سيارته الصغيرة أمام مدخل العمارة وينزل منها مع فتاة عادية الشكل إن لم تكن أقرب للدمامة منها للجمال .. وكتم دهشته حين جمع بينهم المصعد وقدم له الفتاة على أنها زوجته .. وهنأه وهنأها على الزواج، فلاحظ لدهشته أنها شكرته باستعلاء .. وأنها تبدو متأففة بلا سبب مفهوم وقد أبدت لزوجها ملاحظة غير لائقة على تهالك المصعد وقدم العمارة التى يقيم فيها أهله كأنما تحمله مسئوليتهما، ورأى زوجها ينظر إليها باسماً ومحرجاً ومتودداً كأنما يرجوها ألا تكرر ملاحظاتها أمام والدته وإخوته . ولاحظ أن نظرة الثقة فى النفس والتحفظ اللذين

كانا من معالم شخصية فتى أحلام الفتيات القديم قد تراجعا كثيراً وحل محلها شيء من الانهزام والاستسلام . وغادراه فى الدور الرابع فواصل رحلته إلى مسكنه وهو يتأمل هذه الملاحظة ويفكر فى دلالتها . وكان هو الآخر قد تخلى عن عزوبيته وتزوج وأنجب ورضى عن حياته برتابتها وهدوئها فدخل إلى شقته وحيا زوجته وطفليه ، ثم خرج إلى الشرفة فرأى جاره يجلس فى نفس مقعده القديم وتفحصه باهتمام وتعجب مما طرأ عليه من تغييرات .. فشعره فاحم السواد الذى طالما ألهب خيال فتيات العمارة قد بدأ يتراجع للوراء بسرعة عجيبة وجسمه الرشيق بدأ يترهل وينذر بظهور كرش مبكر .

وتكررت رؤيته له من حين إلى آخر أمام المصعد .. فراقب أثر السنين عليه كما يرقبها على نفسه مشفقاً حين يقف أمام المرآة .

وبعد شهور رآه يحمل على ذراعه مولوداً عرف أنه طفله الأول .. ثم رآه أكثر من مرة يمشى وراء زوجته حاملاً الطفل وهى تتقدمه بنفس النظرة المتأففة .. والاشمئزاز المفتعل .

وبعد بضع سنوات أخرى رآه ينزل من سيارته الصغيرة وهو يمسك بيده طفله الأكبر ويحمل على الذراع الأخرى طفلة وليدة .. وزوجته تتقدمه بكبرياء، أما استسلامه السريع لعوامل الزمن فقد كان يستوقف النظر فعلاً ، فالشعر الأسود الفاحم واصل تراجعه حتى أسفر عن صلعة عريضة .. والكرش أعلن عن نفسه بوضوح فأفسد قوامه الرشيق

والنظرة الكابية الثقيلة استقرت فى عينيه فأطفأت سحرهما القديم ، وتسللت التجاعيد إلى ما تحت عينيه كأنما قد تقدم به العمر أضعاف سنوات عمره .

ومضت عدة سنوات لم يصادفه خلالها فى مدخل العمارة أو أمام المصعد ثم رآه ذت يوم يجلس فى شرفته ساهماً وهو يحمل طفليه ليتيح لهما التفرج على ما يجرى فى الشارع .

ولم ير زوجته معه فى هذه المرة فقدر أنها فى زيارة عائلية أو عمل . ونسيه بعد ذلك فيما يشغله من أمور الحياة ثم خرج إلى الشرفة ذات أصيل بعد أسابيع فرأى نفس المشهد .. جاره يجلس ساهماً فى الشرفة وهو يمسك بطفليه اللذين يطلان على الشارع وتكرر المشهد بعد ذلك كثيراً حتى ألفه .

وفى أصيل أحد الأيام غادر المصعد متجهاً إلى عمله فالتقى بالفتى القديم وبدا كأنما كان يَنتظره وأحس من نظراته المتوددة بأنه يريد أن يفاتحه فى أمر ما .. ولم يخب تقديره فقد تقدم منه وسأله فى خجل عما إذا كان يمانع فى أن يوصله بسيارته فى طريقه إلى وسط المدينة ، لأن سيارته معطلة ورحب به على الفور ، وركب إلى جواره .. وهما يتبادلان كلمات المجاملة التقليدية إلى أن اقتربا من وسط المدينة .. فسأله عن المكان الذى يجب أن يوصله إليه فقال له : أتمانع فى أن أصحبك إلى مكتبك لأحدثك فى أمر يخصنى ! واصطحبه إلى مكتبه، وبعد تناول القهوة قال

له : عجيب أننا لم نتبادل طوال هذه السنوات سوى عبارات التحية أمام المصعد .. وبالرغم من ذلك فإنى أحس برغبة شديدة فى أن أستشيرك فى أمرى ، وأن أحدثك عما أخجل من أن أحدث به غيرك ، إننى أريد أن أسألك: هل نحن نختار أقدارنا .. أم أن أقدارنا هى التى تختارنا ؟ لقد كنت خلال دراستى الجامعية .. هدفاً لعديد من زميلاتى الجميلات اللاتى يتنافسن على الفوز بى ... ورغم ذلك فلم تلفت إحداهن نظرى.. وكنت أتعامل معهن جميعاً بثقة زائدة فى النفس إلى حد الغرور وأتقبل حبهن كأنه تحية تقدم لى، ولست مطالباً برد التحية بحب مماثل .. وصادفت نفس هذا الإقبال من بعض جارات لنا بالعمارة لعلك سمعت بعض أخبارهن .. وكذلك فى النادى .. وفى العمل حين عملت بعد التخرج . وكان مألوفاً فى حياة أسرتى أن أتلقى المكالمات التليفونية العديدة كل يوم من أكثر من فتاة تبثنى حبها .. وتشكو حظها الذى أوقعها فى حب تمثال جميل لا قلب له مثلى ! ولا أبالغ إذا قلت لك إنى كنت أتلقى بعض عروض الزواج من أكثر من فتاة ثرية تعدنى بأن تسهل على كل الأمور بل وأن تدفع لى قيمة الشبكة والمهر سراً لأتقدم بهما إلى أبيها ، ولم يهز كل ذلك وتراً واحداً من أوتار قلبى ولم أقابل هذه العروض إلا بالاستهزاء والغرور ، ثم عملت فى عملى الحالى وشغلت خلال سنواتى الأولى بتحقيق نجاحى فيه حتى تقدمت على أقرانى وحققت فيه مركزاً مرموقاً بالقياس لسنى ، ثم جاءت إلى مكتبى ذات يوم موظفة بإحدى الشركات التى تتعامل مع شركتنا كمندوبة عنها فى حل

نزاع بين الشركتين، وتكرر اللقاء بيننا لحل الخلاف فوجدتنى لأول مرة أهتم بفتاة بالرغم من تواضع جمالها .. ولا أعرف ماذا أعجبنى فيها .. فلقد كانت مخالفة لكل ما أردته فيمن أحبها .. فهى شخصية مقتحمة وجريئة إلى حد ينذر بالمتاعب وعباراتها مكشوفة إلى حد يصدم المشاعر، كما أنها أيضاً من أسرة عادية بل أقل من العادية اجتماعياً ومادياً ، وبالرغم من ذلك وجدتنى مشدوداً إليها .. وانتظرت منها أن تبثنى إعجابها أو تحاول لفت نظرى إليها بعد قليل كما فعلت كثيرات غيرها من قبل فلم تفعل ! وبدأت أطيل المفاوضات بينى وبينها .. وأضع العقبات فى طريقها لكى تتكرر مرات اللقاء .. وفى كل اجتماع بيننا أتوقع أن يفعل فيها «تأثيرى» القديم مفعوله فلم ألحظ عليها أى تأثر بجاذبيتى المعهودة، وإنما بدت دائماً متأففة وساخطة وتتعجل انهاء المهمة التى جاءت من أجلها ، وخمنت أنها لابد مرتبطة بشاب تحبه ووجدت الجرأة فى نفسى بعد أكثر من شهرين لأسألها عن ذلك فأجابتنى ببساطة بأنها غير مرتبطة بأحد ، وتعجبت لصمودها أمامى كل هذه الفترة وانشغلت تماماً بها حتى بدأت أجزم بينى وبين نفسى أننى أحبها . وبعد أسبوع آخر ألقيت سلاحى أمامها وتنازلت عن كبريائى وعرضت عليها أن أتقدم لخطبتها ففوجئت بها ترفضنى ! وسألتها مذهولاً عن الأسباب فأجابتنى ببساطة بأننى أبدو مغروراً بوسامتى ومظهرى ومركزى .. وأنها لا تحب أن ترتبط أو تتزوج من شاب يحس بوسامته حتى لا تعيش حياتها وهى تعانى من مشاكل الغيرة عليه ! واشتعلت نيران الحب فى قلبى

حتى الجذور وأتت على ما بقى من مقاومتى وكبريائى فرجوتها أن تمنح نفسها فرصة أخرى لإعادة التفكير فى الأمر وأكدت لها أنى لست مغروراً بأى شكل من الأشكال ولست شاباً عابثاً ولا أحلم إلا بحياة زوجيةسعيدة وهادئة . ووعدتنى بالتفكير بعد إلحاح شديد من جانبى واتصلت بها تليفونياً بعد أيام ودعوتها للقاء خارج المكتب فاعتذرت بأنها «لامزاج لها للخروج اليوم» وابتلعت كرامتى وعاودت الاتصال بها بعد يومين ورجوتها أن تخرج لملاقاتى فأجابتنى بأنها تشكو من الصداع .. لكنها لاتمانع فى الحديث معى بعض الوقت فى التليفون، وتحدثت معها طويلاً وأصبحت مكالماتى معها كلها استجداء لها لكى تخرج وتقابلنى.. وشقيقى الأصغر يسمع ما أقول ويتعجب .. ويقول لى لابد أنها أجمل فتاة فى العالم لكى تحدثها وتستجديها بهذه الطريقة فآلمتنى ملاحظته وتذكرت حالى حين كنت أرد ببرود على من تطلبنى فى التليفون من الفتيات وأرفض حبهن ودعواتهن لى للقاء بشىء كثير من الغرور !

وبعد كل ذلك تنازلت هى وخرجت لمقابلتى ثم قبلت خطبتى وتزوجنا وتقبلت كل ظروفها وعشت معها أيامنا الأولى فى سعادة غامرة ولم ألتفت كثيراً إلى تسلطها واستجبت لأحكامها العرفية التى فرضت بها على ألا أكلم أى فتاة ولا أبتسم فى وجه فتاة أو امرأة مهما كانت الأسباب.. واستسلمت لإرادتها فى كثير من الأشياء حتى عابت علىَّ أمى خنوعى معها وتعجبت من سطوتها على وهى التى لاتساوى كما تقول قلامة أظفر أى فتاة عُرِضت على قبلها . وتحملها إخوتى وشقيقاتى

إكراماً لخاطرى فتحملوا تأففها من قلة إمكاناتى المادية بالرغم من أنها لم تكن تحلم بحياة أفضل من حياتها معى . وتحملوا ادعاءها بأنها كانت تعيش فى بيت أسرتها فى مستوى أفضل مع أنها من أسرة بسيطة ، ثم جاء طفلى وطفلتى فشغلانى عن كثير من تفاهاتها خاصة وأنها تركت لى تقريباً أمر رعايتهما منذ ولادتهما كأن شئون الأطفال ليست من اختصاصها ، فأصبح روتين حياتى اليومى هو أن أخرج فى الصباح فأودع الطفلين بيت أمى ثم أذهب لعملى وأعود منه إلى بيت أمى لأصطحبهما إلى البيت ثم أبقى معهما حتى يناما وخلال ذلك أقوم لهما بكل ما يحتاجان إليه أما هى فقد تخرج بعد الظهر مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع لاجتماع عمل مسائى أو لزيارة صديقة أو للذهاب للنادى مع شلة صديقات زمان . فإذا طالبتها باصطحابى فى زيارة أمى أو لإحدى شقيقاتى كافحت للتهرب من ذلك طويلاً قبل أن توافق وهى متأففة وتمضى وقت الزيارة عابسة وشبه صامتة كأنها ملكة تتعطف على بعض رعيتها بزيارتهم فى بيتهم !

ورغم ذلك كانت الحياة تمضى بنا ولم أكن أشكو منها ولا من شىء إلى أن فوجئت بها ذات يوم تطلب الطلاق منى ؟ ذهلت فسألتها : ماذا تقولين ؟ أجابت : الطلاق ! لماذا؟ لاأحبك وأريد أن أعيش حياة زوجية أعرف فيها الحب وفى مستوى مادى لائق بى؟ ياربى هل جُنَّت؟ هل أصابتها لوثة عارضة ؟ ولم أدر ماذا أقول! فسألتها .. وماذا عن الطفلين اللذين لم يبلغ أكبرهما العاشرة بعد وحبى لك واحتمالى منك الكثير ؟ هل

أغضبتك فى شىء .. هل أسأت إليك ؟ ورحت أهذى هكذا فلا أتلقى منها جواباً سوى طلب الطلاق . ثم غادرت البيت إلى بيت أهلها وتركت لى الطفلين .. واحترت ماذا أفعل معهما فحملتهما وحملت حقيبة ملابسى وعدت إلى بيت أمى وقلت لها والدموع متحجرة فى عينى : اعتبرينى لم أتزوج ولم أغادر بيتك من قبل وبكت أمى طويلاً وهى ترانى حزيناً ومهزوماً أمامها .

ونشط السفراء بينى وبينها يحاولون إعادتها للبيت بلا فائدة وقدموا لها تنازلات عديدة بلا أى تأثير فيها . وأخيراً التقينا فى بيت أسرتها وأبلغتها بموافقتى على الطلاق ولكن بشرط أن تترك لى الطفلين لأنها لن ترعاهما وهى التى لم ترعاهما من قبل . وذهلت حين تخلّت بسهولة غريبة عنهما كأنهما طفلا أم أخرى ! وبدأت الاجراءات الحزينة وأنا أراقب الطفلين وأتساءل عما ينتظرهما من مصير، وتوقعت فى كل لحظة أنها ستصرخ رافضة إتمام الإجراءات وتحتضن الطفلين باكية وهى تغمرهما بالقبلات وتعلن أنها ستعيش تحت أقدامهما ما تبقى لها من عمر فمضت الإجراءات إلى غايتها بغير أن يهتز لها رمش حتى صرخ فيها أبوها يسبها ويستمطر اللعنات عليها ويتهمها بأنها لا قلب لها .. ولم تزد على أن نظرت إليه فى جمود ثم أطرقت فى الأرض صامتة وهى تشير للمأذون أن يواصل مهمته!

وانتهى اليوم الكئيب وعدت بالطفلين إلى بيت أسرتى .. ولامتنى أمى كثيراً على اصطحاب الطفلين معى لحضور هذه المراسم الكريهة .. ولم

تدر أنهما كانا أملى الأخير فى أن ترجع أمهما عن غيِّها وتقدر حاجتهما لأبوين ينشآن فى ظلهما ككل الأطفال فخاب الأمل وانتصرت القلوب المتحجرة .

واعتصمت فى بيت أسرتى بعدها عدة أيام كارهاً الحياة .. ولم يعد لى هدف إلا إسعاد هذين الطفلين اللذين جنيت عليهما باندفاعى وراء مشاعرى تجاه أمهما الجحود .. ونظمت حياتى بعد ذلك على الذهاب للعمل لساعات محدودة فى الصباح والعودة سريعاً للبيت لأقوم للطفلين بواجبات الأم والدادة والأب ، وودَّعت طموحى فى العمل إلى غير رجعة فتنازلت عن منصبى المرموق الذى يتطلب إدارة قسم بأكمله وحضور الاجتماعات والتركيز الشديد فى العمل .. وطلبت نقلى إلى عمل هامشى لايتطلب منى تنبهاً خاصاً وتفهم رؤسائى ظروفى فنقلونى إلى وظيفة خاملة .

أما فتاة القلب الغادرة فلقد انكشف المستور بأسرع مما توقعت وفوجئت بها تتزوج بمجرد انتهاء عدة الطلاق من زميل لها بالعمل طلق زوجته وترك ثلاثة أطفال وراءه من غير أن يهتز له هو الآخر رمش ! وتفرغ الاثنان لرشف رحيق العسل فى عشهما الجديد، ولم أتعجب كثيراً لهذا الاختيار فالطيور على أشكالها تقع .. لكننى تعجبت حقاً حين فوجئت به ذات يوم يأتى لمقابلتى فى العمل ويحدثنى «بروح رياضية» ويطالبنى بأن ننسى ما كان ونتعامل بلا ضغينة كأننا لاعبان فى مباراة تنس يصافح المهزوم الفائز فيها بعد المباراة ، ثم يطلب منى أن أسلمه

الطفلين لتراهما أمهما ويمضيا معها يوماً سعيداً ثم يعيدهما لى على أن يكرر ذلك كل أسبوع ويأتى لاصطحابهما من بيت أسرتى لأن أمهما لاتريد دخوله ، بينما نحن «رجال» ونستطيع التصرف فى هذا الأمر بتحضر ! واستمتعت إليه ذاهلاً ثم انفجرت فيه بأن نجوم الظهر أقرب إليه مما يحلم به وبأنى إذا وافقت على أن تراهما ولست أمانع فى ذلك .. فلن تراهما الا فى بيت أبيها وبحضور احدى شقيقاتى .. أو فى قسم الشرطة ! وانصرف متظاهراً بالأسف لانعدام الروح الرياضية لدىَّ . وقبل أن يخرج للباب هتفت فيه صائحاً : متى رأيت أنت أطفالك آخر مرة؟ فالتفت ونظر إلى متعجباً ثم أدار ظهره فى صمت وانصرف !.

وتوقف فتى الأحلام القديم عن رواية قصته الأليمة .. ثم سأل مضيفة : هل عندك تفسير لما جرى لى إلا ما يراودنى أحياناً من أنه لا تفسير له إلا أنه عقاب السماء لى على تبطرى السابق على من تدَّلهن فى حبى وعرضن أنفسهن على، وكن جميعاً جميلات ومن أسر طيبة فأعمانى الغرور عنهن إلى أن أوقعنى عمى القلب فى هذه السيدة الجبارة ؟

وسكت الآخر احتراماً لآلامه .. ثم طيب خاطره ببعض الكلمات المعتادة ونصحه بالزواج ممن يتوسم فيها التدين وكرم الأخلاق وطيب المنبت والاستعداد لرعاية طفلين هجرتهما أمهما جرياً وراء نداء القلب ، وتحدث عن ذلك طويلاً بحماس وهو يؤكد له أنه سيجد بكل تأكيد من تعوضه عن جحود زوجته الأولى وتبطرها على حبه وعلى الحياة معه وتنسيه آلام هذه المحنة القاسية وأن المهم أولاً وأخيراً هو ألا يستسلم

لأحزانه ويفقد ثقته فى نفسه وفى جدراته بحب من سوف تجمع بينه وبينها الأيام فى المستقبل القريب .

فابتلع الفتى الكهل ريقه بصعوبة ثم قال : وأين هى مثل هذه الفتاة أو السيدة التى ترضى بى الآن بعد أن تدهور بى الحال نفسياً واجتماعياً وجسمياً كما ترى ؟ لقد تبطرت فى الماضى على الجميلات حين كنت فتى مرغوباً فهل أجد بغيتى الآن وأنا كهل أصلع أكرش تملأ وجهى التجاعيد ومعى طفلان ؟ لقد أسفرت الأحلام الوردية القديمة بعد رحلة السنين عن وظيفة هامشية ورزق محدود وشقة شبه خالية من الأثاث وأننى لأنظر الآن أحياناً إلى المرآة .. فأرى شخصاً آخر تماماً غير الشاب الوسيم المعتز بنفسه لدرجة الغرور فمن تقبل بهذا الشخص الجديد الخامل شكلاً وموضوعاً ؟ .

ووعده الآخر بأن يحاول مساعدته فى ذلك بقدر الإمكان فتردد قليلاً ثم طلب منه مساعدته أيضاً فى نقل الطفلين إلى مدرسة قريبة من مسكن أمه حيث يعيش الآن ، ووعده الآخر بذلك فشكره وانصرف والآخر يرقبه وهو يغادر مكتبه متهدماً منحنياً للأمام كأنه شيخ محطم ، وحين أغلق الباب وراءه أغمض عينيه وقال لنفسه : ما أعجب ما تفعله بنا الأيام وما أغرب ما تكشف عنه دورة السنين كلما قارنا البدايات الواعدة .. بالنهايات الكابية !

أنف الزوجة

** من «همومى» الجديدة فى بريدي مشكلة غريبة سميتها فى إحدى الرسائل مشكلة «أنف الزوجة»!

فمنذ عشر سنوات وبريدى لايخلو كل أسبوع من رسالة أو أكثر تشكو لى فيها زوجة شابة أو فتاة فى سن الزواج مما تعتبره مشكلة خطيرة وهى أن أنفها ضخم وأن زوجها أو فتاها يضيق به ! ثم تستنجد بى لأساعدها فى حل هذه المشكلة !

وأذكر أننى حين نشرت رسالة «أنف الزوجة» منذ عدة سنوات وطلبت من كاتبتها الاتصال بى لعرضها على جرَّاحٍ انهالت علىَّ رسائل الزوجات والفتيات تطلب نفس الشيء حتى خيل إلى وقتها أن مشكلة الأنوف الكبيرة قد أصبحت من مشاكل مجتمعنا المزمنة كمشكلة تنظيم الأسرة .. وارتفاع نسبة الأمية! ورغم ذلك لم أتراجع وأرسلت لكل من استنجدت بى خطاباً تتوجه به إلى هذا الطبيب الصديق .. فكانت المفاجأة المذهلة وهى أن ٩٩٪ من الحالات التى أرسلتها إليه لاتحتاج إلى أى تجميل ولا إلى أى تدخل جراحى لتصغير الأنف .. وأن أنوف صاحباتها طبيعية وفى حدود المقاييس العادية لها .. لكن إحساس

صاحباتها بضخامتها إحساس داخلى لاعلاقة له بحجمها الحقيقى !
فتأكد لى أن الإحساس الذاتى بالجمال .. قد لا يكون له أحياناً علاقة بمؤهلات المرأة الجمالية ..

وكلما تعاملت مع مشكلة جديدة من مشاكل أنف الزوجة تمنيت أن تنتهى نفس النهاية السعيدة التى انتهت إليها قصة الأديب الفرنسى الكبير جان بول سارتر «الأنوف المستعارة» وهى قصة ساخرة غريبة تحكى عن مملكة وهمية اسمها مورافيا .. ولد لملكها مولود وحيد فجاء إلى الدنيا بأنف ضخم كبير .. فحزن لمرآه وخشى عليه إذا شب ورأى الناس بأنوفهم الطبيعية الصغيرة أن يحس بالنقص تجاه عيبه الخلقى فأصدر أمراً عجيباً يفرض على كل من يعيش فوق أرض بلاده أن يضع على أنفه أنفاً صناعياً ضخماً وألا يخلعه أبداً ليلاً أو نهاراً وبدأ بنفسه وبزوجته فالتزما بحمل هذا الأنف الصناعى بصفة دائمة .. وشب الطفل فوجد الجميع بأنوف ضخمة فلم يشعر بأى نقص بينهم !

وبلغ ولى العهد سن الشباب .. وساءت الأحوال فى المملكة واشتد بها الفقر حتى وصل الحال بملكها إلى عجزه عن دفع أجور خدم القصر فتطلع إلى حل لأزمتها المالية فى زواج ولى العهد من أميرة مملكة القوقاز الغنية المجاورة وجاءت الأميرة مرغمة لاتمام هذا الزواج بعد أن خيرها أبوها بينه وبين دخول الدير ، وفرض عليها ملك مورافيا هى وحاشيتها أن يضعوا الأنوف الضخمة .. ورآها الأمير فاستبشع منظرها وكرهها لكنه مضطر لمجاراة أبيه .. وتآمر كبار رجال الدولة مع شقيق الملك على

إفساد الزواج ليتولى شقيقه الحكم ويرفع عنهم أمر ارتداء الأنوف الضخمة.

وتبكى الأميرة فى غرفتها حزناً على مصيرها وتخلع أنفها .. ويدخل عليها الأمير الشاب فيرى أنفها الطبيعى الجميل ويقع فى هواها ويتعاطف معها لسبب غريب هو اعتقاده أنها شريكته فى «العاهة» التى يضع أنفاً صناعياً ضخماً ليخفيها عن الناس .. فهو أيضاً صغير الأنف فى الحقيقة ولهذا يحس بالنقص تجاه ذوى الأنوف الكبيرة ثم يخلع أنفه فيتبدى جماله وتقع الأميرة فى هواه .. ويتبين من خلال القصة أن الطفل الذى ولد للملك بأنف ضخم قد مات بعد شهور وأن الملكة قد اتخذت بدلاً منه طفلاً آخر وأخفت الأمر على الملك حتى لايذهب العرش من بعده إلى شقيقه وفى اليوم التالى يبدأ حفل توقيع عقد الزواج .. فيتصدى شقيق الملك للأمير ويعلن أنه لايجوز أن يكون ملك البلاد فى المستقبل لأنه مشوه الأنف .. فيخلع الشاب أنفه الصناعى وينكره شقيق الملك ويؤكد أنه ليس ولى العهد فتضطر المرضعة التى كتمت السر سنوات طويلة بعد وفاة الملكة لإعلان الحقيقة أمام الجميع فيطالب شقيق الملك بتنصيبه هو ولياً للعهد بدلاً من هذا الشاب الغريب .. وبأن يتزوج أميرة القوقاز طبقاً لمشيئة أبيها أن تتزوج ممن سيصبح ملكاً لمورافيا .. لكن الأميرة تعلن أنها لن تتزوج إلا هذا الشاب أو تدخل الدير .. فيضع الملك الأمر بين يدى رجال الدولة ويسألهم هل يفضلون هذا الشاب ومعه الفقر والكساد والديون .. فيفضلون جميعاً الرخاء وذهب القوقاز

فيعلن تبنِّيه للشاب واعتماده ولياً للعهد .. ويخلع الجميع أنوفهم المستعارة للأبد ويدوسونها بالأقدام ويستريحون .. ويعودون للحياة بأنوف طبيعية صغيرة !.

وبمثل هذه النهاية السعيدة انتهت قصة زوجتين من قارئات بريد الجمعة مع أنفيهما .. وتم تصغيرهما ورضيت عنهما الزوجتان .. وسعد بهما الزوجان !.

لكن الحياة أثبتت أنها أكثر مأساوية من خيال أديب كبير كسارتر فى قصة أخرى مازلت أتذكرها حتى الآن وآسف لها .. فمنذ عامين كتبت إلىّ زوجة شابة تقول لى إنها مهندسة عمرها ٣٥ سنة ولاتعمل ومن أسرة طيبة ومتزوجة من طبيب شاب ولديها أربعة أطفال صغار وأنها زوجة مطيعة لزوجها وسيدة بيت ممتازة وأم عطوف تؤدى واجباتها تجاه زوجها وأولادها بإخلاص .. وتحبه ولاتنكر عليه شيئاً سوى أنه ومنذ عامين قد دأب على أن يناديها أمام أبنائها بهذا النداء البغيض .. يا «أم منخار» .. مشيراً إلى أنفها الكبير نسبياً بالرغم من أن شكلها جميل وملامح وجهها متسقة ولاتشعر بحاجتها إلى جراحة تجميل، وقد حاولت التفاهم معه باللين وإقناعه بالكف عن هذا النداء السخيف فلم يرتدع .. وهددته بمغادرة البيت فتعجب من ذلك وسألها مستنكراً : لماذا .. هل ضربتك بسكين ؟ إنه مجرد وصف حقيقى لك أكتمه فى صدرى منذ سنوات وأريد أن أناديك به .. وأرى راحتى فى ذلك .. وسألتنى أليس حراماً أن أمضى يوماً طويلاً فى خدمة البيت ورعاية الاولاود ومساعدتهم على

الاستذكار ثم تكون مكافأتى من زوجى بعد عودته هى جرح مشاعرى بهذه الطريقة المهينة .. أليس هذا حراماً يا سيدى ؟

وقد نشرت رسالتها فى بريد الجمعة ولمت زوجها لوماً عنيفاً على إيلامها بهذا النداء السخيف .. وذكرته بقول الرسول الكريم ﷺ «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله» وناشدته ألا ينقص من إيمانه بهذا التصرف الصغير .. وقلت له إن الإشارة إلى ما يكره الإنسان أن يشير إليه أحد ليس من آداب التعامل بين الغرباء فكيف بمن تجمع بينهم الحياة فى بيت واحد ؟

ومضى عام على نشر هذه الرسالة ثم فوجئت برسالة أخرى من زوج كاتبة الرسالة الأولى تقطر أسى وندماً ينعى لى فيها زوجته الشابة التى ماتت فجأة بلا مرض سابق .. ويصف لى ما يحسه من ألم وحرقة لفراقها وهى الزوجة الطيبة المطيعة المخلصة التى عاشرته أربعة عشر عاماً كانت خلالها الحضن الدافىء الذى يختبىء فيه من متاعب الحياة والأم العطوف التى ترعى أطفاله الأربعة .. والتى ضحت بوظيفتها من أجلهم ومن أجله .. ويبثنى شجونه لفراقها وندمه الذى يحس بلسعه ينهش صدره لأنه آلمها بذلك النداء السخيف ويتعجب من أنه قد عمى عن جمال وجهها الملائكى وروحها الطيبة خلال تلك الأيام .. ويسألنى هل تحس هى الآن بافتقاده لها وندمه على تلك العبارة السخيفة .. وهل تعرف أنها كانت أجمل الجميلات وأخلص الزوجات وأنى مهما طال بى العمر لن أنساها ولن أعوض غيابها أبداً ؟

وتساءلت بعدها وما زلت أفعل إلى الآن كلما عرضت لى حالة مشابهة: ترى لماذا يحرص ركاب القطار أو الطائرة الذين تجمعهم الأقدار فى رحلة سفر على أن يتعاملوا فيها بينهم برقة وأدب وعطف متبادل واستعداد للمجاملة والحرص على مشاعر الآخرين ؟

وأجد الجواب دائماً فى أنهم يعرفون أنهم رفاق سفر لن يطول وسوف يتفرقون بعده ويذهب كل منهم إلى وجهته .. لهذا فهم يترفعون خلال الرحلة القصيرة عن الصغائر ..

فإذا كان الأمر كذلك .. فلماذا لا يهوّن رفاق رحلة الحياة على أنفسهم وعلى شركائهم متاعب السفر بنفس هذه الروح وبحسن المعاشرة وبالتعاطف المتبادل ورحلة الحياة مهما طالت قصيرة ..

نعم .. لماذا ؟

بل ولماذا يتصور البعض أن مشاكل الحياة الجادة قد انتهت فيتحسسون أنوفهم أو أنوف غيرهم ويضيفون إلى متاعبهم ومتاعب الآخرين مشكلة جديدة من هذا النوع ؟

هل عندك جواب مقنع ؟!.

قصة قصيرة ....

زوايا الحب الأربع

نادية (١) .

** منذ سبعة عشر عاماً كنت طالبة بإحدى الكليات العملية وشخصية اجتماعية محبوبة من زملائى وأساتذتى ثم تقدم لخطبتى معيد بالكلية لم يكن فى شكله أو هيئته أو هندامه ما يجذبنى إليه بل ولم يكن فى شخصيته أيضاً ما يغرينى بالارتباط به فهو انطوائى وانعزالى ومتردد وبالرغم من ذلك فقد انبهرت به انبهار طالبة صغيرة بأستاذها ووافقت عليه وتزوجته بمشاعر حيادية تماماً فلم أكن أحبه أو أكرهه وإنما أملت فى أن تنسج العشرة خيوط الحب والألفة بيننا .

.. وبدأت حياتى الزوجية معه مستبشرة وتخرجت من الكلية بتفوق وعينت معيدة معه فى نفس الكلية ولكن فى قسم آخر . ثم حصلت على الماجستير ثم الدكتوراه أيضاً وبدون أدنى مساعدة من زوجى . وخلال ذلك كنت قد أنجبت طفلين واعتبرت نفسى منذ الأيام الأولى لزواجنا «رجل البيت» المسئولة عن كل شئونه ، أقوم بكل احتياجات البيت والأسرة بسبب انطوائيته وهروبه من المسئوليات الاجتماعية بل كنت أقوم أيضاً بكل الواجبات العائلية والاجتماعية كمجاملة الأهل والزملاء فى

المناسبات نيابة عنه ، وحين اشترينا أول سيارة خاصة بنا ترك لى قيادتها بل وصيانتها بالرغم من معرفته للقيادة ، فأصبحت أقوم بتوصيله إلى عمله وزياراته الضرورية وتوصيل أبنائى للمدرسة وإعادتهم منها ، وأتحمل أنظار المارة وأنا أقود السيارة وهو قابع إلى جوارى فى سكون. أما فى حياتنا الخاصة فقد كانت مشاعرى دائماً تجاهه فاترة ولم يساعدنى هو يوماً على بعث الحرارة فيها بكلماته المقتضبة المجافية للذوق والتى تتناقض مع طريقة تعامله مع الآخرين . لهذا فقد مضت سنواتى معه فى هدوء وسكينة بلا أزمات أو مشاجرات حادة ولكن بلا أى تقدم على الجبهة العاطفية . ويئست تماماً من أن أحبه أو أغير من طباعه وأدفعه لأن يصبح فارس أحلامى، ورضيت بأقدارى، وعوضت نقصى بالاهتمام بالطفلين والتقدم فى عملى وبصداقاتى الاجتماعية مع زميلاتى فى الكلية وفى النادى وبرحلات النادى التى كان يعتذر عنها غالباً .. ومضت حياتنا هكذا ، ثم علمت أن الكلية قد تعاقدت مع إحدى شركات المقاولات الصغيرة على ترميم مبانيها وتجديدها فاستبشرت خيراً بتجديد غرفة مكتبى ذات الجدران الكالحة ، وانتظرت بلهفة دروها فى التجديد والطلاء، ثم دخل إلى مكتبى ذات صباح رجل متوسط العمر طويل رشيق وسيم قد قدم لى نفسه بثقة وقال وهو يبتسم فى أدب: إنه صاحب شركة المقاولات التى تنفذ عملية الترميم ويريد أن يرتب معى مواعيد العمل فيما يختص بغرفة مكتبى ، ودعوته للجلوس وطلبت له فنجاناً من القهوة وتحدثنا فيما جاء من أجله فلاحظت بعد قليل سعة اطلاعه وتفتح

عقله ولباقة حديثه ورهافة حسه . وأبلغته بكل طلباتى وسجلها باهتمام وأضاف إليها اقتراحات قيمة تشى بسلامة ذوقه الفنى، وانصرف شاكراً لى حسن ضيافتى وواعداً بتنفيذ كل ما طلبت . وتكررت زياراته لى وطالت أحاديثنا معاً بالرغم من تحفظى معه فى البداية ثم اكتشفت انى أفتعل المناسبات لكى أدعوه للحديث معى بحجة إبداء ملاحظات على الترميم أو الطلاء ، ولاحظت أيضاً أنه لايقل عنى افتعالاً لهذه الأسباب ، واستمر العمل فى غرفتى شهراً كاملاً بالرغم من أنه لم يكن ليستغرق أكثر من أسبوعين وبعد انتهائه تكرر اللقاء وافتعال الأسباب وبدأ يروى لى عن نفسه وعن شقائه بزوجته فقد وصلت علاقته بها إلى طريق مسدود منذ سنوات ولم يبق إلا إعلان الانفصال الذى تأخر كثيراً بعد أن يئس من إصلاحها واسترضائها . واهتممت بأن أعرف التفاصيل واقتنعت بأنه قد تزوج المرأة الخطأ، كما تزوجت أنا الرجل الخطأ فشخصيته نقيض شخصية زوجى ، وتعجبت من تصاريف القدر ، لماذا تجمع دائماً الأضداد ، وتفرق بين الأشباه ؟ وعانيت آلاماً كثيرة بينى وبين نفسى ، وراقبت أطفالى مراراً وأنا ساهمة أفكر هل من حقى أن أبحث عن سعادتى ولو تعارضت مع سعادتهم أم لا؟. وملت فى مرات عديدة إلى ترجيح كفتهم ، وقررت صدَّ هذا الغازى الجديد ، وأبلغته بذلك فبدأ الحزن فى وجهه ودمعت عيناه وفارقنى وهو يؤكد لى أنى أظلم نفسى بذلك وأظلمه .. بل و«أظلم» أطفالى على المدى البعيد؛ لأن الأم التعيسة كما قال لا تستطيع إسعاد أطفالها ! وفكرت فى كلامه كثيراً وترددت فى

الاقتناع به ، لكنه لم تمض أيام حتى وجدته أمامى نابت الذقن شارد النظرات يطلب منى إعادة النظر فى قرارى لأن كلاً منا قد خلق للآخر ولن يجد سعادته مع غيره . ثم طالبنى بالطلاق وأبدى استعداده لأن يطلق زوجته على الفور قرباناً على مذبح حبى ثم ينتظرنى إلى أن أتخذ قرارى . وطالبته بألا يطلق زوجته وأن يتمسك بالصبر وعدت لعذاب التفكير من جديد ، وبعد عناد طويل نهضت ذات صباح من فراشى دون أن يغمض لى جفن ثم صارحت زوجى بأنى أريد الطلاق .. فوقع كلامى عليه وقع الصاعقة ووقف ينظر إلىَّ فى ذهول وجمود .. أما أنا فقد تحررت من عبء ثقيل كان يرزح على صدرى وخرجت إلى عملى بتصميم عنيد على أن أبدأ حياة جديدة مهما كانت العقبات .

عـاصـم (٢)

أنا رجل فى الواحدة والأربعين من عمرى كنت حتى خمس سنوات مضت أشغل وظيفة مرموقة ثم حزمت أمرى بعد تفكير طويل وقررت الاستقالة وبدء مشروع خاص يحقق لى طموحى المادى ويحررنى من قيود الوظيفة .. وقبل أن أقدم على هذه الخطوة الخطيرة استشرت زوجتى فعارضتنى بشدة فى الاستقالة، وحاولت أن أفهم أسباب اعتراضها فلم أستفد شيئاً سوى أنها ترى أن الوظيفة مضمونة بالرغم من قلة عائدها ومحترمة فى أعين الناس ، في حين أن المشروع الذى أنوى إقامته قد يحقق دخلاً كبيراً ذات يوم لكنه ليس مأمون العواقب كما أنه لا يقدم لى «القباً» محترماً كاللقب الذى تقدمه لى الوظيفة ، ولم يكن اختلاف وجهتى نظرنا

فى قرار مصيرى كهذا أمراً جديداً علينا فنحن دائماً فى حالة خلاف واختلاف حول كل شىء منذ تزوجنا أى منذ أربعة عشر عاماً . وحياتنا معاً تمضى فى شبه قطيعة متصلة تتخللها أيام معدودة بل وربما ساعات معدودة من الصفاء المؤقت ثم تعود إلى طبيعتها . ولولا أنى أنجبت منها ثلاثة أطفال صغار لوضعت نهاية لحياتى الفاشلة معها منذ زمن طويل . فمنذ الأيام الأولى لزواجنا ونحن ضدان اجتمعا ولا مفر من صراعهما واشتباكهما دائماً . أنا رومانسى أعطى للحب والعاطفة قيمة عليا فى حياتى ، وهى عملية تتحكم فى عواطفها كأنها آلة حاسبة دقيقة الصنع . وأنا أحب الناس والحياة والحفلات الاجتماعية وهى تنفر من المجتمعات وتسىء الظن بالآخرين وتفسر كل تصرفاتهم معنا تفسيرات غير حقيقية . وأنا أحب الموسيقى والرسم والفن وأجيد الرسم وأعمال الديكور وهى تكره كل ذلك وتعتبره تفاهات لا يجوز لزوج وأب لثلاثة أطفال أن يشغل نفسه بها . وأنا أحب المرح والابتهاج وأكره النكد والاكتئاب ، وهى تجيد فن النكد واختلاق أسباب الشجار لتطلق لسانها فىَّ بكلماتها القاسية فكانت النتيجة أن وقع الانفصال الروحى بيننا منذ فترة طويلة ، لكنى حافظت على مظهرنا كزوجين وأبوين أمام أطفالنا والجميع . وحين استقر رأيى على الاستقالة وممارسة العمل الحر ، لم تستطع أن تفهم أزمتى وتقدر لى ظروفى النفسية التى دفعتنى لهذه الاستقالة ، فلقد كنت قد عرفت أن طريقى شبه مسدود فى وظيفتى المرموقة وأنى سأحال إلى المعاش المبكر بعد عامين على الأكثر ففضلت أن أبدأ أنا بالاستقالة

وأستثمر مكافأتى الضخمة فى مشاركة صديق قديم لى فى مكتب لأعمال المقاولات والديكور وحاولت اقناعها بذلك بغير الإشارة إلى طريقى المسدود فأبت الاقتناع . وهاجت وماجت وهجرتنى لأول مرة إلى بيت أمها واضطررت أنا للمضى فى المشروع، وبعد ثلاثة أشهر استقرت أقدامى فى ميدانى الجديد ، وهنا فقط عادت زوجتى إلى عش الزوجية راضية وكان «مهر» عودتها هو هدية ماسيَّة ثمينة ومضاعفة المصروف الشهرى للبيت وعادت حياتنا لطبيعتها القديمة ومشاجراتها المعتادة ولحظات صفائها القليلة . وبعد ثلاث سنوات من بداية مشروعى باع لى صديقى نصيبه فى المكتب وهاجر بأسرته إلى كندا . وأصبحت صاحب شركة صغيرة للمقاولات والديكور وزاد إرهاق زوجتى لى بمطالبها المادية وبلا هدف سوى الاستيلاء منى على أقصى ما تستطيع الحصول عليه بدعوى تأمين مستقبل الأولاد بعيداً عن مغامرات التجارة وتقلباتها .

وذات صباح غادرت بيتى مكتئباً عقب نقاش حاد مع زوجتى حول مسألة تافهة أثارتها شكوكها الدائمة فى الجميع فتوجهت إلى مكتبى ومنه إلى الكلية الجامعية التى بدأت تنفيذ مشروع لترميمها وتجديدها منذ أسبوعين وراجعت جدول العمل ثم توجهت إلى الغرفة التى سنبدأ فيها العمل بعد قليل فالتقيت باستاذة تجلس فيها وعرَّفتها بنفسى وبغرضى من الزيارة فطلبت لى فنجاناً من القهوة وتبادلنا معاً أحاديث المجاملة ، وانصرفت من عندها متأثراً بلطفها وتعاونها ، وتكررت اللقاءات ،

وتعددت المناسبات التى جمعتنا ووجدت نفسى بغير إرادة أقارن بينها وبين زوجتى الصاخبة دائماً بالغضب أو الرضا.. وبين رجاحة عقل هذه السيدة ورزانتها وخفَّة زوجتى واندفاعاتها ، وبين جمال هذه الاستاذة الهادىء الذى يترك أثراً عميقاً فى النفس وصخب ألوان ماكياج زوجتى التى تتصور أنها به تأسرنى وتجذب نظرى إليها حتى لا أرى امرأة غيرها .. وحلمت بينى وبين نفسى بالارتباط بهذه السيدة التى أمضيت العمر باحثاً عنها وأخطأت الطريق إليها .. وتمنيتها لنفسى فبدأت أقترب منها بحذر .. محترساً من العيون التى ترقب وتحاصر ووجدت ترحيباً متردداً فواصلت الهجوم مدفوعاً بقوة اليأس حتى بلغنا معاً شاطىء الحب بعد ملاحة صعبة فى بحر المخاوف والمحاذير . وأصبح الاختيار الصعب قريب المنال فحزمت أمرى واستجمعت كل قواى وقررت الدفاع عن سعادتى وحلمى .. حتى النهاية .

حامد (٣)

أنا رجل فى الأربعين من عمرى ، نشأت فى أسرة بسيطة وتوفى أبى وأنا فى السادسة من عمرى فاستقرت فى ذهنى دائماً صورة أمى وهى ترتدى السواد وحزينة دائماً ، ورأيت أخى الذى يكبرنى بخمس سنوات يمارس معى دور رب الأسرة رغم صغر سنه ويقهر إرادتى دائماً ويعاقبنى بالضرب المبرح إذا خالفت إرادته ، فاستقر خوفى منه فى أعماقى وحاولت دائماً اكتساب مودته . وكان طريقى إلى ذلك هو الاجتهاد فى دراستى والترفع عن اللعب مع الصغار من أمثالى فنشأت منطوياً ومتباعداً عن

الرفاق . وواصلت دراستى بنجاح حتى حصلت على الثانوية العامة متفوقاً والتحقت بكلية عملية مرموقة على غير رغبتى لارضاء شقيقى الذى اختارها لى . ورغم كراهيتى لهذه الدراسة فقد اجتزت كل سنواتها بنجاح وتخرجت بتفوق وعينت معيداً بنفس الكلية ، وكثيراً ما ساءلت نفسى بعد ذلك كيف استطعت التفوق فى دراسة لا أحبها فلا أجد جواباً لذلك سوى أن نشأتى فى بيئة حزينة يسيطر عليها الخوف من المستقبل قد علمتنى أنه لا وقت للتوقف أمام ما نحب وما نكره وإنما علىَّ دائماً أن أفعل ما ينبغى أن أفعله ولو لم يتفق مع رغباتى .

وبعد أن تخرجت وعملت اكتشفت أنى طوال سنوات دراستى الجامعية لم ألفت نظر فتاة من زميلاتى ولم ألتفت إلى إحداهن فالحب أيضاً كان ترفاً لاتتحمله ظروفى . وبعد بداية عملى بثلاث سنوات رحلت أمى عن الحياة وتزوج أخى الأكبر فبدأت أحس بحاجتى إلى الرفيق وبدأت أبحث عنه بين طالبات الكلية واقتربت من أكثر من واحدة منهن محاولاً جس نبضها فلم ألق قبولاً ولا استجابة ، ونصحنى زميل لى بالاهتمام بمظهرى والتدرب على الحديث الرقيق مع الفتيات لأكسب قبولهن فاعتذرت عن النصيحة وآثرت أن أكون طبيعياً وصادقاً مع نفسى . ثم لاحظت إعجاب إحدى تلميذاتى بعلمى وطريقة شرحى فالتفت إليها وجدتها جميلة جمالاً هادئاً آسراً ..

وبدأت الاهتمام بها .. وبعد قليل وجدت نفسى غارقاً فى حبها عن بعد .. فتشجعت وفاتحتها برغبتى فى خطبتها وثملت بسعادة طاغية حين

رحبت . وتقدمت إليها وكافحت لكى أحقق لها كل أحلامها فى الزواج..
وبدأت حياتى الزوجية معها بلهفة المحروم من الحب والحنان .. وعشت
معها أجمل أيام عمرى .. وحرصت دائماً على إسعادها، أما هى .. فلم
أعرف رغم مرور السنوات هل أحبتنى كما أحبها أم لا . لقد عبرت عن
حبى لها بالاستجابة لكل ما تريده وبعدم مخالفتها فى شىء إلا نادراً
وبترك أمور حياتنا المنزلية والأسرية تتصرف فيها كيفما تشاء ، وحين
تحسنت ظروفى اشتريت سيارة لمست منها رغبتها فى امتلاكها فتركتها لها
تفعل بها ما تشاء، ولم أطلب منها سوى أن تقوم بتوصيلى إلى عملى
وإعادتى منه كلما سمحت ظروفها . وفى قرارات الحمل والإنجاب
وضعت دائماً رغبتها فى المحل الأول، وحين جاء الأبناء تركت لها أيضاً
كل ما يتعلق بحياتهم واحتياجاتهم من شئون حتى نوع المدرسة التى
يبدأون فيها دراستهم . وبالرغم من كل ذلك ظلت مشاعرها فاترة
وظللنا نعيش معاً فى هدوء ولكن بلا دفء عاطفى من جانبها، ورضيت
بذلك وقبلت منها ما سمحت به طبيعتها كامرأة وتركت للزمن سد
الثغرات القليلة الباقية ، وفسرّتُ ذلك بطبيعتها الرزينة التى تحول بينها
وبين التعبير عن مشاعرها . وسعدت بها وبأسرتى وبعملى وبعلاقاتى
المحدودة بمجتمع الزملاء والأصدقاء .. ثم أفقت فجأة على زلزال يرج
الأرض تحت أقدام أسرتى الصغيرة . لقد طلبت زوجتى الطلاق وأصرت
عليه بدعوى أنها لاتحبنى ولاتستطيع الاستمرار معى فى حياة زائفة
خالية من المشاعر! وذهلت وفقدت النطق .. الطلاق يا إلهى .. وماذا

عن الطفلين ومظهرى أمام الآخرين .. وهذا الخائن الصغير فى صدرى والذى يخلص لك الحب منذ عرفك ؟ لاجواب . وجن جنونى ، وأسرعت إلى أهلها وألقيت عليهم بالكارثة .. وعدت إليها وناقشتها طويلاً ، وعرضت عليها عروضاً كثيرة بلا جدوى ، واقترحت أن أترك البيت لفترة تعيد فيها التفكير فى حياتها ومستقبلها ومستقبل طفلينا البريئين وحملت حقيبة ملابسى وأقمت فى بيت شقيقى الذى لامنى على ما يعتبره ضعفا معها . ولم يكن ضعفاً تجاهها وحدها فى الحقيقة لكنه كان ضعفاً أشد تجاه الطفلين اللذين أفرغت فيهما كل حبى وحنانى . وبعد أسبوعين عدت للبيت وسألتها عن قرارها فأشاحت بوجهها ثم قالت لى بعد قليل إنها تنتظر منى أن أكون نبيلاً معها كما كنت منذ عرفتنى وأن أطلق سراحها . وأكدت لها أنى سأكون كما تتوقع منى وأكثر وسأنفذ لها رغبتها فى الطلاق آسفاً وحزيناً على مصير الطفلين . وبدأت أناقش معها التفاصيل وأستجيب لكل ما تطلب وحددنا موعداً بعد غد للذهاب معاً إلى مكتب المأذون لكنى تلقيت زيارة مفاجئة كان لها أثر كبير فى خطتى .

سنـــاء (٤)

أنا سيدة فى السادسة والثلاثين من عمرى . تفتحت عيناى للحياة فوجدتنى أعيش مع أمى وزوجها وأخت وأخ صغيرين ، وعرفت بعد قليل أن أبى قد تزوج هو الآخر بعد طلاقه لأمى وأنجب ولدين من زوجته الجديدة وأنه تركنى فى رعاية أمى ويدفع مقابل ذلك نفقة شهرية

مناسبة ، وبالرغم من أن زوج أمى كان رجلاً طيباً وعطوفاً إلا أنى رغم ذلك أدركت منذ الصغر أنى لست ابنة عادية كأختى وأخى ، وإنما أنا «مشكلة» يتحدث الآخرون عنها أمامى بلا أدنى مراعاة لإحساسى ، فالحديث فى مناسبات كثيرة مع أخوالى عن «البنت» ومسئوليتها من أبيها والنفقة التى يتأخر فى إرسالها أحياناً أو ينقص منها فى أحيان أخرى .

أما عند اقتراب الأعياد فيتحدث أخواى عن مطالبهما بحرية وإذا شاركتهما الحديث قالت لى أمى بضيق : اطلبى من أبيك المشغول بأبنائه وزوجته ! ويتكرر نفس الشىء عند دخول المدارس أو شراء ملابس الشتاء . وأتحدث إلى أبى كما تطلب منى أمى فيقول لى إنه يرسل لى ما يكفينى وزيادة، لكن أمى هى التى لاترحم ، فيستقر فى أعماقى الإحساس بعدم الأمان . ومع ذلك فلقد عشت حياة عادية إلى حد كبير ونشأت بينى وبين أخوى من أمى علاقة تعاطف طبيعية ، أما أخواى من أبى فلقد كانت مشاعرى تجاههما فاترة لبعدهما عنى وانشغالهما بحياتهما. وبعد أن التحقت بالجامعة تقرب منى كثير من زملائى فلم يتحرك قلبى لأحدهم وظلت مشاعرى بكراً تنتظر فارسها .. ولم يتأخر كثيراً ففى السنة النهائية خرجت من كليتى ذات يوم فرأيت شاباً وسيماً رشيقاً يزهو ببدلته الرسمية وقوامه الفارع ويقف على باب الكلية .. فلفت نظرى بشدة ونظرت إليه طويلاً ففوجئت به يبتسم لى ولم تمض أيام حتى كان قد تقدم منى وعرفنى بنفسه وعرفت أنه يأتى للكلية أحياناً ليصطحب أخته فى طريق العودة وعرفنى بها فأحببتها وغرقت فى حبه بلا تردد

ورفضت تصديق وشايات بعض الزميلات عنه وهمساتهم أنه معجب بنفسه وله علاقات كثيرة، وصارحته بما سمعت وطالبته بحسم الشائعات فتقدم لخطبتى وطرت فرحاً به وبعد تخرجى تزوجنا وشهدت حياتى أول محنة عنيفة حين ضبطته يغازل جارتى الحسناء بعد زواجنا بشهرين وثرت عليه ثورة هائلة ، وقاطعته عدة أيام لم يدع خلالها وسيلة لاسترضائى وإقناعى «بكذب» ما شاهدت إلا واستخدمها . وانتصر ضعفى تجاهه فى النهاية وسامحته ، لكنى أصبحت بعدها كثيرة الشكوك فيه والتربص لأى محاولة من جانبه للخيانة . وأنجبت منه ولداً وبنتاً ورغم حرصى على إرضائه واهتمامى به وببيتى وبأطفالى فلقد طعننى فى قلبى بنفس الطريقة عدة مرات ، فهو وسيم ولبق وخفيف الروح وكثير الكذب ولايقاوم أية فرصة يستطيع اختلاسها مع أى امرأة تسنح له ، وكلما شككت فى تصرفاته وواجهته بشكوكى وانفجرت فيه .. بكى وأقسم ببراءته وراح يسترضينى .. فأرضى بعد قليل وأنا واثقة من كذبه . وبعد سنوات من زواجنا بدأت أسلم بمصيرى وأعرف أنى قد أحببت رجلاً ضعيفاً أمام النساء ولاحيلة لى معه سوى أن أهب للدفاع عن بيتى كلما استدرجته قدماه إلى هاوية جديدة . وتعلمت أن أستشعر مقدمات الخطر عن بُعد وأحكم حصارى حوله كلما بدت عليه الأعراض المألوفة. ومن كثرة تجاربى معه أصبحت شديدة العصبية وكثيرة التجرؤ عليه وجرح مشاعره . كلما لمست له ضعفاً جديداً ، وظل هو كعادته يكذب ويبكى .. ويسترضى ! ثم فاجأنى ذات يوم برغبته فى الاستقالة من عمله

الحكومى ومنصبه المرموق ليبدأ عملاً حراً . وتوجست خيفة من هذه الرغبة وقاومتها بكل إصرار . ففضلاً عن الأمان الذى تمثله لنا الوظيفة فلقد خشيت أن يكون وراء مشروعه الجديد «امرأة فى الظل» خاصة وأنه أراد أن يشارك صديقاً له يعيش مع أخته المطلقة . ورفضت بإصرار لكنه مضى فى طريقه بلا اهتمام وهجرته لأول مرة إلى بيت أمى عسى أن يرجع عن غيه ، فلم يأبه لى . ومضت ثلاثة أشهر وأنا فى بيت أمى وهو يتردد علىَّ من حين إلى آخر ويحاول إقناعى بالعودة وأنا أطالبه بالرجوع فى الاستقالة . ثم جاءنى ذات يوم متهللاً يقدم لى هدية ماسية ويزف إلى خبر نجاحه فى أول عملية قام بها وربح منها ربحاً مجزياً ويبشرنى بأن حياتنا معاً ستكون رغداً وسيضاعف مصروف البيت ولم أتوقف عند ذلك لكنى كنت قد ضعفت أنا أيضاً من الفراق ، وبعد عودتى بأسابيع عرفت الحقيقة وهو أن مشروعه مازال متعثراً وأنه اقترض ثمن الهدية من شريكه فى المكتب وأنه قد كذب علىَّ فى كل ما قال كعادته ، وفى هدوء بعت الهدية الماسية وسددت ثمنها لصديق زوجى . وعرف زوجى فجاء منكسر الرأس وقبلنى ثم انطلق يتحدث عن المستقبل السعيد الذى ينتظرنا! وتحققت بعض أحلامه بعد ثلاث سنوات فامتلك المكتب وحده وراح ينفذ عمليات صغيرة لاتكاد تأتى بأكثر من تكلفتها إلا بالقليل ، وحمدت الله أن مرتبى من عملى ومعاشه من وظيفته يحققان لنا بعض الأمان . ثم عادت الأعراض القديمة فى الظهور فرجع للاهتمام بمظهره وبالوقوف ساعة كل يوم أمام المرآة قبل الخروج، واستشعرت

الخطر ، وتحريت أخباره فعرفت أنه قد نسج أحابيله حول أستاذة مساعدة بكلية ينفذ فيها عملاً وأنه يبدو أمامها بالصورة التى يدعيها لنفسه ، صورة العاشق الرومانسى الذى ينطق بالشعر ويتكلم بالهمس ويحب الموسيقى والرسم والألوان ! ثم توالت عليَّ الأنباء كالصواعق فعرفت أنه قد أوهم الأستاذة بأنها المرأة التى أرادها لنفسه طوال عمره وأنه أحبها من الوهلة الأولى ويريدها زوجة له بعد أن ضاق بالحياة المزيفة مع زوجته الشرسة! . والأدهى من ذلك أن الأستاذة قد وجدت فيه الرجل الذى أرادته منذ نعومة أظافرها فطلبت الطلاق من زوجها فرفض زوجها وقاوم ثم بدأت مقاومته تضعف . وفقدت آخر ما تبقى لى من اتزانى وعقلى وواجهته فأنكر ثم راوغ .. وسمعت أنه يعد مكتبه ليكون عشاً مؤقتاً للزوجية إلى جانب عمله فطار عقلى وقررت الحرب على كل الجبهات . وبدأت بالأستاذة المخدوعة وقابلتها ورويت لها قصتى معه كاملة وطالبتها بألا تظلم زوجها وأطفالها بوهم هذا الحب لأن زوجى كالزئبق لا يستقر به حال . وسمعتنى ببرود ولم تبد تجاوباً معى، ففقدت أعصابى وأسمعتها كلاماً جارحاً ولَّت هاربة حتى لا تسمعه .

وقابلت زوجها ورويت له كل ما عرفت ورويت له الكثير عن زوجى وطالبته بالصمود وعدم الاستسلام إنقاذاً لزوجته من براثن زوجى وإنقاذاً لأطفاله .. وأطفالى معاً .. فتشجع بما قلت وعدل عن الموافقة على الطلاق .

وعرف زوجى بما فعلت فعاد للبيت ثائراً وبادلته ثورة بثورة وسباباً

بسباب واشتعلت نار الغضب فى عش الزوجية الذى لم يعرف يوماً الاستقرار وأعلن أنه سيهجر البيت ويقيم فى مكتبه ، فألقيت له بحقيبة ملابسه على السلالم قبل أن يتم كلامه . واعتصم زوجى بمكتبه وانتظرت أن تعبر السحابة سماءنا كما عبرتها غيرها من قبل ويعود ليسترضينى ويطلب السماح كما فعل مراراً ، لكنه لم يفعل هذه المرة . واضطررت للتنازل عن كبريائى واتصلت به ودعوته للعودة بعد أن فشلت مخططاته ورفض زوجها طلاقها فأبى الرجوع إلىّ وتعلّق أملى بأن يهدأ غضبه بعد حين ويستيقظ حبى الكامن فى قلبه وكما كان يستيقظ فى أعقاب النكسات المماثلة .. لكن المحنة طالت بشكل لم أعهده هذه المرة . ثم فجأة طرق بابى شخص يحمل لى ورقة طلاقى منه ، وانهرت على الأرض ورقدت مريضة فى فراشى عدة أيام لم يرق لحالى خلالها ولم يزرنى .. ومازالت محنتى مستمرة منذ شهور .. فماذا جنيت حتى أفقد زوجى ويُحرم أطفالى من أبيهم وتتحطم أسرتى بهذه الطريقة الغادرة ؟ ولمن الطلاق يا ربى .. و«الأخرى» التى طلبته لم تحصل عليه وأنا التى لم ترده عوقبت به ؟ وأين العدل فى هذه الدنيا ؟ وهل تكون هذه هى النهاية حقاً .. أم ستهدأ العاصفة بعد حين وتعود السفينة إلى مرفئها القديم لأن كلاً منا لا يصلح إلا للآخر بعيوبه وجنونه وحماقاته ؟ إن صديقاتى جميعاً يؤكدن لى ذلك لكنه لم يعد حتى الآن .. فمتى يعود ؟

ضحيت غرامى

** تلح على هذه الفكرة منذ فترة طويلة وأتذكرها كلما زارتنى فتاة أو شاب وروى لى قصته .. إنها نفس القصة القديمة الجديدة إلتى رأيناها مراراً فى الأفلام القديمة ، عن شاب وفتاة يتحابان ويتعاهدان على الزواج ، لكن الشاب فقير وعاجز عن توفير الإمكانات اللازمة بسرعة للزواج ، وأسرة الفتاة مثقلة بالأعباء ولاتستطيع مساعدة ابنتها فى إعداد الجهاز ، وهى لم تعترض على خطبة فتاتها لحبيبها الشاب البسيط ، لكنها فى أعماقها تتمنى لو كان قد جاءها عريس جاهز يرفع عنهم عبء زواجها .. ويأخذها .. بحقيبة ملابسها القليلة .. أو حتى بدونها .. وتطول فترة الخطبة .. ولم ينجح بعد الخطيب فى حل مشكلة الشقة ، ولا لاح له أمل ، ثم يظهر فى الأفق هذا العريس الجاهز الذى يقيم فى شقة فاخرة ويركب السيارة ، ويستطيع حل مشكلتها المادية ويحقق طموحها فى حياة جميلة بسهولة .. فالشبكة جاهزة .. والمهر مقدم .. والشقة لاينقصها إلا العروسة والدخل وفير والحمد لله .. وفستان الزفاف وفساتين أخرى تملأ المحال ، فى انتظارك فقط قولى موافقة وسوف تحل كل المشاكل على الفور .

وتسمع الفتاة كل ذلك مستهزئة فى البداية .. وترفض مناقشة الموضوع وقد ترويه لحبيبها ضاحكة فيزداد إكباراً لها .. وخوفاً عليها ، ويزداد شعوره القاتل «بالدونيّة» .. والعجز المميت عن إسعاد فتاته ، وتساوره فكرة أن يضحى بسعادته الشخصية من أجل سعادتها .. ويصارحها بعد معاناة شديدة بأنه لايريد أن يظلمها معه ويرشحها لحياة الحرمان التى يحياها والتى عانت منها طويلاً ولايعدها الزواج به إلا باستمرارها لأجل غير محدد ويطلب منها أن تقبل العريس الجاهز وتنساه.. فتصرخ فيه وتبكى وتتهمه بأنه لايحبها .. ويبكى هو ويذرف الدمع على يديها وهو يقسم لها بأنه لم يحب ولن يحب أحداً سواها .. لكنه لايريد شقاءها فتنهره وتطلب منه ألا يعود للحديث فى هذا الموضوع فيسعد بها ويقبل يديها .. ويطلب عفوها والسماح ويواصل رحلة الألف ميل لتوفير الإمكانات المطلوبة .. وتواصل هى كفاحها لادخار القليل الذى تسمح به ظروفها وهى تحس بتأنيب الضمير لأنها تؤثر نفسها بهذا القليل بدلاً من أن تساهم به فى تخفيف جفاف الحياة الذى يحيط بأسرتها، وتمضى الأيام .. ويطول الانتظار وتزداد انتقادات أمها وأبيها لخطيبها الخائب الذى لم يستطع بعد كل هذا الانتظار أن يوفر الشقة .. أو يدفع المهر .. ولا يقدم لها هدايا ذهبية .. ولا يعدها إلا بالفقر والمعاناة.. ثم أين هو من فلان الذى لو قبلته لكانت الآن زوجة مكرمة تقضى الصيف على شاطىء البحر .. وتمضى أجازة نصف السنة فى أسوان أو الغردقة وترتدى الملابس الأنيقة .. لا هذا الفستان الذى

تتبادله مع آخر يتيم منذ عامين .. ولكانت الأسرة قد تخففت من أعباء كثيرة .. وماذا يعيب فلان أكبر منك بخمس عشرة سنة وماذا فى ذلك.. لاتحبينه ؟ وماذا قدم لك الحب ؟ ثم إن الحب يأتى بعد الزواج .. أنت طبيبة أو مدرسة أو محاسبة أو مهندسة أو أخصائية اجتماعية وهو لم يستكمل تعليمه ؟ وماذا أفاد المؤهل الجامعى خطيبك «الفالح»؟

فيبدأ رأس الفتاة يدور .. ويزداد ضيقها بجفاف الحياة من حولها وتبدأ أحلام الحياة المريحة بلا عناء ولا كفاح تراودها . ثم تضعف مناعتها الرومانسية تدريجياً .. وتبدأ فى الاستجابة لنداء «العقل» والتفكير «بحكمة» فى المستقبل وتقرر بعد معاناة قصيرة أو طويلة أن تتزوج ممن يحقق لها طموحها المادى وكعادتنا نحن البشر فلابد من أن نبحث دائماً عن مبرر يسبغ على تصرفاتنا رداء التضحية .. ذلك أنه من آفات النفس البشرية أن تحاول دائماً إضفاء صفة الشهادة عليها لتبرر بها تطلعاتها الشخصية .. وهكذا تقنع الفتاة نفسها أنها إنما تضحى بسعادتها الشخصية من أجل أسرتها حتى تخفف عنها عناء حياتها ، وتصمُّ أذنيها عن توسلات حبيبها ودموعه لها لكيلا تقتل حب العمر على مذبح الشقة المريحة والسيارة ودعوى الشهادة والتضحية لكنها تكون قد اتخذت قرارها وتمضى فى الطريق إلى نهايته .. ويصدم الفتى فى حبه صدمة العمر .. وتهتز قيمه ومثالياته ويختنق بالإحساس بالقهر والعجز ..

ثم تدور الأيام دورتها .. وتكتشف الفتاة بعد سنوات من الزواج أن الحب الذى انتظرت أن تولد شراراته بالمعاشرة مع زوجها لم يولد وأنها

شقيت فى حياتها الخاصة .. ولم يستفد «بتضحيتها» المزعومة أحد ، فلا أسرتها استفادت شيئاً من زواجها الذى بلا حب .. ولاهى وجدت فى حياتها المريحة ما عوضها عن افتقاد الحب .. ولا مفر من الطلاق والعودة الخائبة إلى نقطة البداية بعد إنجاب طفل أو طفلين ..

ومن عجب أنها حين تصل إلى هذا النقطة الدرامية فإنها لا تلوم نفسها على ما جنت على نفسها وحبيبها الأول ، بقدر ما تلوم أسرتها وأباها وأمها على وجه التحديد لأنهما ضغطا عليها ودفعاها لهذا الزواج الذى لم تسعد فيه يوماً واحداً ، ويتحول لومها الداخلى إلى ضيق شديد بأسرتها .. وربما يتنامى إلى أن يتحول إلى كراهية وحقد غير مبررين ولا مقبولين ..

أما قمة المأساة فهى حين تعرف الفتاة وهى فى قمة تعاستها الزوجية أو بعد طلاقها أن خطيبها الأول الذى يئست من قدرته على أن يوفر لها الحياة الكريمة ، قد استطاع بعد سنوات قليلة أن يصنع نجاحه ، ويحل مشاكله ثم تلفت حوله ليبحث عن شريكة لرحلة الحياة فتزوج ممن سعدت به واعتبرته هدية السماء لها .. وعاش هو معها حياة هادئة وإن كانت خالية من لذعة الحب القديم ..

لقد عالجت هذه القصة القديمة الجديدة ، فى تمثيلية سهرة تليفزيونية سميتُها «شىء من الرومانسية» وقلت فيها : إننا نحتاج إلى جرعة مناسبة من الرومانسية نحتمى بها وتمنعنا من أن نقتل الحب باسم الواقعية والتفكير الواقعى إلى آخر هذه التعبيرات التى نبرر بها أحياناً

جرائمنا فى حق الحب والمنطق والوفاء ، فالرومانسية هى الخيال ، ونحن نحتاج إلى شىء من الخيال نتجاوز به واقعنا الضيق ونستشرف به آفاق المستقبل ونعرف أن كفاحنا لن يطول قبل أن يحقق أهدافه .. وبالتالى فإن ما نسميه نحن تفكيراً واقعياً ليس سوى قصر فى النظر .. وتعجل للأهداف .. وجرى وراء الطموح المادى بلا اعتبار للعاطفة ولا للمشاعر الإنسانية والقيم الصحيحة ..

وليس هذا القصور فى التفكير مقصوراً على المرأة وحدها فالشباب أيضاً قد يقعون فى نفس هذه الخطيئة ..

وكثير من الرجال تنطبق عليهم العبارة المريرة التى تقول إن فى حياة كل رجل امرأتين: واحدة ندم على أنه لم يتزوجها .. وأخرى ندم أكثر على أنه تزوجها ! وكذلك كثيرات من النساء فى حياة كل منهن رجلان .. واحد ندمت لأنها تركته .. وآخر مازالت تعض بنان الندم على أنها فضلته على الآخر واختارته ..

ومن أجمل ما قرأت تصويراً لزيف دعوى التضحية من أجل الأسرة التى تبرر بها بعض الفتيات خيانة العهد مع الحبيب المكافح قصة الكاتب الروسى العبقرى أنطون تشيكوف «قلادة أنَّا» .. إنها تروى حكاية زواج فتاة بريئة عمرها ثمانية عشر عاماً من ثرى متعجرف فظ الطباع فى الثانية والخمسين من عمره بدعوى إنقاذ أسرتها من الفقر ، فكانت النتيجة أن انجرفت الفتاة إلى الحياة اللاهية العابثة التى انتقلت إليها .. وانتهت القصة بانحرافها الخلقى وفقدانها حتى لعطفها القديم

على أسرتها، والذى بررت قبولها لهذا الزوج به ، فأصبحت تحتقر أسرتها فى أعماقها وازدادت فجوراً .. وازدادت أسرتها انهياراً ومعاناة !

ومنذ سنوات نشرت فى بريد الجمعة بالأهرام قصة طبيب شاب خانت حبيبته وهى طبيبة مثله عهده بعد ست سنوات من الحب وزمالة الكلية وتزوجت من منافسه الذى لم يحصل على الثانوية العامة لأن أباه مقاول ثرى ويستطيع أن يحقق لها على الفور كل أحلامها فى العيادة المجهزة .. والشقة الكاملة والسيارة ، فانهار الشاب وتحول عن ممارسة الطب الذى لا يسعفه لتحقيق أحلام الثراء إلى ممارسة مقاولات المبانى مع مقاول آخر تعاطف معه ..

ورددت عليه وقتها بما رأيته مناسباً ونصحته باستعادة نفسه والعودة لمهنته الأصلية وقلت له فيما قلت : من باعنا فقد خسرنا بنفس القدر الذى خسرناه به وربما أثبتت له الأيام خلال وقت قصير أن خسارته فينا كانت أكبر وأعظم ..

ونسيت رسالة هذا الشاب فيما نسيت.. ثم تلقيت منذ فترة قصيرة رسالة من الطبيبة الشابة بدأتها بقولها : أنا خائنة العهد التى قتلت حبها جرياً وراء طموحها فى العيادة والشقة والسيارة ، والتى توعدتها أنت فى تعليقك على رسالة حبيبها المصدوم فى حبيبة عمره بأن الأيام سوف تنبئها بأنها قد أجرمت فى حق نفسها قبل أن تجرم فى حقك وحق الوفاء وكل القيم الإنسانية النبيلة وإنى أكتب لك لأقول لك : إن ما توعدتنى به قد صدق ..

ثم روت لى عن معاناتها مع زوجها الذى اختارته وكيف انتهت حياتها معه بالطلاق بعدخمس سنوات مريرة ، والأهم من كل ذلك هو أنها تحمل أباها وأمها مسئولية شقائها لأنهما أغرياها بهذا الزواج وشجعاها عليه وسعدا به حتى إنها تستغفر ربها كثيراً حين تحس فى بعض الأوقات بأنها تكرههما ..

مع أنها الجانية على نفسها قبل أى أحد آخر ومع أن أبويها لم يرغماها على هذا الزواج لكنهما فقط سعدا به ورحبا باستماعها إلى صوت «العقل» ونبذها لترّهات الحب والقلب والرومانسية وهذا «الكلام» الذى لا يشترى شقة ولا يفتح عيادة ! فهل يختلف إحساسها البغيض هذا عن إحساس.. «أنّا» بطلة قصة تشيكوف فى شىء! ..

وهل يلومنى أحد إذا صرخت فى وجه كل فتاة أو شاب يستشيرنى فى موقف مماثل للاختيار بين الحب والصبر والكفاح لتحقيق الأحلام .. وبين اختصار الطريق وزواج المصلحة بلا حب ، ولا أمل فيه فقلت له ولها ولكل فتاة وشاب : لاتقتلوا حبكم خشية إملاق ، الله يرزقكم وإياه .

نعم هل يلومنى أحد إذا فعلت ذلك وإذا كرهت كل من يحاول تبريرخيانته للعهد والحب بأنه إنما كان «تضحية كبرى » من أجل الأسرة.. وليس من أجل الطموح المادى .. ومتاع الدنيا .. وهو قليل مهما كثر؟..



فن نسيان الشقاء !

** يسألني بعض القراء من حين لآخر عن أفضل «وسيلة» ينسون بها أحزانهم الخاصة ، وأسباب شقائهم . فأكاد أجيبهم على الفور : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» لكنى أشفق دائماً على من يتلهف إلى كلمة تُخفف عنه بعض أحزانه وأجهد ذهنى فى التفكير معه فلا أجد فى النهاية روشتة سحرية لنسيان الأحزان والهموم لكنى أجد فقط بعض الأفكار والتجارب التى يمكن أن يسترشد بها المهموم فى محاولة التغلب على همومه .

فقد سئل الكاتب الإيرلندى العظيم جورج برناردشو سؤالاً مماثلاً ففكر طويلاً فيه ثم قال : إن سر الإحساس بالتعاسة هو أن يتوافر لديك الوقت لتتساءل هل أنت شقى أم سعيد ؟

أى أن الساخر العظيم يُطالبنا بأن نشغل حياتنا دائماً باهتمامات جادة ومثيرة ، لا تتيح لنا فرصة التوقف ، لكى نفكر هل نحن سعداء فى حياتنا أم تعساء . ومن رأيه أننا إذا وجدنا الوقت لهذا التساؤل فسوف تكون النتيجة المؤكدة .. هى التعاسة .

وفى معهد شهير للعلاقات الإنسانية فى أمريكا احترف المؤلف

الأمريكى كارنيجى مساعدة الناس على التغلب على القلق والأحزان والهموم وصاغ منهجه الدراسى فى روشتة محددة هى : انشغل وابق منشغلاً دائماً .. لا تحزن على ما فات .. لا تبالغ فى الخوف والاهتمام بما سيأتى .. ويؤكد منهجه هذا قائلاً : إن من مبادىء علم الطبيعة .. أن الطبيعة ضد الفراغ وأنك لو ثقبت مصباحاً كهربائياً مفرغاً من الهواء .. فإن الهواء يتسلل إليه على الفور ويملأ كل فراغه ، وكذلك العقل فهو إذا خلا مما يشغله تسللت إليه الهموم وتمكنت منه .

لهذا فإن أول ما أنصح به المهموم دائماً هو أن يتشاغل عن همه بالاستغراق فى العمل وفى ممارسة نشاط يتطلب تركيزاً وابتكاراً ، يملآن «فراغ» ذهنه فلا يتسع لغير ما يهتم بأدائه فى هذه اللحظة .. فالذهن البشرى مهما كان عبقرياً لايستطيع أن ينشغل بأمرين فى وقت واحد ، وإذا استغرق فى أداء شىء نال أجازة قصيرة من همومه .. وإذا تكررت الأجازات وتلاحقت نجا إلى حد كبير من مصيدة اجترار الأحزان .. وساعد الزمن على أن يلعب دوره الخالد فى التئام الجروح .. وتحويلها إلى ندوب لا تؤلم كما يؤلم الجرح الحى ولا تعوق الإنسان عن التواصل مع الحياة .

وفى كتاب اسمه «فن نسيان الشقاء» للمؤلف الأمريكى جون كوبر بويز يؤكد المؤلف أنه عندما يستغرق الإنسان فى العمل يتسلل إليه الإحساس بالاطمئنان والسلام النفسى .. وينسى مؤقتاً أحزانه .. ويخمد لهيبها بعد حين

لهذا فإن العاملين المشغولين دائماً بأعمالهم أقدر على نسيان الهموم ممن يفترسهم الفراغ أو يجدون أوقاتاً طويلة للتفكير فيما يشغلهم ومعايشته ليل نهار .

والذين يعايشون الوحدة والفراغ هم أكثر الناس استجابة للآثار النفسية والصحية الضارة للخوف والقلق والهموم .

ولهذا السبب ينصحنا عالم النفس بول كوستا دائماً بنسيان التجارب الأليمة بأسرع ما نستطيع .. وبالثقة بالله وبالنفس .. وبالمشاركة فى النشاطات الاجتماعية .. كأفضل روشتة ممكنة للتغلب على الأحزان .. وينصحنا طبيب أمريكى آخر بأن نثق بالله دائماً .. وأن ننام وقتاً كافياً .. وأن نستمتع بالموسيقى .. وأن ننظر إلى الجانب المبهج دائماً من الحياة .

والذين لايفتقدون الحب ودفء المشاعر العاطفية فى حياتهم .. يستمدون من حبهم للطرف الآخر .. ومن حب الطرف الآخر لهم وتعاطفه معهم قوة إضافية لمقاومة الهموم والتغلب على الأحزان .. والمأساة الحقيقية هى مأساة المهموم الذى لا يحب أحداً ولايحبه أحد .. ويقف منفرداً يصارع أحزانه بلا عزاء يشغله عنها أو يخفف من لهيبها .

فالزوجان المحبان اللذان تمتحنهما الأقدار مثلاً بمحنة الثكل .. يتخففان من بعض أحزانهما ويتساندان فى مواجهة الألم بحب كل منهما للآخر .. وبرغبة كل منهما فى التخفيف عن الآخر والتهوين عليه . وفى أقسى لحظات الألم يجد المحب جزءاً من ذهنه منصرفاً إلى التفكير فيمن

يحب ربما من باب التعويض أو الرغبة اللاإرادية فى التماس السلوى لديه.

وفى أوبرا عايدة تُغنى الأميرة الفرعونية أمنيريس للأميرة الحبشية الأسيرة عايدة : الزمن كفيل بمداواة الجراح .. لكن الحب أكثر قدرة على ذلك !

وفى كتابه الرقيق «رسائل الأحزان» يقول مصطفى صادق الرافعى : ما من أحد فى الأرض يستقيم طبعه على الجمع بين هم الحب .. وهم الحياة، ذلك أن الله لم يخلق فيما أعرف فكراً يتمكن من الإنسان كما يفعل الحب !

ورغم المبالغة فى ذلك .. فلا شك فى أن إحساس الحب يرطب من لهيب الأحزان ويخفف منها .. ومن قبيل الحب ما يحسه المهموم من تعاطف الآخرين معه واهتمامهم بأمره ومحاولتهم التسرية عنه ، ومن قبيله أيضاً ما تؤديه الصداقة المخلصة فى حياة الإنسان من مواساة له فى همومه.

لهذا تشتد حاجة الإنسان إلى أن يشعر بمشاركة الآخرين له حين يكون مهموماً بأمره .. ويفترس الألم بلا رحمة وبلا مقاومة الإنسان الوحيد الذى لا يشاركه أحد همومه .. ولا يخفف عنه أحد ولا يجد فى قلبه شعاعاً من الحب لأحد . وحين فقد الملياردير اليونانى أوناسيس ابنه الوحيد ألكسندر فى حادث طائرة انكسر قلبه إلى الأبد وارتخت عضلات عينه اليمنى وفشل أطباء العالم فى رفع جفنها وإعادته إلى وضعه الطبيعى ،

وقيل وقتها إنه تمتع بكل شيء فى الحياة من الثروة والشهرة والنفوذ قبل وبعد مصرع ابنه ما عدا شيئاً واحداً فقط .. هو السعادة !.

وقيل أيضاً إن من أسباب فشله فى اجتياز المحنة أو تخفيف الآثار الصحية عليه أنه لم يجد إلى جواره قلباً محباً بإخلاص يخفف عنه لوعته .. فقد هجر مطربة الأوبرا التى أحبته بجنون ماريا كالاس .. ليتزوج الشهرة والنفوذ فى شخص أرملة كيندى فكان زواجه منها صفقة قانونية أعدَّ عقودها محاموه ومحاموها .. ونص العقد المكتوب بينهما والمسجل فى المحاكم .. ألا تمنحه جاكلين كيندى طفلاً مع شدة لهفته على أن ينجب وريثاً لامبراطوريته المالية التى قيل إن جردها يتطلب عامين كاملين ، وألا تضمهما معاً غرفة نوم واحدة .. وأن تنال تعويضاً بالملايين فى حالة طلاقه لها .. وأن تلتزم جاكلين بقضاء أجازة صيف معه مدتها شهران كل سنة ! .

فلم تطل عشرته لها كثيراً ومات بعد زواجه منها بعدة سنوات وقبل أن يموت كان قد فقد إلى حد كبير اهتمامه بها وبكل شيء فى الحياة .. إلى حد أنه حين اتصل به مصور صحفى نجح فى أن يلتقط خلسة لجاكلين فى جزيرة أوناسيس اليونانية فيلماً كاملاً لها وهى عارية تماماً .. وحاول أن يساومه على دفع مبلغ من المال مقابل شراء الفيلم ومنع نشر صورها العارية ، جاءه رد أوناسيس على لسان معاونيه : اذهب إلى الجحيم .. وافعل ما تشاء ! فنشر المصور صورها العارية فى المجلات الأمريكية .. ولم يحفل الملياردير اليونانى بذلك !.

وعلى العكس من هذه الصورة تجد كل قلبين جمع بينهما الحب والتعاطف فساعد كل منهما الآخر على احتمال أحزان الحياة وهمومها وهونها عليه .. وعوضه عنها بدفء مشاعره ورعايته له .. ومن وسائل مقاومة الأحزان أيضاً عند بعض علماء النفس أن يدير المرء حواراً منطقياً عاقلاً مع نفسه يحاول خلاله إقناعها بأن الموقف الصعب الذى تواجهه الآن سوف ينتهى بشكل أو بآخر مهما طال .. ومهما كان قاسياً وبأنه سوف يكون بعد فترة طالت أم قصرت مجرد ذكرى غير سعيدة تنضم إلى باقى الذكريات .. وأنه من الصعب دائماً أن تخلو أية حياة من مكدرات ولابد من قبول بعض جوانبها مؤقتاً .. إلى أن تنتصر داخلنا إرادة الحياة وتهزم الهموم والمخاوف .. مع ضرورة أن نتذكر دائماً أن الخوف أسوأ مما نخاف منه وأكثر تدميراً لحياتنا وسعادتنا .. فإذا كنا قد خسرنا فى معركة الحياة بعض الخسائر .. فليس من العدل مع أنفسنا أن نضاعف خسائرنا بأن نحزن حتى المرض على ما خسرناه ..

والحياة دائماً هزائم وانتصارات .. وأوقات سعيدة .. وأوقات تعيسة .. وكما تقبلنا سعادتنا بابتهاج علينا أن نتقبل أيضاً أوقات الشقاء بصبر وثبات وأمل لايغيب فى رحمة الله .

وفى حياة كل منا لحظات ومواقف بكينا أمامها ثم لم نلبث أن تكشفت لنا نتائجها الخيرة بعد حين فسعدنا بها وتعجبنا من أنفسنا حين ضقنا بمقدماتها غير المريحة .

وهذا هو ما يسميه بعض العارفين بالله .. «بالألطاف الخفية» ، انها

ذلك التدبير الإلهى الذى قد يأتينا أحياناً بما نكره ليحقق لنا فيها بعد أجمل ما نُحب .. ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ ـ ١٩ النساء ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ ـ آية ٢١٦ البقرة ..

نعم .. نعم الله يعلم .. ونحن لانعلم .. ولانتعلم .. ولانصبر على ما يصيبنا ، ولانرضى بما بين أيدينا .. ونثبت أنظارنا غالباً على ما فقدنا ومالم ننله بعد ونشكوا بغيرُ داء .. ثم نتحسر على أيامنا اللاهية الخالية التى أفسدناها بالأنين حين تمتحننا الحياة بآلامها الحقيقية ، ونعرف بعد فوات الأوان أننا كنا سعداء حين ضاقت صدورنا بالتوافه ، فنتحسر على ما فات .. ونبدأ بالسؤال .. كيف ننسى الأحزان ونبحث عن السلوى والعلاج فى المهدئات والمغيبات وعيادات أطباء القلب والمعدة والأعصاب والروماتيزم والنفس ، وروشتات علاج القلق والاكتئاب ونصائح الخبراء التى تنصحنا بتقبل مالا نملك تغييره .. وتقبل ما حدث فى الماضى سواء تعلق بأخطائنا نحن أو أخطاء الآخرين فى حقنا .. وبالتعايش مع آراء الآخرين فينا وإن آلمتنا لأنها لا تحكمنا فى شىء وإنما تحكم أصحابها ولا نملك تغييرها إلا إذا أرادوا هم ذلك .. وبتقبل خصائصنا الجسمية والنفسية التى ورثناها عبر قوانين الوراثة ولا نملك من أمرها شيئاً .. وأن نتقبل حتميات المجتمع من حولنا وقوانينه .. وحتميات كل مرحلة من مراحل العمر نعيشها لأننا لانستطيع أن نغير من أعمارنا ولا أن نرتد إلى الصبا أو الشباب أو نعيد شريط العمر إلى

الوراء .. وأن نتقبل الأحزان العائلية والآلام المفاجئة لأنها الجانب الآخر من الحياة الذى لا مفر منه ولا مهرب .

وأن نستعين على كل ذلك بالصبر والإيمان والعمل والحب والصداقة والتفاؤل الأبدى ..

امرأة بلا أهمية !

** يا إلهى .. كيف يكون إحساس الإنسان رجلاً كان أو امرأة .. حين يصبح زواجه الفاشل وأدق شئونه الخاصة قضية يومية للمناقشة على صفحات الصحف .. وفى نشرات أخبار التليفزيون وفى برامجه ؟ ليس فقط فى صحافة بلده وتليفزيونها .. وإنما فى معظم إن لم يكن كل صحف العالم ، وليس لمدة يوم أو يومين ؟ لا بل لأيام عديدة متتالية يصحو فيها من نومه فيجد صورته وصورة زوجته تتصدران الصحف اليومية ويجد أخص شئونه الخاصة مطروحة أمام ملايين القراء والمشاهدين .. فإذا نحّى الصحف عنه غاضباً وضغط زرار التليفزيون ، شاهد صورته أو صورتها وسمع نفس الكلام ونفس التعليقات ، فإذا ضغط الزرار مرة أخرى لينتقل إلى محطة عالمية أخرى غير محطات بلاده عن طريق القمر الصناعى ، فوجىء بأخباره فى صدر نشراتها الإخبارية وبنفس الطريقة ؟

ماذا يفعل مثل هذا الرجل أو مثل هذه المرأة ؟

لقد تساءلت هذا السؤال خلال وجودى فى لندن فى الفترة الأخيرة

حين ظللت لأسبوعين أشترى الصحف الصباحية كل يوم فأجد أخبار الأميرة البريطانية ديانا وزوجها الأمير تشارلز تحتل صفحاتها الأولى بمناسبة ظهور كتابين عن حياتها الشخصية: الأول بعنوان «ديانا.. وزواجها المضطرب» كتبه نيكولاس ديفوس محرر الشئون الخارجية السابق بصحفية «ديلى ميرور» والثانى بقلم آندرو مورتون وعنوانه «ديانا.. قصتها الحقيقية» ثم أقلب صفحات الصحف فأجد فصولاً كاملة من الكتابين تروى كل شىء عن زواج ديانا وتشارلز وتصفه بأنه زواج بلا حب وتحكى أن ديانا الأميرة ذات الابتسامة الخجول والطبيعة الساحرة تعيش حياة بلا حب مع زوجها وأنها عانت من ذلك كثيراً حتى أنها أقدمت على محاول الانتحار خمس مرات خلال السنوات الأخيرة .

ومع أنه ما أكثر التعاسة الزوجية فى كل مكان .. إلا أن الصحف والمجتمعات الغربية لاتتصور سبباً عاقلاً واحداً لاستمرار أى علاقة زوجية سوى الحب! ولاتفهم منطقنا هنا فى تقديم مصلحة الأبناء على مصلحة الأزواج ولا فى التضحية بالسعادة الشخصية من أجل سعادة الأبناء ولهذا فهم يعتبرون مجرد استمرار ديانا فى زواجها الخالى من الحب حرصاً على الاعتبارات العائلية ومراعاة للالتزامات الملكية .. تضحية عظمى تستحق من أجلها الإشادة بإحساسها العظيم بالمسئولية .. وتستحق أن تذرف الأمهات الدموع حين يرونها فى حفل لافتتاح مشروع خيرى بإحدى المدارس وينهلن عليها بكلمات العطف والتشجيع لأنها الجميلة .. الرقيقة .. ذات الابتسامة الساحرة تعيش زواجاً بلا حب

وتعاشر زوجاً لايقدر مواهبها وينصرف عنها لأصدقائه وينكص عن أداء واجباته كأب فيتخلى ـ وا أسفاه ـ عن الذهاب مع ابنه الأمير الصغير ويليام إلى المدرسة فى يومه الأول ليسانده بحضوره معه معنوياً فى بداية التحاقه بالتعليم كما يفعل الآباء الملتزمون ، وتضطر الأميرة الحزينة لأن تقوم بهذا الواجب العائلى وحدها وهى تكتم دموعها وتغتصب الابتسامة حتى لاتضعف من روح الأمير الصغير المعنوية !

وقد استرجعت الصحف البريطانية الشعبية هذه القصة التى حدثت منذ عام وتذكرت صحيفة «الصن» أنها جعلت يومها عنوانها الرئيسى تعليقاً عليها هو :

«أى نوع من الآباء .. أنت ؟» مخاطبة تشارلز بالطبع فذكرت القراء بذلك بمناسبة صدور الكتاب ، وأشارت إلى أن ذلك قد تكرر فى معظم المناسبات المدرسية التى كانت تقتضى وجود الأب مع ابنه فى المدرسة كحضور اليوم الرياضى الذى كانت ديانا تحضره مع ابنها وحدها .. فى حين يجىء الأبناء مع أمهاتهم وآبائهم ! أما أكثر ما استحق إعجاب الصحف البريطانية الشعبية فهو قرار ديانا بألا تطلب الطلاق تقديراً لواجباتها العائلية حتى لا تحرم ابنها الأمير الصغير ويليام من فرصته فى أن يصبح ملكاً على بريطانيا ذات يوم . وأن تتحمل إهمال الأمير لها وانصرافه عنها إلى أصدقائه وإلى اهتمامه بصديقته المتزوجة كاميلا باركر التى لم أستوعب بعد رغم سنوات العمر والتجربة كيف يواجه زوجها الموقف بهذه «الروح الرياضية» والصحف ومحطات التليفزيون تناقش

علناً دور زوجته فى تدهور العلاقة بين الأمير والأميرة .. أو كيف أن هذه العلاقة كانت مثار مشاحنات طويلة بين الزوجين الملكين منذ سنوات طويلة .. إلى الحد الذى قررت معه ديانا حين التقت بها ذات مرة فى حفل استقبال أن تطلب ممن حولها أن يبتعدوا عنهما قليلاً لأنها تريد أن تناقش مع غريمتها أمر علاقتها بزوجها بصراحة !.

وكل ذلك على صفحات الصحف وفى التليفزيون .. وعلى عينك يا تاجر كما يقولون !

أما محاولات ديانا لإنجاح زواجها الفاشل فلقد أفردت لها الصحف أنهار المقالات الطويلة ووصفت كيف اصطدمت كلها بتعمد تشارلز اهمالها وتجاهلها حتى فى الحفلات الرسمية .. وكيف أنه قد تعمد السخرية منها حين اصطحبها فى عيد ميلاده الثالث والأربعين إلى معرض للصور كان عنوانه بالصدفه هو : امرأة بلا أهمية !!

أما قرارها الشجاع فهو أن ترتب حياتها على أن تكون لها حياة مستقلة عن زوجها .. وأن تكون لها اهتمامات ونشاطات اجتماعية مستقلة عن نشاطاته وكيف نفذت ذلك باتخاذها هيئة مكتب مستقلة خاصة بها تنظم لها زياراتها للمدارس والهيئات الاجتماعية بغير الارتباط ببرامج زوجها المشغول دائماً عنها مع أصدقائه وهواياته واهتماماته الأخرى . ولم تكتف الصحف البريطانية بما أفردته لصفحات هذين الكتابين ولابما كتبه كتّاب وكاتبات المقالات والأعمدة من تعليقات وآراء على الزواج المضطرب وإنما أشركت معها أيضاً قراءها فى هذه «المأساة» فنشرت

إحداها بضعة أسئلة طلبت من القراء الإجابة عليها وكانت أسئلتها هكذا :

هل تعتقد أو تعتقدين أن ديانا سوف تستطيع احتمال تجاهل تشارلز لها إلى النهاية ؟

هل تعتقد أو تعتقدين أن تشارلز سوف ينتبه إلى واجباته تجاه زوجته الأميرة ديانا خلال وقت قريب ؟

هل تؤيد أو تؤيدين قرار ديانا بأن تحيا زواجاً بلا حب وتتفرغ لرعاية أطفالها بدلاً من أن تطلب سعادتها الشخصية ؟

إلى آخر هذه الأسئلة الشخصية العجيبة ، وتيسيراً على القراء أعلنت صحيفة أخرى : أن القراء بدلاً من إرسال آرائهم بالبريد وتكلفهم عبء الكتابة وثمن طابع البريد يستطيعون الاتصال تليفونياً بالصحيفة لإبلاغها بوجهة نظرهم بمكالمة مجانية تتحمل الصحيفة ثمنها .

ولا أعرف ماذا أسفر عنه استطلاع آراء القراء لأنى سافرت من لندن قبل أن تظهر النتائج .. لكن المؤكد أن ديانا تحظى بتعاطف واسع من الرأى العام البريطانى وخاصة بين النساء ، وأن شعبيتها أكبر بكثير من شعبية زوجها الأمير تشالز وربما كان هذا أيضاً من أسباب ضيقه بها لأنها خطفت منه الأضواء بشكل كبير بعد زواجها منه ، وبداية تسرب أنباء تعاستها الزوجية للعلن .. مع أنه فى الأصل محبوب من الرأى العام البريطانى وقد عشت بضعة شهور فى بريطانيا عام ١٩٧٧ ولمست

شعبيته الطاغية وقتها إلى حد جعل من اكتشاف صلعة دائرية صغيرة جداً فى منتصف شعر رأسه «مانشيت» الصحف الشعبية البريطانية يومها وقد احتلت فيه صورة هذه الصلعة الصغيرة أغلفتها مع التأكيد على أنها لا تنقص من جاذبيته بل تزيدها لأنها تؤكد حدة ذكائه وتفكيره!

وبعد زواجه من ديانا ظل الاثنان «عروسى القرن» كما وصفتهما الصحف وقتها وفارسى أحلام الشباب فى السعادة والزواج .. حتى تسلل الجفاء إلى البيت السعيد .. وتحول زواج القرن .. إلى مأساته .

ولقد انتهت صلتى بحمى الحديث عن ديانا وتشارلز حين سافرت من لندن إلى فيينا وحمدت الله على أنى لا أعرف اللغة الألمانية ولهذا فلن أقرأ فى الصحف النمساوية ما تنشره عنهما ، وأمضيت أياماً فى فيينا لم أقرأ خلالها كلمة واحدة عن ديانا الجميلة رغم أنى رأيت صورها فى الصحف النمساوية المعلقة فى الشارع ثم ركبت الطائرة عائداً إلى القاهرة ومرت بنا المضيفة تحمل الصحف فاخترت صحيفة جادة هى «الهيرالد تريبيون» وبدأت قراءة صفحتها الأولى واستغرقتنى قصتها الرئيسية عن قمة بوش ويلتسين ثم قصتها الأخرى عن مأساة البوسنة والهرسك ومئات ألوف المسلمين المحاصرين فى عاصمتها بلا ماء ولا طعام ثم فتحت صفحاتها الداخلية فإذا بصورة ديانا تطل على من صدر صفحتها الثالثة .. وإذا بالصفحة كلها يشغلها تحقيقان كبيران: الأول عن كتاب أندرو مورتون «ديانا القصة الحقيقية » .. والثانى تحقيق من

باريس يحكى تعاطف الفرنسيين مع الأميرة الحزينة وإحساسهم بالأسف الشديد لتعاستها الزوجية فأغلقت الصحيفة .. وأغمضت عينى وشاركتَ الآسفين أسفهم لديانا وأضفت إليه أسفى لعلية وفوزية وسميرة وخديجة وآمال وكل التعساء والمهمومين فى كل مكان وقلت لنفسى :

ـ فعلاً ما أكثر التعاسة حولنا .. لكن تعساءنا .. لا «أواسف» لهم .. للأسف !



عصافير ... وغربان !

** كانت الأسرة تعيش حياتها فى سعادة وهدوء . الأب رجل أعمال ثرى يملك مصنعاً كبيراً مع شريك له ، والأم ربة بيت وديعة كافحت مع زوجها فى بداية حياتهما وصمدت معه لصعوبات كثيرة إلى أن صنع نجاحه وعوضها عن أيام الحرمان ، والأبناء ثلاث فتيات جميلات فى سن الشباب وغلام وكلهم شديدو التعلق بأمهم وأبيهم .. وبخاصة الأب الذى لايكف عن مناوشتهم حين يعود إلى البيت بعد نهار العمل الطويل ويفصل بين كل مناوشة وأخرى بفاصل من تبادل القبلات مع بناته الجميلات وتبادل الغمزات والإشارات الضاحكة مع ابنه الحبيب .

الأسرة كلها مجتمعة الآن فى بهو البيت الكبير الذى تعيش فيه .. تستعد لحفل عشاء كبير ستقيمه لأسرة خطيب إحدى بناتها فى نفس المساء لكن الإبنة الوسطى تساورها بعض المخاوف بشأن صحة أبيها المحبوب .. فهو يحس ببعض الدوار حين ينهض من مقعده فجأة وتطالبه بإلحاح بأن يخفف من انشغاله بأعماله بعض الشىء وبأن يعرض نفسه على الطبيب ليعالجه من هذا الدوار ، والأب لا يجاريها فى أوهامها ويؤكد لها أنه ليس مريضاً لكنه يعانى من بعض الإجهاد الذى اعتاد

عليه فى هذا الوقت من السنة بعد الانتهاء من إعداد ميزانية الشركة ، ويغير جو الحديث فيقول لابنته : أتعرفين كم عُرِضَ علينا ثمناً لمصنعنا منذ أيام ؟ لقد عرضوا مبلغاً باهظاً لكنى لن أبيع إلا بعد عشر سنوات سوف تتضاعف خلالها قيمته عدة مرات ، ويزداد ما نحصل عليه من إيراد سنوى منه عدة أضعاف . وتصغى الابنة لهذا الحماس بإشفاق ثم تسأله سؤالاً له معنى كأنما تذكره به ، بالحقيقة التى يتغافل عنها فتقول وكم سيكون عمرك وقتها يا أبى ؟ فلا يهتز حماسه ويقول لها بتأكيد : سأكون فى عمر أحفادى وسأشترك معهم ومعكم فى الاستمتاع بالحياة . ومن جديد يروى الأب قصة كفاحه وكفاح زوجته معه حتى تغلبا على صعوبات حياتهما .. واختاره ثرى كان يشتغل بالإقراض والتسليف لإدارة مصنع ورثه هذا الثرى وفشل فى إدارته فاختار الأب ليديره لأمانته المعروفة عنه .. فأعاد له الحياة وأنقذ المصنع من الإفلاس وعرض عليه صاحبه بعد سنوات أن يشركه بالنصف فى ملكيته وكيف لم يتوقف عن العمل لحظة واحدة منذ بدأ حياته العملية ليسعد أسرته ويوفر لها الحياة السعيدة الكريمة .. مما أتاح لابنته الصغرى أن تتم خطبتها لأحد أبناء العائلات العريقة وإن كان لا يملك مالاً كثيراً .

ويحين موعد عودة الأب إلى عمله بعد الظهر انتظاراً لحفل العشاء فى المساء ويودع أسرته وداعاً حاراً بالقبلات والضحكات كما اعتاد كل يوم ويبدأ توافد المدعوين .. أمُّ خطيب الابنة أولاً ثم مدرس الموسيقى الذى يعطى دروساً فى البيانو للابنة الكبرى الحالمة والذى يشيد بموهبتها فى

تأليف الموسيقى ويتآمر معها على طبع موسيقى أغنية ألفتها سراً وبغير علم الأسرة إيماناً منه بعبقريتها المدفونة . ثم يصل شريك الأب فى المصنع الذى تجاوز الستين بعدة سنوات ولم يتزوج ولم يعرف عنه أى اهتمام سابق بالنساء ولا يعنيه فى الحياة إلا جمع المال . ويتوالى حضور باقى الضيوف ثم يدخل الخادم معلناً حضور «رب الأسرة» ويتجه الحاضرون بأنظارهم إلى باب الصالون فيترامى من ورائه صوت صاحب البيت معتذراً بلهجته المألوفة عن تأخره، ثم يدخل فإذا به ابنه الغلام الصغير الذى يجيد تقليد صوت أبيه وحركاته ويواصل لهوه فيحيى الحاضرين بطريقة أبيه وتتعالى الضحكات .. بالرغم من تحفظ الأم الخافت على تصرف ابنها المدلل، ويسود جو من البهجة والمرح ، وفي هذه اللحظة بالذات يدخل رجل متجهم يصر على مقابلة ربة الأسرة فتنهض إليه مستاءة ويطلب منها إبعاد أولادها ليحدثها في أمر هام فتطلب منهم الانتقال إلى الصالون الآخر .. وتعود اليه مضطربة فينعى إليها زوجها الذي فاجأته أزمة قلبية وهو في عمله بالمصنع ولفظ آخر أنفاسه فيه منذ دقائق !

ويتغير طعم الحياة في أفواه أفراد الأسرة الضاحكة السعيدة ، وتبدأ المتاعب تطل برأسها على حياتهم الهادئة ، فالأب قد قتله العمل المضني المتواصل قبل أن يرتب شئون الأسرة ويؤمن حياتها بمصادر ميسورة للإيراد وكل ثروته منحصرة في نصف المصنع الذي يملكه ويخضع لسيطرة الشريك الآخر .. وقد بدأ في شراء بعض الأراضي ليبني عليها

مساكن وبيوتاً لكنه اقترض من البنك جزءاً كبيراً من ثمنها ولم ينته بناؤها بعد والأم والبنات لا خبرة لهن في التعامل مع المهندس الذي يتولى البناء ويطالب كل يوم بالمزيد من المال وقد توجست أم خطيب الابنة الصغرى من المستقبل فذهبت سراً إلى شريك رب الأسرة الراحل تستوضحه عن مركزها المالي بعد وفاة الأب .. وتأكدت من أن الأسرة لن تكون قادرة على تزويج ابنتها بنفس البذخ الذي كانت تتوقعه من الأب .. فزارت الأم واعتذرت لها عن عدم إتمام الزواج وبكت الأرملة الحزينة في صمت لأنها تعرف جيدا ان ابنتها الجميلة شديدة التعلق بالشاب .

وتتوالى المصاعب والكوارث على الأسرة المنكوبة يوما بعد يوم والمصائب لاتأتى فرادى كما يقولون، فيزور الشريك أرملة شريكه ويبلغها أن تركة زوجها بعد سداد الديون لن تتجاوز مبلغاً زهيدا لا يصمد لنفقات الأسرة طويلا وتذهل الأرملة الحزينة بما يقال عن هذه الديون التي لم تسمع عنها من قبل ، ويماطلها الشريك في تقديم أية مبالغ لها لمواجهة نفقات الأسرة .. ويعتبر ما يقدمه لها من مبالغ صغيرة ديونا واجبة السداد وليست إيراداً للأسرة من المصنع الذي تملك نصفه. ومحامي الأسرة يتآمر مع الشريك الثري لدفع الأسرة العاجزة لبيع نصيبها في المصنع بأبخس الأثمان والمهندس الذى يتولى مهمة البناء يتآمر مع البنك على الاستيلاء على ما تم بناؤه مقابل الديون المتأخرة . وكثيرون ممن تعاملوا مع الأب الراحل من تجار وموردين ينقضون على الأرملة وبناتها الحائرات كطيور ضعيفة مهيضة الجناح يحاولون استلاب كل ما يمكن

استلابه منهن وتجريدهن مما يملكن ، والدائنون يتقاطرون على الأسرة يطالبونها بديون مُبالغ فيها أو سبق أداؤها لكن الأسرة عاجزة عن إثبات ذلك وتضيق الدنيا بالأسرة حتى تصرخ الخادمة العجوز التي حافظت على وفائها للأسرة للنهاية ، وتصف هؤلاء الذين يحاولون استغلال ضعف الأرملة وبناتها « بالغربان » التي لا تترك شيئا دون أن تنهبه .. ومع كل درجة من درجات الفقر التى تهبط إليها الأسرة ينقص احترام المحيطين بها لها فالخطيب رغم حبه للابنة واعتدائه على عفافها خلال فترة الخطبة لا يقوى على معارضة أمه التي أصرت على فسخ الخطبة ، والأم التى كانت قبل شهور قليلة فخورة بارتباط ابنها بالأسرة تمعن في إهانة الابنة التي تدافع عن حبها وحياتها وتتهمها بلا رحمة بأنها ساقطة غررت بابنها البريء .. ! وتبكي الابنة وتستعطفها فلا ترحم ذلها وضعفها. أما شريك الأب الذي لم يسبق له الاهتمام بالنساء فهو يطارد الابنة الوسطى ويحاول غوايتها ويعرض عليها أن تقيم ببيته وتصبح عشيقته مقابل أن يتكفل بنفقاتها وحدها !

وحتى مدرس الموسيقى الذي كان يشيد بعبقرية الابنة الكبرى الموسيقية بدأ يسخر من تلميذته التعسة ويتهمها بأنها مجردة من المواهب، حين أرادت أن تعمل مدرسة موسيقى أو مغنية بالمسارح لتكسب رزقها وتخفف بعض عناء الحياة عن أسرتها .. والأصدقاء إنفضّوا عن الأسرة التي لم يكن صالونها يخلو كل مساء من الضيوف وتتدهور أحوال الأسرة حتى تصل الى الحضيض ولم تكفّ الغربان بعد

عن دناءتها ولم تشبع نهمها وتبيع الأسرة معظم أثاثها الفاخر وتنتقل من بيتها الواسع الكبير إلى شقة صغيرة حقيرة ، وتزداد الحلقة ضيقا حول الأم وبناتها وطفلها الصغير فلا تجد سبيلا للخلاص من محنتها إلا بالتضحية بابنتها الوسطى العقلانية ذات العشرين ربيعا التي لم تكن حالمة كأختها الكبرى ولا عاطفية كأختها الصغرى ، فتقبل زواجها من شريك أبيها الذي فشل في أن ينالها بالإغراء أو الضغط فتقدم لخطبتها عن طريق محاميه . وتقبلت الابنة مصيرها بلا بكاء ولا عويل بل ولا حتى تظاهر بالتضحية أو ادعاء للشهادة مع انها شهيدة بالفعل للظروف القاسية التي أحاطت بأسرتها بعد موت أبيها .. وشهيدة لخسة بعض البشر الذين يشاركون الغربان في صفتين أساسيتين من صفاتها هما الدناءة إلى أقصى حد .. وعدم الإحساس في نفس الوقت بأنهم أدنياء ! .

وتتحمل الفتاة أقدارها بروح واقعية عملية ترى معها أن من واجبها حماية أسرتها مما يتهددها من أخطار .. وترى ـ وهذا هو الأخطر ـ أن أفضل طريقة لأن تحمي نفسك من سطوة الغربان هي أن تدخل تحت حماية أخطرها ليدفع عنك بدرايته بأساليب بني جنسه أذاها ويبطل أحابيلها ومؤامراتها .. لأنه لا يفل الحديد إلا الحديد ولا ينجح في التصدي لمحتال الا مخادع مثله !

وتبكي الأم بدموع صامتة حين تعلن الابنة موافقتها لمحامي الأسرة الوسيط على الزواج من شريك أبيها الزاحل وينصرف المحامي سعيداً بنجاحه في مهمته .. ويزداد بكاء الأم فتقول لها ابنتها : قبليني يا أمي ..

ولا تسلبيني شجاعتي .. إنى أشعر بالعار لقبولي هذا الزواج .. لكني أعرف جيدا أنه وسيلتنا الوحيدة للنجاة مما يتهددنا جميعا من أخطار بل إني كنت سأصبح آثمة في حق أسرتي لو لم أقبله ! وتبكي الأم والشقيقات أما العروس فتتحجر دموعها في مآقيها .

ويجيء الشريك سعيداً بما سمع من محاميه ليتأكد من جدِّية الموافقة وتكرر الإبنة على مسمعه موافقتها فيطير طرباً ، وفي هذه اللحظة بالذات يأتي إليهم تاجر السجاد الذي يزعم أن له مبلغا لم يسدده الأب قبل رحيله .. ويلاحق سيدات الأسرة بتهديداته منذ فترة فيرتجفن هلعاً ولا يدرين ماذا يصنعن معه ، ويخرج إليه الشريك ويتناول منه كشف الحساب ويبلغه بأنه سيدفع له الدين أولا لكنه ينذره بأنه سيراجع الكشف ويراجع أوراق الأب الراحل في المصنع ليعثر على إيصالات سداد المبلغ له، وإذا ثبت أنه كان مسددا فسوف يقاضيه ويدفع به إلى السجن فيتراجع التاجر الذي كان يزأر منذ قليل في وجوه الفتيات ويقول ربما أخطأت زوجتي الحساب وينتهي الأمر بأن يطرده الشريك دون أن يدفع له المبلغ وهو يتوعده بأن سيسجنه إن عاد لمطالبة الأسرة بشيء ..

وتتنفس الأم والبنات الصعداء لأول مرة منذ رحيل الأب ويلتفت الشريك الى خطيبته وهو يقول لها متأسفاً : مسكينة يا ابنتى إنكن منذ وفاة الأب محُاطات بطائفة اللصوص والمحتالين !

وتهز الفتاة رأسها مؤمنة على ما يقول .. وتداري ابتسامتها الحزينة

وهي تفكر صامتة في أنها تقف في نفس اللحظة أمام أكثر هؤلاء اللصوص والمحتالين شراسة ونهماً .. وأنها لن يحميها منهم سواه !

وبهذه المفارقة الساخرة ينهي الكاتب الفرنسي هنري بيك مسرحيته الجميلة « الغربان » التي قرأتها لأول مرة منذ عشرين سنة وأحببتها كثيرا وعدت لقراءتها بعد ذلك عدة مرات فأجدني أتعاطف في كل مرة مع هذه الأم الحزينة وبناتها الثلاث الحائرات الضعيفات ، ويبلغ تأثري قمته في اللحظة التي تعلن فيها الابنة الجميلة المضحية ماري موافقتها على الزواج من شريك أبيها البشع كأنما تنعي بهذه الموافقة على الدنيا قسوتها على الضعفاء ، ويزداد إشفاقي على عصافير الحياة كسيرة الجناح حين تحيط بها الغربان النهمة من كل جانب ، وتزداد كراهيتي لهذه الغربان بكل صورها وأشكالها وممارساتها التى مازالت تتجدد وتتكرر كل حين مع استمرار الحياة !

النصف الصحيح !

** أحياناً أصدق مغزى تلك الأسطورة الإغريقية القديمة التى تدعى أن الرجل والمرأة كانا فى الأصل كائناً واحداً ثم غضبت عليه الآلهة فقسمته نصفين رجلاً وامرأة وحكمت على كل منهما أن يقضى حياته باحثاً عن نصفه الصحيح الضائع إلى أن يجده فتلتحم تعاريج كل منهما بالآخر ويعودان واحداً صحيحاً متسق الشكل كما كان من قبل ، وأن تلك الآلهة نكاية فى البعض فإنها تعميه عن النصف الصحيح فلا يجده طوال العمر .. ونكاية أشد فى البعض الثالث تخدعه فتقوده إلى النصف الخطأ الذى لا تتلاءم تعاريجه الهندسية مع تعاريجه..

لكنهما بقوة الضغط الخارجى وبالاستعانة بأوراق اللصق يتكاملان فيكونان شكلاً غير متسق ، وسهل الانفكاك إذا تعرض لأى ضغط خارجى فيذهب كل نصف فى اتجاه ويواصل بحثه عن النصف الصحيح الذى يتواءم معه .

فمنذ أسابيع كنت جالساً فى كافتيريا فندق على النيل بعد منتصف الليل أحتسى القهوة وأتأمل شارداً منظر النهر وانعكاس الأضواء الملونة على مياهه .. حين لاحظت أن رجلاً وسيدة يجلسان إلى المائدة المجاورة لى ينظران إلى باسمين فابتسمت لهما فانتقل الرجل إلى مائدتى واستأذننى

فى دعوة زوجته للجلوس معنا إلى أن يحضر «أصدقائى» الذين يعرف أنهم سوف يلحقون بى بعد قليل كما اعتاد أن يرانى فى هذا المكان أكثر من مرة .. ورحبت بهما بالكلمات التقليدية وأنا أنتظر من حين لآخر أن يبدأ أحدهما فى تفسير سر «الزيارة» ولم يطل ترقبى إذ قال لى : ألا تعرفنى؟ فاعتذرت له بضعف ذاكرتى فقال لى : ألا تذكر الطالب الذى أحب أستاذته وكتب إليك منذ سنوات يروى قصته معها ورددت عليه وقتها ؟ هو أنا .. وهذه هى الأستاذة ما رأيك فيها ألا تراها أكثر شباباً منى ؟ لقد رأيناك على نفس هذه المائدة أكثر من مرة تأتى بعد الواحدة صباحاً مع بعض الأصدقاء تسبقهم أو يسبقونك هم بدقائق ثم تجلس قليلاً تشرب القهوة وتدخن و تسرح ناظراً إلى النيل فلا تكاد تسمع ما يقوله لك أصدقاؤك وعرفتك من أول مرة وتذكرت رسالتى لك وقررنا أن نتعرف بك وأن نحدثك عن حياتنا ..

ومن ذلك الحين احتفظت زوجتى فى حقيبة يدها بصورة الرسالة التى نشرتها والرد لنقدمها لك حين نتعرف عليك ونذكرك بقصتنا ونتبادل معك الرأى .. ومد يده إلى زوجته فأخرجت من حقيبتها قصاصة قديمة مصورة وقدمتها لى ..

وامسكت القصاصة وقرأت فيها :

قصتى تبدأ منذ عشر سنوات وأنا طالب فى الجامعة قد تندهش لبعض تفاصيلها لكنى أقول لك إنه لا جديد فى الدنيا ففى الحياة كل ما تتخيل من غرائب ..

كنت طالباً فى الجامعة .. وكانت هى أستاذتى فيها .. نعم أستاذتى فرأيت فيها المرأة الكاملة التى يتمناها أى إنسان ، فهى سيدة رقيقة أنيقة.. نشطة طموح مثقفة خفيفة الظل .. وقبل ذلك محترمة من الجميع .. وقد علمت أنها أرملة ولها طفلان فشغفت بها حباً ولاتسألنى كيف حدث ذلك ، فلقد وجدت نفسى بالتدريج وخلال فترة طويلة مجنوناً بها ومصمماً على أن تكون أستاذتى هذه هى زوجتى وشريكة حياتى ، فعملت المستحيل حتى أحست بى وبوجودى وعرفت من اليوم الأول أنه لا طريق إليها إلا بأن أكون أهلاً لها ، وبالتالى فلابد من النجاح بتفوق لكى أعمل معيداً ثم مدرساً بالجامعة وأصبح زميلاً لها بعد أن كنت تلميذاً لها ، وأمضيت الليالى ساهراً وخلال عامين من بداية حبى لها كنت قد نجحت وتفوقت تفوقاً لايتيح لأحد تجاوزى فى أى تعيينات بالكلية .. وعُينت فعلاً عقب التخرج معيداً .. وأصبحت الخطوة التالية الآن قريبة فبدأت المرحلة الأولى من مشروع الزواج بمفاتحة أهلى فى الموضوع فسمعت الكثير من اعتراضاتهم وكلماتهم المؤلمة .. لماذا تتزوج من أرملة ، وأنت شاب لم يجرب حظه فى الزواج ؟ أو «لماذا تتزوج من سيدة تكبرك بعدة سنوات » أو «هل ضاقت بك الدنيا حتى تتزوج بسيدة عزباء» .. إلخ ..

وسمعت وسمعت .. لكنى لم أعر كل هذه الأقاويل التفاتاً .. وكلما نظرت إليها وجدتها تزداد على مر السنوات جمالاً وشباباً ، وقررت أن أطلب يدها من أهلها بدون انتظار موافقة أهلى .. وذهبت إليهم وحدى

بلا أى رفيق فكانت الصدمة أن رفضنى أهلها وبشدة .. فانهارت أحلامى ولم يعد هناك مفر من الفراق فمضيت أنا إلى طريق ومضت هى فى طريق آخر ..

وعشت سنوات بلا حياة .. ثم حاولت الاستجابة لنداء العقل كما قال لى الأهل فتقدمت لخطبة فتاة تصغرنى فى السن كما يقول العقلاء .. وتزوجتها وقلت لنفسى لعل معهم الحق فيما يقولون فالشباب بهجة ومرح وعطاء ولايجوز أن أحرم نفسى منه فتزوجت الشابة تلك فإذا بى أعيش مع «عجوز » فى قلبها .. وفى عطائها .. وفى ابتسامتها ..

كنت أنظر إليها وأقارن بينها وبين الأخرى فأجد الأخرى مازالت زهرة نضرة رغم بعض الشحوب والحزن ، وأجد زوجتى الشابة «كهلة» فى روحها .. وبعد معاناة طويلة استمرت خمس سنوات قررت أن أضع حداً للمأساة التى أعيشها .. وقررت أن أطلق زوجتى الشابة وأن أتحرر من حياة مزيفة لا أحس فيها بالحب والمشاركة وائتلاف روحى مع روحها وتزوجت حبيبتى بعد طول ضياع واغتراب وبكينا معاً حزناً على السنوات التى ضاعت من حبنا وعمرنا ، وبارك أبناؤها حبنا وزواجنا .. ورزقنا الله بمولود رائع كأمه وأنا أكتب لك هذه الرسالة بعد عامين من زواجنا السعيد ونحن نحتفل بعيد ميلاد طفلنا الأول وقد ناقشت رسالتى للدكتوراه منذ أيام وكانت حبيبتى هى نجمة يوم المناقشة بجمالها ومرحها وسعادتها بى أمام الجميع » .

وتوقفت عند هذا الحد من القراءة ورفعت عينى لأتأمل الزوجين

اللذين يجلسان إلى مائدتى مرة أخرى كأنى أراهما لأول مرة وحسبت الفترة التى مضت على نشر هذه الرسالة وهى حوالى سبع سنوات فقدرت فى سرى أنه يقترب الآن من الأربعين من عمره وأنها تقترب من الخمسين وازداد اهتمامى بأن أعرف هل بدأ فارق السن يؤثر أثره السلبى على علاقة الزوجين المحبين أم لا .. فعدت أتأمل الزوجة من جديد فرأيتها أنيقة ورشيقة وجميلة جمالاً هادئاً .. لكن شخصيتها مريحة فعلاً وتبعث فى النفس الهدوء والثقة .. ولفت انتباهى أن زوجها الذى يصغرها بعشر سنوات لا يكاد يبدو أصغر منها فلقد حل هو المشكلة بأن كبر فى مظهره خمس سنوات وصغرت هى فى مظهرها خمس سنوات فالتقيا فى منتصف الطريق لكن أبرز ما أحسست به هو أنهما زوجان سعيدان ومتفاهمان وصديقان ..

وسألتهما عما صنعته بهما الحياة فى السنوات الماضية فعرفت منه أنه تزوج حبه الكبير وهو مدرس مساعد وهى أستاذة وأنهما زميلان بقسم واحد بالكلية .. وقد أصبح أستاذاً منذ ثلاث سنوات ثم تعرضت حياتهما لأزمة عابرة منذ أربع سنوات حين رُشحت الأستاذة بحكم أقدميتها لرئاسة القسم الذى يعملان فيه ، فتحرجت أن ترأس زوجها مع ما قد يثيره ذلك من حساسيات بعض الزملاء أو اتهامهم لها بمحاباته فتنازلت عن أحقيتها فى رئاسة القسم للزميل الذى يليها فى الأقدمية واستراحت إلى قرارها ، لكن زوجها ثار ثورة عارمة لتنازلها عن حقها من أجل هذه الاعتبارات «التافهة» ولامها بشدة وهددها بأن

يسعى للانتقال من الكلية كلها إذا فعلت ذلك مرة أخرى ..

وعرفت أيضاً أنهما كما قالا لى يديران مملكة صغيرة تضم ثلاثة أبناء ولدهما من زواجهما السعيد وولداً وبنتاً من زيجتها الأولى وأنهما منذ اطمأنا إلى قدرة الابن والابنة الكبيرين على رعاية أخيهما الصغير أصبحا يستطيعان الخروج والسهر وحدهما فى منتصف الأسبوع ويخرجان مع الأبناء يوم الجمعة ، وفى إحدى هذه السهرات التى يحرصان فيها على أن يخرجا معاً ويجلسا فى هذا المكان .. رأيانى .. وتذكرا تعليقى على حبهما وفكرا أكثر من مرة فى أن يتحدثا إلى عنه إلى أن جاءت فرصة وجودى وحيداً تلك الليلة ..

وكنت مازلت ممسكاً بالقصاصة فى يدى . ولم أقرأ بعد ما كنت قد كتبته تعليقاً على رسالتهما .. فأشفقت على نفسى من أن أكون قد قسوت عليهما أو أخطأت الحكم على مستقبل زواجهما وحبهما أو صدمتهما برأى جاف لأننى ممن ينادون دائماً بمراعاة قوانين الحياة وعدم الخروج عليها بقدر الإمكان مع تسليمى دائماً بأن هناك استثناءات وأن لكل قاعدة شواذ فاستأذنتهما فى أن أقرأ «رأيى» فى زواجهما وحبهما واعتذرت لهما مقدماً بأن الزمن هو أفضل معلم ، وأننى أريد أن أعرف الفارق بين ما تخيلته أنا وبين ما كشف عنه علم الحياة الذى قال عنه البير كامى : إنه أصعب العلوم والفنون .. وأمسكت القصاصة وقرأت ردى فوجدتنى قد قلت له فيه بعد مقدمة قصيرة:

وعلى أى حال فهنيئاً لك سعادتك التى توصلت إليها بإصرارك الغريب وإرادتك الحديدية .. والحياة يا صديقى رحلة بحث مستمرة منذ فجر الإنسانية عن السعادة .. وفى رأيى أن كل ما يحقق سعادة الإنسان دون الإضرار بالآخرين ودون الخروج عن تعاليم السماء مقبول ومشروع بل ومطلوب أيضاً بشدة ، وأن التكافؤ بين الزوجين فى السن والظروف والحالة الاجتماعية لم يُشرع عبثاً .. وإنما شرع لضمان أسباب السعادة والتفاهم والتجاوب فى الزواج ، لكن لكل قاعدة استثناء والسعادة فى النهاية مسألة شخصية جداً لايستطيع أن يحكم عليها أحد إلا من تعنيهم وتخصهم وإلا من يعيش التجربة بنفسه ، فمادمت سعيداً وموفقاً فى زواجك فهذا شىء رائع .. وفى ظنى أن سر سعادتك هو أنك قد أحببت حباً عظيماً من ذلك النوع الذى يقال عنه «حب العمر» وأنك حددت هدفك ومضيت إليه بلا تردد وكرست حياتك لتحقيق هذا الهدف فبلغته ، فإن كان فى تجربتك هذه شىء سلبى .. فهو فقط فى أنك خلال رحلتك هذه قد ظلمت زوجتك الشابة بغير ذنب لها فى قصتك الأصلية .. وكان الأفضل لو لم تخض تجربتك معها من الأساس إلا بعد أن تتأكد من نفسك ومن أنك قد تخلصت من تأثير «الأستاذة» عليك لكنك تسرعت وحاولت وأخطأت وعشت مع زوجتك بقلب غائب .. وبعين تنظر إليها بإحساس المقارنة بينها وبين الأخرى .. فآذيتها بلا جريرة وكان الفشل هو النتيجة الطبيعية .. فلعل الله يعوضها عن تجربتها الخاسرة معك .. ولعلك تكفر عن ذلك بطلب المغفرة ، والله غفور

رحيم، ومرة أخرى هنيئاً لك سعادتك مع شريكة عمرك .. لكن لانطلب من الآخرين أن يكرروا تجربتك دائماً .. فما يصلح لإنسان قد لايصلح للآخر ، ولكل تجربة ظروفها ، وقوانين الحياة العامة أوْلى دائماً بالاتباع فى الظروف العادية .. أما فيما عدا ذلك فالقلوب قد تصنع أحياناً المعجزات..

وانتهيت من قراءة الرد واطمأننت قليلاً إلى أنى لم أحكم مسبقاً بفشل التجربة أو أتنبأ به ووجدت نفسى قد وضعت فى الاعتبار عمق العلاقة العاطفية الذى يعوض أحياناً سلبيات المغامرة بالخروج على قوانين الحياة .. فسألته : هل ساءك لومى لأنك تسرعت بالزواج ممن لا تحب ؟ فأجابنى بهدوء : إطلاقاً لم يسئنى ذلك ؛ لأننى أخطأت فعلاً فى حقها حين تزوجتها وأنا أحب غيرها .. لكن ما خفف من إحساسى بالذنب ، هو أنى لم أنجب منها .. وأنها لم تحاول أبداً أن تساعدنى على الاقتر اب منها.. ويبدو أن الخطأ كان مزدوجاً وليس من جانبى وحدى فهى أيضاً لم تجد فىّ ضالتها وقد تزوجت بعد طلاقى لها بأقل من عام وأنجبت على الفور فى حين أمضت معى خمس سنوات ولم تحمل رغم أنها كانت حريصة على الإنجاب ..

وتدخلت «الاستاذة» فى الحديث وسألتنى : هل هناك خلاف كبير بين ما توقعت وبين ماصنعه الزمن بحياتنا ؟ فأجبتها شارداً : لاأكاد أرى خلافاً والسر واضح .. وهو أن كلا منكما هو النصف الصحيح للآخر وقد جمعت بينكما الحياة فى الوقت المناسب وفى الزمن الصحيح ..

فتداخلت التعاريج وتحولت إلى نسيج واحد أكثر متانة وأكثر شباباً !

وجاء أصدقائى .. فهمَّ الزوجان السعيدان بالانسحاب فسألتهما : هل أستطيع أن أستعير منكما هذه القصاصة بضعة أيام .. فأجابانى بصوت واحد: خذها هدية لك فعندنا منها عشر صور !..


ميكانيكا
السيارات

عزيزتك .. وعزيزة كل رجل !

** اختارت أن توقع رسالتها لى بهذا التوقيع الفريد : عزيزتك .. وعزيزة كل رجل ! أما بداية الرسالة فقد كانت بهذه العبارة : عزيزى الرجل ! ولم أكن أعرفها قبل أن أتلقى منها هذه الرسالة ولا عرفتها بعدها. لكنها كتبت إلىَّ تعلق على رأى كثيراً ما أبديه فى مشاكل القارئات .. وحين أنصحهن دائماً بالتروى قبل طلب الطلاق ووضع مصلحة الأبناء وحقهم فى أن ينشأوا فى أسرة مستقرة فى الإعتبار . أو حين أقول : إنى أفضل أن يتم حسم الاختيار بين سعادة الأبناء والسعادة الشخصية للزوج أو الزوجة لصالح الأبناء الصغار بقدر الإمكان مادام كل من الزوجين لم يفقد بعد القدرة على احتمال الحياة .. فكتبتْ تعلق على هذا الرأى ، وتعارضه ، وتقول لى :

.. سيدى الفاضل ..

أنت رجل فقط وتحكم أحياناً بمنطق الرجال وإلا فكيف تنصح امرأة لاتحب زوجها ، وتعانى منه بالصبر واحتمال عشرته من أجل الأبناء ، ولاتنصحها بالحل الطبيعى لمشكلتها .. وهو الطلاق؟

ثم ماهو الزواج إن لم يكن سكناً ومودة ورحمة ؟ .. وكيف يكون كذلك إذا استقرت الكراهية فى القلب ؟ وماذا تفعل المرأة حين تكون مثقفة ومتعلمة وعندها من الضمير أنهار ومن التضحيات بحار ، فتبذل كل الوفاء والرعاية لترضى ضميرها وربها فقط .. وتمضى حياتها بلا أدنى إحساس بالسعادة .. أليس من حقها أن تشعر بها أيضاً ؟

إنها حين لاتحب زوجها .. ومهما كان الزوج ممتازاً ، فإنه يتحول بالنسبة لها إلى شخص ثقيل الروح لا يطاق .. والهرب منه أحسن وسيلة للتعامل معه ، فإن لم تهرب منه بالجسد .. هربت بعيداً عنه بالفكر والحلم . وتنقلب معدتها وتشعر بالاشمئزاز والتقزز إذا اقترب منها . ورغم كل ذلك فسوف تحاول أن تتكيف مع ظروفها ، وأن تعطى وهى تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم الذى يصور لها أحياناً أنه لاحل لمأساتها سوى اختفائه من الوجود ! وسوف تمنح زوجها الاحترام والوفاء ولكن على حساب أعصابها وصحتها وشبابها وجمالها فتذبل وتنطفىء سريعاً ، وتستمر فى العطاء بلا سعادة ولا استمتاع حتى ينفد وقودها ، وتنتهى مقاومتها فتبدأ فى دوامة الأمراض .. ألم فى القدم .. صداع فى الرأس .. نزيف .. تقلصات فى المعدة وتطوف على الأطباء فى حلقة مفرغة لانهاية لها لأن الأسباب نفسية وليست عضوية .. ثم أخيراً تعترف لنفسها بأنه لا فائدة ، ولاحل سوى التوقف ، وتطلب الطلاق فيكون الرد : «طلاق إيه يا شيخة أعوذ بالله أنت فقط أعصابك تعبانة وتحتاجين إلى الراحة»!.

وتبكى وتتوسل وتشرح وتمرض .. فيكون الرد هو نفس الرد .. وهكذا

تستمر الحياة بلا طعم ، ولا رائحة ، ولابهجة .. ولماذا كل ذلك ؟ لأن رجلاً آخر قرر هذا .. والنتيجة هي أن تتحول الحياة بالنسبة لهذه الزوجة إلى سينما تعرض فيلماً مملاً لاتستمتع به، ولاتضحك في مواقفه الضاحكة، ولاتبكي في مشاهده الحزينة وهكذا تعيش كل امرأة لاتحب زوجها ولاتشعر معه بالسعادة ولاتستطيع الانفصال عنه .. وهكذا أعيش أنا ، وسوف أعيش مابقى لى من العمر لأن زوجى رجل .. وأنت رجل والدنيا كلها «رجل»! والجميع سعداء ماعدا المرأة التعيسة.. وسيعود زوجى من الخارج فأسأله : هل دعوت لى فى صلاة الجمعة ؟ فيجيبنى : وهل لى أحد غيرك فى الحياة ؟ ويمضى يوم .. وتنقضى سنة ، ويمضى العمر كله كالماء الفاتر لايبعث الدفء، ولا يشعرنا بالبرد الذى يثير النشاط .. مع تحياتى لك .. ثم التوقيع الفريد!

هذه هى الرسالة .. وقد قرأتها، وفكرت طويلاً فى معانيها ، وكانت أهميتها الأساسية بالنسبة لى ـ رغم تجنِّى كاتبتها على ، وعلى الرجال ـ هى أنها تصور بصدق مشاعر امرأة ، وموقفها من قضية الحب ، والزواج .. وقد احتفظت بها فى الملف الذى أضع فيه بعض الرسائل الهامة التى تتيح لى التعرف على الجانب الآخر من مشاكل الحياة ، فجاء ترتيبها فيه تالياً لرسالة أخرى تلقيتها من زوجة تعلق على نفس الرأى فأعدت قراءتها ، وتوقفت عند الفقرة التى تتحدث فيها عن نقطة إدراك المرأة أنها لم تعد قادرة على الاستمرار ، ولاترى حلاً لمشكلتها سوى الانفصال . فبعد أن حكت لى أنها تزوجت من شخص مرموق وممتاز ، شغف بها حباً

من النظرة الأولى ، ومازال يحبها إلى الآن .. قالت: إنها لم تشعر تجاهه بالحب قبل الزواج ولابعده .. ومضت السنوات ، فأنجبت ولدين بلغ أحدهما سن الشباب ، ولم تفلح فى أن تغير من مشاعرها تجاه زوجها ، فشغلت نفسها باستكمال دراستها العليا ثم بالحصول على الدكتوراه ، وبالعمل بإحدى الجامعات معظم ساعات اليوم ، ثم يئست من كل شىء، ورغبت فى أن تبدأ حياة جديدة .. وتنتظر حتى تلتقى برجل آخر يحرك فيها مشاعر المرأة وأحاسيسها النائمة ، فتتزوجه، وتعيش معه الحياة التى تحلم بها . وطلبت من زوجها الطلاق مضحية بكل شىء .. ثم تحكى الرسالة : «صارحته بأنى لم أحبه أبداً طوال ١٨ عاماً . وبأنى سيدة شريفة لاأقبل أن أبحث عن زادى العاطفى لدى غيره وأنا أحمل اسمه .. لهذا فلابد من الانفصال .. فوجدت حولى «كونصلتو» من الأطباء .. وكل منهم يشخص الحالة بأنها «أعصاب» ثم أدوية لاتغنى ، ولاتفيد من المهدئات .. وأعود لأحدث زوجى بصراحة فيقول لى : أنت البراءة والملائكية كلها ، وكل زوجة قد تمر بمرحلة كهذه فى حياتها فتكتمها عن زوجها إلى أن تنتهى ، لكن ضميرك الحى يأبى عليك أن تكذبى أو تتجملى .. فأسكت مذهولة .. وأسأل نفسى حائرة .. ماذا يريد الرجل؟.. أقول له إنى لا أحبه .. ولم أحبه فى يوم من الأيام ، ولن أحبه أبداً ، وأريد أن أتزوج بغيره .. وأخشى على نفسى من أن أتحول إلى مراهقة تحب فى خيالها شخصاً آخر .. فيقول لى أنت المثالية ، والبراءة كلها .. ولاطلاق! أعرفت إذن كيف ظهرت فكرة «الأكياس البلاستيك» التى استعملتها بعض الزوجات للتخلص من أزواجهن بعد قتلهم

وتقطيع أجسامهم إلى قطع صغيرة ، ووضعها فى أكياس وإلقائها فى الخلاء ؟

لقد جاءت من هنا .. من هذه اللحظة التى تعجز فيها الزوجة عن الاستمرار، ويتمسك الزوج بالحياة معها رغماً عن إرادتها ، ويستعين عليها بالأهل والأبناء. و . فتقبل مرغمة استمرار الحياة وتصاب بالأمراض النفسية والعصبية .

ثم تنهى رسالتها بتوقيع ساخر يعكس إحباطها ويأسها: محسوبتك الملاك المثالى!

وما أن انتهيت من قراءة الرسالة الثانية حتى قفزت إلى خاطرى قصة ذلك الفيلم الأمريكى القديم الذى يحكى عن قصة مشابهة فى بعض ظروفها . فلقد كانت الزوجة التى بلغت سن الأربعين تعيش مع زوج جفت مشاعرها تجاهه منذ ١٠ سنوات . وتحول هو إلى شخص آخر غير الذى أحبته وتزوجته فقد أصبح كئيباً صامتاً وفاشلاً يعمل بمنجم ويغطى وجهه دائماً السواد .. ويكره الاستحمام .. والموسيقى .. وكلمات الغزل ، ولايهتم سوى بطعامه وشرابه ولاتراه إلا على مائدة العشاء بالمطبخ .. فيمضى ساعة صامتاً .. يشرب الحساء الساخن بصوت عال مزعج ، وتتوتر أعصابها مع كل رشفة منه .. ولايجيب على أسئلتها سوى بهمهمات غامضة بفم ممتلىء بالطعام .. حتى ينتهى من العشاء والشراب فيتجشأ بصوت مزعج تتقلص له معدتها .. ثم يتمطى .. وينهض إلى فراشه بغير كلمة ..

وتمضى هى الليلة وحيدة أمام التليفزيون أو مسهدة فى الفراش إلى جوار زوج لاتشعر بوجوده فى حياتها إلا من شخيره المنفر.

وهكذا ليلة بعد ليلة ، ويوماً بعد يوم وأخيراً قررت أن تضع حداً لحياتها الكئيبة معه وفكرت فى الطلاق .. لكن الطلاق ستترتب عليه مشاكل مادية كثيرة ، ولن تعترف به كنيستها الكوثوليكية .. وفكرت فى هجره دون طلاق لكن أين تذهب وهى ربة بيت لاتعمل ، ولن تستطيع إذا عملت أن توفر لنفسها مسكناً كهذا البيت الصغير الذى تعيش فيه ، وأودعته كل لمساتها الشاعرية .. وإذن فإن الحل الأفضل هو أن يغادر ـ هو ـ البيت، ويتركه لها وهذا مستحيل .. إذن فليغادره رغماً عنه .. وفى صندوق وبالوداع اللائق من أرملة حزينة على زوجها الذى عاشت معه عشرين عاماً ؟ وبدأت تفكر فى تدبير حادث يقضى عليه ، ويُبعد الشكوك عنها لتتمتع بقيمة وثيقة التأمين المعقولة . ورأت أن الجريمة الكاملة هى أن يموت بعيداً عن بيتها وهو فى طريقه بسيارته «الجيب» إلى «المنجم » واشترت كتاباً فى ميكانيكا السيارات وقرأته .. ثم تسللت فى الليل إلى السيارة ، وأتلفت فراملها جزئياً بحيث تتعطل تماماً بعد فترة من تحركها .. ونهض زوجها فى الصباح المبكر ، وركب سيارته إلى عمله . ونهضت هى سعيدة ومبتهجة وتعمدت أن تقضى اليوم خارج البيت فى زيارة صديقة لها لكى تعود فى المساء لتتلقى النبأ «الحزين»! وعادت إلى البيت تغنى وقلبها يرقص طرباً فدخلته من باب المطبخ فما أن فتحته حتى صكَّ سمعها صوت رشف الحساء المزعج ، وجاء صوت زوجها

متثاقلاً : لماذا تأخرت هذا المساء ؟ وكررت الزوجة المحاولة مرتين وفى كل مرة تعود إلى البيت فتجد زوجها جالساً فى مقعده بملابسه القذرة ، ووجهه الذى تغطيه أتربة المعادن وروحه الثقيلة!

فكفت عن المحاولة ، واستسلمت لأقدارها !

نفس القصة مع اختلاف التفاصيل ونفس اللحظة الفاصلة التى تتوصل فيها المرأة إلى الاقتناع الراسخ بأنها لم تعد قادرة على الاستمرار.. وتطلب الانفصال ، وتعجز عنه لأن الدنيا كما تصورت كاتبة الرسالة الأولى «رجل» وليست «امرأة»!

ولاشك أن هناك خطأ بشعاً فى قصتها ، وفى كل قصة مشابهة .. فأما أن الدنيا «رجل» .. فهذا ليس صحيحاً .. لأن الدنيا رجل وامرأة وأبناء والتزامات عائلية واجتماعية ، وخلقية ، ودينية ، ولا يستطيع كل إنسان له ضمير حى أن يتجاهلها أو يتناساها تماماً وهو يطلب سعادته الخاصة، وإلا فقد اعتباره عند الآخرين وأولهم أبناؤه ، وعاش لنفسه وأهوائه فقط ، فخسر سلامه النفسى ، ولم يكسب سعادته كما تصور ، لأن السعادة الحقيقية هى فى توازن كل هذه الاعتبارات عنده .. وأما الخطأ البشع فهو أن كلا من الزوجتين قد تزوجت من زوجها وهى لاتحبه، ولاتشعر بأى ميل عاطفى تجاهه .. وربما أيضاً بالقبول النفسى له وهى جريمة ترتكبها المرأة أحياناً فى حق نفسها .. وفى حق زوجها أيضاً ،

الذى لم يرغمها على الزواج منه ، ولم يرتكب إثماً حين طلب لنفسه السعادة معها ، ولها .

ولايخفف من بشاعة الجريمة دوافع المرأة للزواج ممن لاتقبله حتى مجرد القبول النفسى الذى يمهد لاشتعال شرارة الحب فى أية لحظة من العمر.. فزواجها لأنها لابد أن تتزوج .. أحبت أم كرهت .. أو لأن صديقاتها وزميلاتها قد تزوجن .. أو استجابة لضغط الأهل والأسرة ، كل ذلك لايبرر أبداً إساءة المرأة لنفسها بالزواج ممن لا تتقبله نفسياً وعاطفياً.. ولاإساءتها لمن جاءها محملاً بالآمال المشروعة فى السعادة معها .. فقبلت الزواج منه وهى لاتشاركه آماله وأحلامه .. ثم تغالب نفسها بعد الزواج على احتمال الحياة معه فلا تستطيع ، فتطلب الطلاق بعد أن تكون قد أضافت إلى الحياة طفلين أو ثلاثة لاذنب لهم فى سوء اختيار الأم لشريك حياتها .. ولافى أهواء القلب وتقلباته .

وهو خطأ يشترك فيه الرجل مع المرأة لكن الرجل يتمتع بقدرة أكبر على الحركة والتصرف .. فهو يستطيع أن يطلق زوجته إذا زهدها واستحالت الحياة معها .. ويستطيع أن يبحث عما يفتقده فى حياته الخاصة فى العالم الواسع .. كما أنه يستطيع أيضاً ـ بأكبر مما تفعل المرأة ـ أن يحتمل عشرة من لايحب بغير أن يتعرض لأزمات صحية ، ونفسية ، وعصبية كتلك التى تعانيها المرأة حين تعاشر من لاتطيقه !

هل لأنه أقل رومانسية وعاطفية من المرأة ؟ ربما .. لكن هناك سبباً آخر قد يكون الأهم هو أن عالمه أوسع من دنيا المرأة ، وقد يعوضه عن

تعاسته الخاصة إلى حد ما طموحه فى الحياة العملية أو نجاحه . وقد يكتفى من الدنيا بالاستقرار العائلى ، والشكل الاجتماعى المحترم ، ونجاح الحياة العملية ، وصلاح الأبناء .. ويرى فى كل ذلك تعويضاً كافياً . أما المرأة ـ وفى أحيان كثيرة ـ فلا شىء يعوضها عن افتقاد الدفء العاطفى والحب فى حياتها الخاصة .. ولايخفف من لوعتها عليهما سوى شىء واحد فقط هو سعادة الأبناء وسلامتهم .

وفى كل الأحوال فإن حق المرأة فى الحصول على الطلاق لاستحالة العشرة حق مقرر فى شريعتنا السمحاء . وقصة المرأة التى شكت للرسول الكريم من أنها لاتنكر على زوجها خلقا ولا دينا ، لكنها لاتحبه وتكره «الكفر» ـ فى الإسلام ـ بمعنى أنها تخشى أن يدفعها نفورها منه إلى إساءة معاملته ، وحرمانه من حقوقه عليها فتأثم .. قصة معروفة .. وقد انتهت بأن أمرها الرسول بأن ترد على زوجها حديقته التى قدمها مهراً لها وأمره بأن يطلقها طلقة واحدة .

لكنه حق معلق بضمير المرأة وضمير الرجل ـ حيث ينبغى لكل منهما أن يقرر فيه متى يصبح هذا الحق شيئاً أفضل من «الكفر» ومتى لايكون جناية على أبناء أبرياء .. ومتى لايكون سبباً لحرمان المرأة من رائحة الجنة تصديقاً لقول الرسول الكريم بما معناه أنه «أيما امرأة طلبت من زوجها الطلاق من غير ما بأس منه فقد حرمت عليها رائحة الجنة» . أى بغير أسباب قوية مشروعة تجعل من الطلاق حلاً أخيراً لا مفر منه .

فإذا استراح ضمير المرأة إلى كل ذلك ، وطلبت الطلاق من زوجها وفشلت مساعيه الحميدة ، ومساعى الأهل فى إقناعها بالعدول عنه ، فإنه يصبح من الرجولة الحقة ألا يمسك الزوج زوجة ترفض الحياة معه .. وألا يرغمها بالضغوط المختلفة على الاستمرار رغماً عن إرادتها .. وأبشع من ذلك موقف الزوج الذى استحالتْ حياته مع زوجته ، ولا أمل فى تجددها ، وهجرته ونازعته قضائياً للحصول على الطلاق .. فلا يخجل من منازعتها وابتكار الحيل القانونية للحيلولة دون حصولها على الطلاق لأنه يريد أن «يعلقها» فلا تصبح زوجة ، ولامطلقة ، ولايحق لها الزواج من آخر .. وليس هناك فى الحقيقة موقف أشد دناءة وخسة من هذا الموقف .. والسبب بسيط هو أن الرجل فيه يكاد يحث زوجته التى هجرته منذ سنوات على الخطيئة .. ويصر على ألا ترتكبها ـ إن فعلت ـ وهى مطلقته التى لايتحمل مسئولية تصرفاتها .. وإنما وهى زوجته التى تحمل اسمه شرعاً وقانوناً .. ويرى فى ذلك انتصاراً وانتقاماً ممن هجرته!

أما موقف الزوج فى الرسالتين .. فهو موقف الأب الذى يجزع على أبنائه الصغار من فكرة تمزقهم بين أبوين منفصلين .. ويتصور أن رغبة زوجته فى الطلاق مجرد رغبة عابرة بسبب أزمة نفسية عارضة يستطيع تجاوزها بالصبر ، والاحتمال ، وزيادة جرعة الحنان والعطف لزوجته ، ولايخلو كل منهما من حب لزوجته ، ورغبة فى ألا يفرط فيها لما يراه من مميزاتها الأخلاقية والإنسانية ولأن له أيضاً قلباً يحب ، ويدافع عن حبه ويفزع من شبح فقده ، ولم يقتنع أبداً اقتناعاً راسخاً بأن زوجته تكرهه

ولابجدِّية طلبها للطلاق ، وإصرارها عليه . وليس هناك رجل عادل يستطيع أن يرغم زوجته على استمرار الحياة معه إذا وصلت علاقتها به إلى نقطة اللاعودة ..

وهذه هى مسئولية الزوجتين فى الحقيقة .. فهما لم تتمسكا بالطلاق تمسكاً نهائياً .. وعاطفة الأمومة عندهما ترجح عند الاختيار مصلحة الابناء ، وإلا لأصرت كل منهما على الطلاق ونالته ، وإنما هى فى الأغلب الأعم من تمنيات المرء لنفسه حين يحلم بأن ينال كل ما يتمنى من حب وسلام وكرامة وأمان وأبناء واستقرار وثراء ونجاح .. الخ فإن نال بعضها «تسامح» مع الدنيا فيما لم تمنحه منه بعد .. وتعلق أمله بالله فى أن يحقق له باقى أمنياته ، وبين هذا وذاك قد يتوقف أحياناً ساخطاً ويقول : زهقت .. مللت أريد أن أغير حياتى .. ثم لا تلبث أن تسحبه رمال الحياة الناعمة ويدور مع عجلتها مرة أخرى وربما لايعبر عن إحباطاته بعد ذلك إلا فى المناسبات العارضة .. كمناسبة الرسالة التى نشرتها وعلقت عليها .. فنكأت جراح الزوجتين القديمة .. وكتبتا إلى بتعليقهما .. وربما نسيتا بعد ذلك كل شىء .. وتواصلت حياتهما بأيامها السعيدة .. وغير السعيدة .. ككل حياة أخرى على الأرض !



الدمــوع الحبيســة !

** قابلته فى باريس .. شاب مصرى توحى ملامحه بالطيبة وحسن لنية قال : إنه يريد أن يروى لى قصته فرحبت به رغم وعدى لنفسى بأن ريح ذهنى من التفكير فى هموم الآخرين خلال أجازتى القصيرة بالعاصمة الفرنسية ، انتحيت به جانباً وطلبت فنجان القهوة وأعطيته سمعى .. فقال لى : إنه شاب عمره ٢٧ عاماً نشأ فى أسرة طيبة ميسورة عائلها تاجر من تجار الجيل القديم لم يغير جلبابه البلدى ويعتز بأصالته وتسودها علاقات المودة والرحمة .

وأنهى الشاب دراسته فى قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب وعمل فى مجال السياحة ، وتقدم سريعاً فى عمله وأصبح مديراً بأحد الفنادق العائمة على سطح النيل . وفى إحدى رحلات الباخرة النيلية بين الأقصر وأسوان تعرف الشاب الذى تعلم منذ نشأته أن يثق فى الآخرين ويتوسم الخير فيهم بفتاة جزائرية تقيم فى فرنسا وعلى ضوء القمر الذى ينعكس على صفحة مياه النهر نشأت بينهما بداية قصة عاطفية ربطت بين حياتهما ، وعادت الباخرة إلى مرساها وقد اتفقا على أن يتزوجا وأن يصحبها إلى فرنسا ، وأن يقيما معاً مشروعاً لمكتب سياحى يجلب السياح

إلى مصر . لكن المشروع يحتاج إلى مال وإلى إجراءات إدارية طويلة فى فرنسا ، فاتفقا على أن تسبقه إلى باريس وأن يحول إليها نصيبه فى رأس مال المشروع ويعطيها توكيلاً للتصرف باسمه فى الإجراءات المطلوبة ، ثم يلحق بها بعد أن يستقيل من عمله ويُنهى ارتباطاته فى مصر ، وكان للشاب مدخرات من مرتبه ونصيبه فى ثروة أبيه التى قسمها بالعدل بين أبنائه فأنهى إجراءات التوكيل الرسمى لها وتم توثيقه ثم حول لها كل ما يملكه وكان يقدر بستة وثمانين ألف دولار على حسابها بالبنك فى باريس.

سافرت الفتاة .. وانتظر الشاب انتهاء الإجراءات وتواصلت الاتصالات التليفونية بينهما تؤجج المشاعر وتضاعف من لهفته على اللحاق بها . وطار إليها محملاً بتمنيات أسرته له بالسعادة والتوفيق فى حياته الجديدة .. واستقبلته فتاته فى المطار بعناق المحبين وأشواقهم واصطحبته إلى شقتها الصغيرة فى باريس . ومن اليوم الأول الذى جمعهما فيه عشهما الصغير حرص الشاب المتدين الذى يحافظ على فروض دينه منذ الصغر على ألا يمس فتاته إلا بعد أن يعقد قرانه عليها . ويتعرف بأسرتها المقيمة فى باريس .. فعرف أمها ولاحظ عليها تدينها وطيبتها وشقيقها الطبيب الذى يقيم مع أمه .. وشقيقتها المطلقة التى تقيم مع طفلتيها الصغيرتين فى شقة أخرى . وسمع قصتها المأساوية مع زوجها التونسى الأصل الذى سقاها كؤوس الشقاء أعواماً كان خلالها يضربها

كل يوم إلى أن انفصلا بالطلاق وتخلَّى عن طفلتيه .. ورأى انكسارها ودموعها الحبيسة فى عينيها دائماً وتألم لحالها .

ومضت الأيام واندمج الشاب فى مجتمعه الجديد بسهولة ساعدته عليها لغته الفرنسية الجيدة .. وفتاته تنهى إليه كل عدة أيام أخبار المشروع الجديد والإجراءات التمهيدية له . لكن فترة الانتظار طالت فاقترح عليها أن يتزوجا أولاً لكى يفرغا للمشروع الجديد حين يبدأ أعماله . فنصحته الفتاة بتأجيل هذه الخطوة إلى ما بعد افتتاح المشروع وإنهاء صعوباته . واستشار أمها فوافقته على التعجيل بالزواج أولاً لكن ابنتها أصرت على رأيها .

وبدأت النقود القليلة التى حملها الشاب معه من مصر عند سفره فى النفاد فسأل فتاته أن تسحب مبلغاً من رصيد المشروع لينفق منه على شئونه فلم تتحمس لذلك وفضلت عدم المساس برأس مال المشروع قبل بدايته ورضخ لإرادتها خجلاً أو اقتناعاً .

ومضت أسابيع أخرى وهى تخرج فى الصباح إلى عملها فى بلدية باريس .. وهو لايجد مايفعله سوى انتظارها أو التجول فى الشوارع بلا هدف وكلما سألها عن الإجراءات شكت له من تعقيدات الإجراءات ووعدته بأنها ستقابل مسئولاً كبيراً فى البلدية ليذلل صعوباتها .. وأنذره مدخره القليل بقرب النفاد فطلب منها من جديد شيئاً من ماله فاعتذرت له بتصميم حتى لاتذوب النقود فى مطالب الحياة اليومية ويتهدد المشروع .

ثم كان ذات ليلة في المدينة وعاد قرب منتصف الليل إلى شقتها فرأى شيئاً غريباً أمام بابها .. رأى في ظلام الردهة مجموعة من الحقائب الصغيرة تسد مدخل الباب فأضاء المصباح فإذا به يتعرف فيها على حقائبه التي جاء بها من مصر ! وتعجب من وجودها في هذا المكان وتخيل لأول وهلة أن الشقة قد تعرضت للسرقة فوضع مفتاحه في قفل الباب ففوجيء بأنه لايتحرك داخله ! ورن جرس الباب فلم يسمع له صوت وتأكد من أن الكهرباء قد فصلت عنه . فعرف في هذه اللحظة أنها ليست السرقة .. لكنه الغدر الذي لايعرف الرحمة .

ووقف وسط حقائبه في ظلام الردهة لايعرف ماذا يفعل وتحسس جيوبه فلم يجد بها سوى ٥٠ فرنكاً هي كل مابقي له من نقوده وكارت ممغنط للتليفون بقيت به مكالمتان أو ثلاث ونزل الدرج يتخبط في يأسه وإحساسه بالقهر والخديعة . واتجه إلى كشك التليفون وهو لا يعرف بمن يتصل أو لمن يشكو إليه حاله . ووجد نفسه يتصل بأم فتاته ويحكي لها ما حدث فسمعته مذهولة ثم دعته للحضور بحقائبه إلى بيتها .. وحمل الشاب حقائبه واستقل سيارة أجرة بآخر مبلغ تبقى معه وتوجه إلى بيت الأم ، وأمضى ليلته عندها وفي الصباح اتصلت الأم بابنتها لتستفسر منها عما جرى فأجابتها ببرود بأنها قد عدلت عن فكرة الزواج منه ولم تعد تريد الارتباط وأنها حرة في حياتها ومستقبلها .

وتساءلت الأم عن مصير ماله الذي أودعه باسمها . فأنكرت الفتاة أنها تلقت منه أو حوّل إليها أي مبلغ من المال .

وتجلت الحقيقة قاسية أمام الشاب الذى تغير مجرى حياته منذ التقى بهذه الفتاة على ظهر باخرة نيلية . وأخرج أوراقه التى تثبت تحويله للمبلغ لها والتوكيل الرسمى الذى أصدره باسمها وبذلت الأم وابنتها المطلقة كل ما تستطيعان من جهد وتأثير مع فتاته لتعيد له ماله المغتصب .. فلم تستجب لأى محاولة ولم يفلح معها أى ضغط . وانتهى الأمر بأن تبرأت الأم من ابنتها الضالة وحرمت عليها الاتصال بها أو الحضور إليها وقاطعتها شقيقتها المطلقة ازدراء لما تردت إليه من غدر واستحلال لمال هذا الشاب الغريب . أما شقيقها الطبيب الشاب فلم يخرج عن موقفه السلبى من القصة كلها منذ البداية حتى النهاية .

وطلبت الأم من الشاب الغريب أن يقيم معها ومع ابنها إلى أن يجد حلا لمشكلته . واستضافته ضيافة كاملة رعته خلالها رعاية الأم لابنها . وشاركتها ابنتها المطلقة رعايته والتعاطف معه .

وكتب الشاب إلى أبيه بما جرى فأجابه برسالة تفيض إيماناً بالله ورضاء بقضائه وقدره وتطالبه بأن يبدأ حياته من الصفر من جديد فإما أن يعوض ما خسره وإما أن يعود لبلاده ليعيش كما كان قبل أن تعترض حياته هذه المحنة . وبدأ الشاب يخرج كل يوم ليبحث عن عمل صغير فى أى مكان ويعود فيجد أم فتاته الغادرة وشقيقتها تحنوان عليه وتتعهدانه بالرعاية والعطف ، وطالت إقامته فى بيت الأسرة دون أن تبدى الأم أى ضيق بوجوده بل لعلها تزداد تمسكاً به يوماً بعد يوم .. وطفلتا ابنتها التى تبلغ أكبرهما السادسة تأنسان له وتزدادان تعلقا به يوماً بعد يوم .

وقد انقطعت الصلات نهائياً بين فتاته الغادرة وأمها وشقيقتها ويوماً بعد يوم يلاحظ الشاب حرص الشقيقة المطلقة على أن تقوم بشئونه بنفسها فتصر على أن تغسل ثيابه وتكويها وتؤدى له المهام التى يحتاج إليها ، وتتردد كل يوم تقريباً على مسكن أمها لتطمئن عليه . وأحس الشاب شيئاً فشيئاً بقلبه ينبض بالعرفان لهذه السيدة الطيبة .. ولاحظ عليها تدينها واحتشام ملابسها وبعد شهور تجرأت الدموع الحبيسة فى عينيها فاستأذنت فى النزول .. وهطلت بين يديه وهى تعترف له بأنها قد أحبته حباً ملك عليها نفسها .. ووجد الشاب نفسه يعترف لها بأنه أيضاً قد أحبها ونسى بحبه لها فتاته الأولى وخنجر الغدر الذى طعنته به . وقررا الزواج .. لكن فتاته الجديدة ليست مطلقة ولها ابنتان فقط وإنما عمرها تسعة وثلاثون سنة وعمره سبعة وعشرون سنة فهل تتقبل أسرته بسهولة زواجه منها . وكتب إلى أبيه يستشيره فى أمره فأجابه الأب الحكيم بأن زواجه من مطلقة تكبره سناً ويحبها وتحبه أحب إليه وإلى الله من أن ينزلق إلى مزلق الخطيئة فى المجتمع المفتوح الذى يعيش فيه . ويسعد الشاب برأى أبيه ويعقد قرانه عليها وينتقل للإقامة معها فى شقتها ، ويطمئن بها جانبه ويبدأ حياته معها فتغرقه بحنانها المكبوت وتطلعها الحزين إلى السعادة بعد الذكريات المريرة فتجعل منه رجلها وابنها وأباها وشقيقها وتستجيب لكل رغباته بمجرد أن يشير إليها . ويخفق قلب الشاب رقة وعطفاً حين يناديه طفلتاها بنداء الأب الذى حرمتا منه .

ويسترجع شريط قصته الغريبة التى بدأت على صفحة مياه نهر النيل

مع سائحة جزائرية .. وانتهت به على ضفاف نهر السين مع شقيقتها المطلقة العطوف .. ويتعجب مما تصنعه الأقدار بحياة الإنسان وتغير من مسارها .. كما تتلاعب مياه النهر أحياناً بورقة شجر طافية على سطحها .

ولاتمضى أيام حتى تتذلل مشكلة العمل التى أعيته من قبل فيحصل على عمل لائق بشهادته الجامعية فى هيئة محترمة بباريس وتمضى أيامه هادئة هانئة وقد نسى أو كاد ماله المسلوب الذى اشترت به سارقته فندقاً قديماً وبدأت فى تجديده وإدارته !

لكن أمواج الحياة لاتعرف السكون للنهاية .. ولكل سعادة ما ينغصها غالباً .. ومشكلته هى أن زوجته تريد أن توثق روابطها به بإنجاب طفل منه وهو كما قال لى يرى ذلك من حقها لكنه خائف من المستقبل ويسألنى بعد أن روى لى قصته الغريبة : لقد مضى على زواجى منها ستة شهور وأعرف أنك لاتشجع زواج الرجل بمن تكبره بفارق كبير فى العمر .. وإلى أى حد يتأثر الزواج بمثل هذا الفارق .. وهل ترى من الحكمة أن أستجيب لرغبة زوجتى التى تعبر عنها بنظراتها الساهمة أحياناً ودموعها الحبيسة أم ترى غير ذلك .

وفكرت فيما قال طويلاً ثم قلت له : ما دمت سعيداً معها وبها وما دامت حريصة عليك ومتمسكة بك فلا معنى للسؤال عن اتجاه القطار بعد أن ركبناه وتحرك بنا فعلاً إلى هدفه.. وإنما المهم هو أن نجعل سفرتنا فيه مريحة وسعيدة وهادئة .. وإذا كنت أفضل أن يكبر الزوج زوجته

بعدد قليل من السنوات أو حتى أن يتماثل معها فى السن فلكل قاعدة استثناء .. ولكل شيء فى الحياة جانبه الآخر ، والأم المطلقة التى وراءها ذكريات تعيسة لها أيضاً مزاياها وهى أنها تكون غالباً أكثر حرصاً على نجاح زواجها الثانى واستعدادا لإرضاء زوجها والتمسك به ممن تتزوج لأول مرة . ومع أن فارق السن كبير إلا أنه لايحول دون استقرار الزواج ونجاحه إذا صدقت المشاعر وخلُصت النوايا . وهو فى النهاية استثناء لايقاس عليه ، لكنه أيضاً قابل للنجاح والاستمرار خاصة إذا جمع بين جريحين مثلكما ووجد كل منكما فى الآخر من يأسو له جراحه .. أما رغبتها فى الإنجاب فهى حق لها لا مراء فيه ولك أن تسأل نفسك هل تعتبرها مرحلة مؤقتة فى حياتك أم رحلة العمر مع من جمعت بينك وبينها الأقدار على غير موعد .. فإذا كانت الأخيرة فتأكد أولاً من ثبات مشاعرك ومن اتجاهها إلى التعمق والزيادة وليس إلى العكس ، وتستطيع أن تفعل ذلك بمراقبة نفسك واختبار مشاعرك كل يوم يمضى على زواجك بها . ولو كانت زوجتك فى العشرينات من عمرها لنصحتك بتأجيل الإنجاب عدة سنوات لكن زوجتك ستبلغ الأربعين بعد عام واحد وفرصتها فى الإنجاب تتضاءل مع تقدم العمر .. لهذا فسأنصحك بأن تنتظر عاماً آخر تتأكد خلاله من تعمق مشاعرك واستقرارها ثم .. توكل على الله وامنحها وليداً يصبح ثمرة لهذه القصة العجيبة ويجمع بينكما إلى الأبد إن شاء الله .

واستمع الشاب إلى رأيى وانصرف راضياً عنه وعازماً على العمل به

وجلست وحدى يشغلنى نفس السؤال الذى يطاردنى كلما استشارنى قارىء جديد .. ترى هل أشرت عليه بما فيه صلاح أمره ؟.. أم ترانى قد جانبنى الصواب فأسهمت من حيث لا أدرى فى تعقيد حياته ؟.

وشغلنى السؤال حتى كاد يفسد على سعادتى .. ثم تنهدت متذكراً قول الإمام ابن حزم الأندلسى .. إنى أتبع الحق .. وأجتهد .. ولا أتقيد بمذهب !

وطمأنت نفسى إلى أنى إذا كنت لا أستطيع أن أزعم دائماً بأنى أتبع الحق فلعلى أستطيع على الأقل أن أزعم أنى أجتهد .. أو أحاوله والله عليم بذات الصدور .



اسطوانة الضحك !

** هل هو اكتشاف جديد .. أن لكل إنسان من حظه ما يسعده .. ومن همه ما يشقيه ؟ لا ليس اكتشافاً .. ولا جديدا لكنها حقيقة من حقائق الحياة التي نعرفها جميعا .. ونتجاهلها أحيانا.. أما أمثال الشعوب ففيها ما يترجم هذه الحقيقة في عبارات موحية وموجزة ، وأما المثل الشعبى المصرى الذى يتناولها فيعجبنى كثيرا .. وأتذكره مرارا في مفارقات الحياة العديدة وأعزّى به الآخرين .. وأتعزّى ، وأما كلماته العبقرية فلا تقول سوى أن « البرد بقدر الغطاء » بمعنى أن من أعطته الحياة مالا كثيرا مثلا يزيد إحساسه ببرد الشتاء فيحتاج إلى الأغطية الثقيلة والتكييف الدافىء .. والمدفأة المشتعلة ، وتتجمد أطرافه من البرد إذا افتقد كل ذلك ، أما المحروم من المال فاحتماله للبرد أكبر ومقاومته للانفلونزا أشد .

وفي مسرحية « الثمن » للكاتب الأمريكى أرثر ميللر ، تبدأ المسرحية بدخول رجل البوليس فيكتور (٥٠ سنة) إلى صالة شقة الأسرة القديمة بعد أن صدر القرار بهدم المبنى المهجور ، فيتجول في الشقة التي شهدت طفولته مع شقيقه ، ويتفحّص الأثاث القديم الذي خلفه أبوه ويستعيد

ذكرياته قبل أن يأتي تاجر الأثاث الذي سيشتري محتويات الشقة . ويعثر فيكتور على اسطوانة قديمة كانت منتشرة في أمريكا في العشرينات اسمها اسطوانة الضحك ، عليها تسجيل لشخصين يضحكان بصفة متواصلة ، يبدآن فى البداية بالضحك الهادىء .. ثم يتحمسان تدريجياً فيستغرقان في ضحك صاخب سعيد ، ثم تتلاحق ضحكاتهما بهستيرية حتى تتقطع أنفاسهما من الضحك وهكذا بصفة مستمرة أكثر من ٢٠ دقيقة .

ويتذكر الاسطوانة القديمة .. ويضعها فى الفونوغراف الأثرى ويسمع الضحكات الأولى باسماً .. ثم تتسع ابتسامته مع تصاعد الضحكات ثم يستغرق فى الضحك من قلبه ناسياً همومه للحظات .

وتدخل زوجته وهو يضحك ، ونعرف من حوارهما أن هناك جرحاً قديماً بينه وبين شقيقه الطبيب الناجح حال دون اتصالهما لمدة ست عشرة سنة ، وأن فيكتور قد اتصل بشقيقه فى عيادته ليبلغه بقرار هدم بيت الأسرة وبأنه سيبيع الأثاث القديم ويعطيه نصف الثمن فرفضت الممرضة أن تمكنه من الاتصال به بحجه أنه مشغول !

وفى انتظار تاجر الأثاث نعرف أن الأب كان رجل أعمال وأفلس فى الأزمة الاقتصادية التى سبقت الحرب العالمية الثانية وتحول إلى حطام يائس ، يمضى نهاره جالساً على هذا الكرسى الهزاز ، وأن فيكتور رجل الشرطة الآن كان متفوقاً فى دراسة العلوم فى صباه وينتظره مستقبل كبير، لكنه اضطر لأن يقطع دراسته ويخرج للعمل ، لأن شقيقه الأكبر «والتر»

اختار أن يواصل دراسته ليصبح طبيباً ورفض أن يدفع لأبيه أكثر من ٥ دولارات كل شهر بعد أن تخرج وبدأ عمله .

واعتبر فيكتور نفسه مضحياً من أجل الأسرة ومن أجل أن يواصل شقيقه الأكبر دراسة الطب ويحقق أحلامه فى النجاح .

ثم لاحت له فرصة فى منتصف الطريق لأن يستكمل تعليمه ويحصل على الشهادة التى انقطع عن دراستها ، إذا أقرضه شقيقه الطبيب مبلغ ٥٠٠ دولار لكى يعول نفسه والأسرة لمدة عام واحد يعود خلاله للدراسة ويتوقف عن العمل .. لكن شقيقه خذله ورفض أن يقرضه المبلغ .. وطلب منه بدلاً من ذلك أن يطلبه من أبيه ! وتعجب فيكتور من أن ينصحه شقيقه بذلك وهو يعرف أن أباه مفلس تماماً ويعوله ابنه .

وهكذا تحددت أقدار الشقيق المضحى ، ورضى من الحياة بوظيفة رجل شرطة وتزوج وأقام مع زوجته فى حجرة مفروشة وحرم نفسه من الضروريات ليعطى أباه المبلغ الشهرى الذى يعينه على الحياة .

فى حين واصل شقيقه «الأنانى» طريقه وأصبح طبيباً ناجحاً وثرياً وأقام فى فيللا جميلة وتزوج زواجاً لامعاً وامتلك عدداً من بيوت المسنين وانشغل بإدارتها وبجمع المال عن ممارسة الطب .

وبعد ستة عشر عاماً من انقطاع الصلة بينهما اتصل فيكتور بعيادته ليبلغه ببيع الأثاث فرفضت الممرضة أن تحول إليه المكالمة .

وجاء تاجر الأثاث اليهودى العجوز وانشغل فيكتور وزوجته استر

بمساوماته ثم فجأة دخل الشقة القديمة زائر مهيب ! إنه والتر الطبيب الثرى الكبير يجىء إلى شقة الأسرة بعد غياب طويل ، ويحيي شقيقه وزوجته ويتجول بين الأثاث القديم ويسترجع الذكريات ويبدو هذه المرة راغباً فى إزالة الجليد بينه وبين شقيقه الوحيد وفى استعادة صداقته ويعرض عليه بدلاً من بيع الأثاث بألف دولار فقط أن ينقل ملكيته إلى اسمه ويتبرع به لإحدى دور المسنين ، ويستفيد من ذلك خصم ١٢ ألف دولار من ضرائبه ويعطى شقيقه نصفها . لكن فيكتور يتردد فيعرض عليه شقيقه أن يتنازل له عن المبلغ كله بل ويعرض عليه وظيفة فى مؤسسة طبية يملكها ليعود إلى مجال العلوم الذى أحبه فى صباه ، لكن فيكتور يتردد ثم تنفجر الأزمة المكتومة بينهما ، ويعرض كل منهما وجهة نظره ورأيه فى الآخر ، ونعرف أن فيكتور يعتبر شقيقه خائناً للأسرة ، وأنه تخلى عن أبيه بعد انكساره جرياً وراء طموحه أو وراء «سباق الفئران» لتحقيق الأحلام ، فى حين ضحى هو بنفسه وطموحه ليوفر لأبيه الأمان ، وبينما كان هو وأبوه يأكلان من صناديق القمامة ، كان والتر يعيش حياة فاخرة ولايرسل لأبيه إلا دولاراته الخمسة كل شهر .

ويدافع والتر عن نفسه بأنه لم يتخل عن الأسرة ولم يكن نذلاً لكنه فقط أدرك فى الوقت المناسب أنه لا ضرورة للتضحية المطلوبة منه فلم يقدمها ، فلقد عرف منذ وقت مبكر أن أباه لم يكن مريضاً بل كان قادراً على العمل ومحبطاً فقط بعد إفلاسه كما اكتشف سر الأب «الخفى» وهو أنه يملك فى البنك أربعة آلاف دولار تبقت له من تجارته وطلب منه أن

يستثمرها له وقد تكتم أمرها عن ابنه المضحى لخوفه الشديد من الحاجة فى المستقبل ، وعاش عالة على ابنه هذا وعلى دولارات الابن الآخر التى لم تزد على خمسة لهذا السبب بالذات يتهم والتر شقيقه بأنه كان يعرف أنه لا حاجة لتضحيته بمستقبله لكنه استراح إلى اعتبار شقيقه «وغد» الأسرة وإلى اعتبار نفسه شهيداً بلا قضية .

وينتفض فيكتور وهو يرى تضحيته بمستقبله وحياته تذهب هباء ويتهم شقيقه بأنه يريد أن يتجاوز عن ثمانية وعشرين عاماً من حياتها بخطوة واحدة ويعيد المياه إلى مجاريها قبل الأزمة .. ويقول له عبارة لها معنى عميق :

إنك لاتستطيع أن تقفز ثمان وعشرين سنة كاملة بقفزة واحدة .. فهناك دائماً «ثمن» يدفعه الناس لأفعالهم .. وأنا دفعت ثمن ما فعلت وأنت قد دفعت ثمن مافعلت .

وينتهى الحوار برفض فيكتور لعرض شقيقه بالعمل معه ورفضه لنقل ملكية الأثاث إليه ، ويختار أن يبيعه بالثمن الزهيد لتاجر الأثاث اليهودى المتربص وينصرف والتر من الشقة يائساً من استعادة ود شقيقه.

ونعرف «الثمن» الذى أشار إليه فيكتور فى حواره مع الشقيق ونكتشف من حديث والتر أنه يعتبر فيكتور أسعد منه رغم حياته البسيطة ومتاعبه المادية وعمله غير المرموق فزوجته تحبه وهو يحبها وابنه

الوحيد متفوق فى دراسته وحصل على منحة التفوق فى الجامعة وانتقل للاقامة فى المدينة الجامعية وقد استمتع دائماً بحب زوجته وابنه وبالرضا عن نفسه أما هو فلقد دفع الثمن بشكل آخر .. فلقد خسر حياة الأسرة..

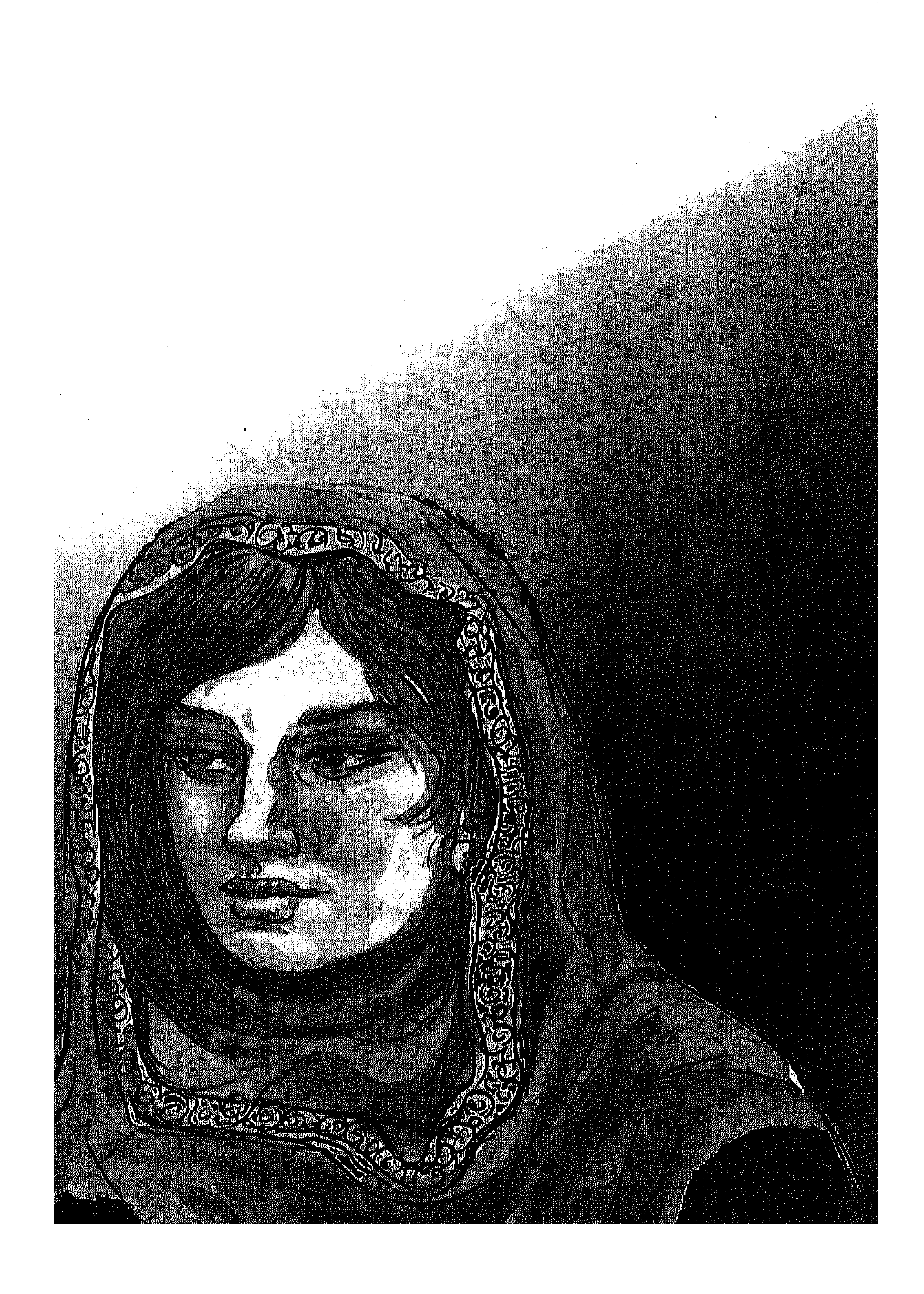
وحاول ذات صباح قتل زوجته التى لم تحبه ولم يسعد معها يوما واحداً بسكين المطبخ ثم طلقها وأصيب بانهيار عصبى استمر لعدة شهور ثم شفى منه وقد فقد رغبته فى النجاح وجمع المال وتخلى عن استشاراته الكبيرة فى بيوت المسنين .. وعاد لممارسة الطب فى عيادته بلا رغبة .. ولاحماس وحتى شقيقه الوحيد يرفض أن يمنحه صداقته ويرفض أن يتغاضى عما جرى منذ ثمانية وعشرين عاماً .

ويتقاضى فيكتور ثمن الأثاث من التاجر وينصرف مع زوجته للذهاب إلى السينما وهو يعتزم أن يرسل لشقيقه نصف الثمن ، وينفرد التاجر العجوز بنفسه فى صالة الشقة فيعيد فحص الأثاث وتسجيله فى دفتره ويجد اسطوانة الضحك فى الفونوغراف فيديرها ..

وتنساب الضحكات هادئة فى البداية ثم صاخبة .. ثم هيستيرية .. فيسرى إليه الضحك تدريجياً حتى يغرق فيه ويفقد السيطرة على نفسه فيضحك بعنف وهو جالس على كرسى الأب الهزاز حتى يكاد يعجز عن التنفس ويسدل الستار على مسرحية «الثمن» ويتركنا المؤلف أرثر ميللر عامداً غير قادرين على أن نحكم لأحد الشقيقين ضد الآخر ..

لكى نفهم أن لكل منهما بعض العذر فيما فعل! ورغم تعاطفنا مع الشقيق المضحى إلا أنه يشتتنا بينه وبين منطق الشقيق الآخر الذى رأى مبكراً كما قال إنه لم يكن هناك شيء يمكن التضحية من أجله .. لكننا «نخترع أنفسنا لكى نخفى ما نعرف»! أما مالا نتردد فى الحكم عليه .. فهو أن كلاً منهما قد دفع ثمن ما فعل .. ونال من الحياة مقابله العادل .. وأنه فى «سباق الفئران» لتحقيق طموحات الحياة لكل شيء مقابل .. ولكل اختيار ضريبة يؤديها الإنسان راضياً أو ساخطاً .. ولكل إنسان من حظه ما يرضيه .. ومن همه مايشقيه كما أن البرد دائماً على قدر الغطاء والحر أيضاً على قدر كفاءة جهاز التكييف وقدرة الإنسان على دفع فاتورة الكهرباء وكلنا نعرف ذلك ونؤمن به وان تجاهلناه أحياناً .

وكلنا أيضاً فى حاجة إلى اسطوانة الضحك هذه .. لكى تنقل إلينا عدوى الابتهاج .. والسعادة .. لكى نضحك على مفارقات الحياة .. بعد أن بكينا طويلاً منها ! .



لهـيب النـــار

** تلقيت هذه الرسالة منذ أيام : أكتب إليك من إحدى المدن العربية بعد قراءة مقالك «إلهام زعلانة» على صفحات مجلة «زهرة الخليج» وإلى أن تتصالح مع الفاتنة إلهام اسمح لى بأن أنتحل شخصية «إلهام » هذا الأسبوع لأحملك أمانة تنشرها عن لسانى لكل أب وأم قد يجنيان بقصد أو بغير قصد على أبنائهما ويصلان بهم للحالة التى أنا فيها الآن .. فأنا يا سيدى فتاة فى الرابعة والعشرين من عمرى وقد تخرجت من ثلاث سنوات من إحدى الكليات النظرية المرموقة ، وأجيد اللغة الانجليزية ، وخلال سنوات مابعد التخرج التحقت بدراسة الماجستير من جامعة مانشيستر بالمراسلة ، وأنا الآن على أعتاب الامتحان النهائى.. وإلى هنا ربما تقول لا توجد مشكلة خاصة واننى والحمد لله لايقل جمالى عن مستوى ذكائى بشهادة الجميع ، بالإضافة إلى أن مستوانا المادى فى بلدى معقول .

وتبدأ حكايتى منذ وعيت للحياة فوجدتنى الكبرى بين خمسة إخوة كلهم فى أعمال متقاربة ، ووجدت أبى يفعل المستحيل لإرضائى ويفتخر بى وبتفوقى وجمالى ، فأحببته من كل قلبى ، ولكن على النقيض

من ذلك ، كانت أمى التى كانت تحاول دائماً التقليل من شأنى أمام الناس ، وتتهمنى بالتدلل الزائد وعدم الشعور بالمسئولية ، ويكفى أن تعلم أنها أدخلتنى إحدى المدارس الداخلية للغة الفرنسية ولم يتجاوزر عمرى أربع سنوات بحجة أنها تريد تربيتى على أرقى مستوى ، وأثَّر ذلك على حياتى ، فانغلقت على نفسى إلى أن وصلت إلى الثانوية العامة، وكنت قد وصلت لدرجة من الجمال دفعت أمى لأن تخاف من جمالى على أختي الصغرى ، فحاولت إجبارى على الزواج من أول طارق لبابنا واتبعت كل الوسائل حتى وصلت للتهديد بحرمانى من التعليم وكنت قد أنهيت الثانوية العامة وحصلت على مجموع يؤهلنى لدخول كلية الطب ولكننى لم أكن أرغب هذا النوع من الدراسة فكان رفضى لها القشة التى قصمت ظهر البعير ، وثار أبى فى وجهى لأول مرة واتهمنى بأننى أريد أن أخذله أمام العائلة ، وانتهزت أمى سامحها الله الفرصة لتزيد النار اشتعالاً ووجدتنى على حافة الانهيار ، وأصررت على اختيار مستقبلى بنفسى ودخلت الكلية التى تشبع رغباتى ، وأمضيت العام الأول كله بمنحة التفوق التى كنت أحصل عليها من الجامعة ، لأن أبى رفض إعطائى أى نقود لمخالفتى لأمره .

ومرت السنوات الجامعية الأربع وأنا فى شبه صراع دائم معهما إلى أن تخرجت وحصلت على البكالوريوس بتفوق وقررت السفر ؛ لأبتعد عن أسرتى وساعدتنى الظروف فى الحصول على إقامة بإحدى دول الخليج وجئت إليها للعمل وأنا لم أكمل بعد الثانية والعشرين من عمرى ، بعد

صراع ومجادلات رهيبة مع أسرتى ، وعملت بأحد البنوك بمرتب مغر وإلى هذه اللحظة لم يكن قلبى قد انفتح لأحد ، ومضت الشهور الأولى من عملى وأنا سعيدة وفخورة بما حققته إلى أن جاء يوم وعرفت بالصدفة عن علاقة كانت قائمة بين إحدى الزميلات وواحد من الموظفين من إحدى الدول الإسلامية غير العربية ، وانه تم نقله إلى مدينة أخرى بعد فشل علاقته بها ، وذات يوم سمعت أن هناك زميلاً جديداً تم نقله إلى فرعنا اكتشفت أنه نفس الشخص الذى سمعت عن علاقته بتلك الفتاة ولا أعرف على وجه التحديد ما الذى شدنى إلى هذه القصة لأعرف أسباب نهايتها، وتحريت الأمر فعرفت ان أباه وأمه رفضا زواجه منها بحجة انه لا بد من زواجه من بنت خاله .. وبعد فترة لاحظت اهتمام هذا الزميل الجديد بى وأنه دائم التواجد فى أى مكان أكون فيه إلى أن جاء يوم حصل فيه على أجازته السنوية وسافر لبلده ، فإذا بقلبى يصرخ بين ضلوعى مفتقداً وجوده ، ولم يكن هناك سبيل بعد ذلك لإنكار حبى ، فقد وجدتنى مجنونة بحبه لدرجة يصعب معها التراجع أو النسيان ، أما هو فكان الحب ينطق فى كل تصرفاته ، ومن هنا بدأت المعركة الكبرى بينى وبين تلك الفتاة التى انقطعت علاقتها به .

واستمرت المعركة مشتعلة إلى أن جاء يوم أخبرنى فيه أن أمه طلبت منه العودة فوراً لبلده بحجة حضور حفل زفاف أخيه وصممت على السفر معه لأعرف ماذا حدث بالضبط بإحساس الأنثى الذى ينبهها للخطر فثار وهاج عندما علم اننى حصلت على تأشيرة دخول لبلده ،

خاصة وأن كل الزملاء قد عرفوا بقصتنا ورفض سفرى معه فتركته يسافر وحده ، ولك أن تتصور حجم المعاناة التى عشتها بعد ذيوع قصتى معه ، فقد أصبح كثيرون يتشفون فىّ ووسط معاناتى الشديدة، اتصلت بأبى أستنجد به أن يحضر إلىّ ولو لشهر واحد مع تحملى كافة التكاليف ليشد أزرى فى أزمتى ووافق بعد أن بكيت فى التليفون ووعدنى بإرسال صور جواز سفره حتى أتمكن من استصدار تأشيرة دخول له ، ولكنه بعد أيام قليلة عاد ورفض بحجة أن إخوتى يحتاجونه أكثر منى ، وتركنى أواجه مصيرى كما تعودت طوال عمرى وحيدة . وعاد «حبيب القلب» الذى ياليتنى ما عرفته ليبكى بين يدى ويندم ، وظننت أنه يبكى لموقفه منى قبل سفره ولكن بعد فترة عرفت أن أمه قد علمت بأمر حبه وأنه أرسل لها يخبرها أنه ينوى الزواج منى ، فاستدعته وخلال تواجده هناك أسرعت بإعلان خطبته على ابنة خاله بكل وسائل التهديد ، ونظراً لظروف والده الصحية والذى توفى بعد ذلك بشهر واحد وافق !.

ووجدتنى أقف فى منتصف الطريق لا أستطيع العودة من حيث بدأت ، لأن كل الناس علموا بأمر ارتباطنا ولا أستطيع الاستمرار لأننى لاأقبل أن أكون رقم ٢ فى حياته .

ومرت الشهور كئيبة وهو يحاول استرضائى وإفهامى أنه أُجبر على ذلك لأن هذه هى تقاليدهم وعاداتهم . وقررت أن أقطع تلك العلاقة مهما كان الثمن ولكن كان لابد من عمل ليس بعده أدنى أمل فى استئنافها فهل تعرف ماذا فعلت ؟

لقد استغللت تلك الخطابات الملتهبة بيننا والمكالمات التليفونية التى كانت تستمر لساعات وذهبت لشرطة العاصمة وادعيت أنه يعاكسنى ويحرضنى على ما يغضب الله .. نعم يا سيدى أنا التى لم أوذ إنساناً طوال حياتى أفعل ذلك . ومع من ؟ مع أول وآخر إنسان نبض له قلبى وكأنها أخرجت قلبى من صدرى ودست عليه بقوة . وبرغم أننى تنازلت فوراً عن الدعوى ولم يتعرض لشىء سوى لساعة من التحقيق فى الشرطة إلا أن مدير فرع البنك وهو من نفس جنسيته وكان قد حاول طويلاً أن يستميلنى إليه وجد فيها فعلت فرصته الذهبية فأسرع بإبلاغ الإدارة العامة وحضر فوراً مسئول للتحقيق فى الموضوع ووجدت أن مستقبله يضيع بسببى فصممت على أن أنقذه من تلك الورطة حتى ولو كان الثمن سمعتى واسمى . وعندما سألنى ذلك الشخص المكلف بالتحقيق والذى لايقل نذالة عن مديرى عما حدث كانت اجابتى مفاجأة للجميع إذ قلت لهم «إننى فعلت ذلك بدافع الغيرة العمياء عندما خطب ابنة خاله وأنه لم يفعل أى شىء وأنى المخطئة أولاً وأخيراً !

وبالفعل اكتفوا إزاء شهادتى هذه بنقله إلى فرع البنك فى مدينة أخرى واشتعلت نفوسهم حقداً وغيرة وحسداً لذلك الحب فبدأوا يعملون ضدى فى الخفاء وأذاقونى العذاب فى عملى ومستقبلى فأعلنت التحدى للجميع وطلبت نقلى إلى أقرب مدينة نقل إليها حبيبى فهددونى بفصلى من العمل . ولم أتراجع وأرسلت لشئون الموظفين بحكايتى فجاء قرار

نقلى من مسئول أكبر منهم وربما تسألنى لماذا فعلت هذا برغم أننى التى أردت إبعاده عن طريقى ؟

وأقول لك لأننى أدركت فى تلك اللحظة فقط أن القدر هو الذى جمعنا من أقصى الشرق وأقصى الغرب لنلتقى وتنشأ بيننا هذه القصة الدامية . وتم نقلى إلى المدينة التى لا تبعد عن مدينته سوى عشر دقائق بالسيارة ، وعندما وجدوا ألا فائدة منى اتجهوا إليه وهددوه ليس فقط بفصله وإنما بالغاء إقامته وإعادته ثانية لبلده .

ورغم انقطاع علاقتنا ظاهرياً أمام الناس إلا أن الحب ظل مشتعلاً فى الأعماق ومرت الأيام وهو يماطل فى عودته إلى بلده حتى لايضطر لإتمام زواجه إلى أن صدر قرار بنقل ذلك المدير الدنىء الذى كان وراء نقلى ونقله وقبل أن يغادر الدولة التى نعمل بها ذهب إلى فتاى من منطلق أن فى يديه السلطة لانهاء خدماته بكتابة تقرير سيىء عنه وحذره من أن يعيد تلك العلاقة معى وإلا فسيطلب من الادارة نقله ليعمل معه فى البلد الذى نقل إليه .

وجاء إلى ليهددنى فكتبت له استقالتى وقلت له «سأكون شاكرة أن تقبلها أما أنت فليس لك أدنى حق فى أن تتدخل فى حياتى الخاصة» وأكثر من ذلك فقد قررت الإقدام على خطوة جريئة هى أن أسافر إلى بلد حبيبى وأنا فى طريقى إلى إنجلترا لاداء الامتحان ..

وسافرت والتقيت بأهله وفى البداية لم يرحبوا بى كما توقعت ولكنهم

قبلوا بعد ذلك بالأمر الواقع وانقسموا على أنفسهم فمنهم من أحبنى وقبلنى تماماً كأخته وزوجة أحد إخوته ومنهم من قبلنى ولكن بتحفظات كأمه التى لمحت فى عينيها نظرات الإعجاب والحب لى ومنهم من لم يقبلنى بالمرة مثل أحد إخوته الذى شعرت بغيرته من أخيه بسببى ، أما هو فعندما علم بأمر وجودى فى بلده كان يتصل بمعدل كل ساعة بالتليفون ليطمئن على معاملتهم لى واستحلفهم بكل يمين ألا يمسونى بسوء وأن يعاملونى باحترام . وامتصصت كل استفزازاتهم وحققت الغرض من رحلتى وهو أن أجعلهم أمام الأمر الواقع وحتى يكون اختيارهم عادلاً فلا يظنون أننى مجرد فتاة تافهة تريد اختطاف ابنهم أو اقامة علاقة سيئة معه ..

والآن يا سيدى ومنذ عودتى من بلده ازداد حباً واحتراماً لى وقد قُبلت استقالتى وعوضنى الله عنها بعمل أفضل باحدى الدوائر الحكومية هنا أما هو فقد أجبروه على الاستقالة أو قطع علاقته بى فاختارنى واستقال من عمله .

وبقدر حزنى لفقده عمله بقدر سعادتى لأنه اختارنى ولأن مؤهلاته وخبرته تيسران له الحصول على عمل آخر بالإضافة إلى شىء هام هو أنه تبعاً لقوانين العمل هنا فإنه إذا التحق بعمل جديد لا يستطيع الحصول على أجازة سنوية والسفر لبلده قبل عام آخر وبالتالى يتم تعليق زواجه لفترة أطول وهذا ما يريده هو أن يماطل فى الزواج إلى أن يأتى الرفض من ناحيتهم .

وقد حددت موقفى الآن وهو إما الزواج أو الفراق خاصة وأن الظروف قد تهيأت لنا الآن فقد تركنا البنك وبعدنا عن أسباب المشاكل وأوضاعنا المادية جيدة ولدى كل منا شقة كاملة ولسنا مراهقين أو صغيرين وقد خيرته وتركت له كامل الحرية فى الاختيار وسلاحى فى ذلك حبه لى ، ويقينى بأنه لايستطيع البعد عنى فهل تعتقد أن حبى وإخلاصى الذى لا حدود له سيمكنانى من تحطيم تقاليد بالية وعادات لم ينص عليها دين ولاشرع خاصة وهو يعلم جيداً أننى لو كنت أبحث عن مجرد زوج لتزوجت أكثر الشباب غنى وتعليماً ووسامة .. أرجوك انصحنى وفكر معى بصوت عال لكن أرجو ألا تكون نصيحتك لى باللجوء إلى أهلى الأعزاء سامحهم الله واعتبرنى فتاة وحيدة يتيمة .. وسأنتظر ردك فى مجلة «زهرة الخليج» .

هذه هى الرسالة التى تلقيتها من قارئة مقيمة بإحدى المدن العربية ولها أقول :

من المؤسف حقاً ألا تنتهى هذه القصة الملتهبة نهايتها الطبيعية بالسعادة والزواج .

ومن المؤسف أكثر ألا يكون فتاك قد اقتنع بعد كل هذه الأهوال بضرورة أن يتزوجك وأن يتدبر أمره مع ابنة خاله لكيلا يظلمها ويتزوجها وقلبه رهين لديك وقد يكون زواجك منه ضد العرف والتقاليد .. وقد يحمل لك بذور مشاكل يدفع ثمنها الأبناء فيما بعد حين يحملون جنسية

أبيهم ويتشتتون بين بلدك وبلده وقد وقد .. وقد ، ومع ذلك فمن المؤكد أن زواجكما أفضل كثيراً من استمرار هذه العلاقة بلا زواج وبلا هدف مشروع لها . فأنت فيما يبدو لى قد جعلت هدف حياتك هو الارتباط بهذا الشاب وتحملت فى سبيل ذلك أهوالاً عديدة .. وقدمت تضحيات كبيرة.. وأقدمت على خطوة جريئة وعجيبة بزيارة أهله وطرح نفسك عليهم ومحاولة اكتساب تأييدهم لمشروع زواجك منه رغم علمك بارتباطه المسبق بقريبته .

ورغم مصادمة ذلك لكل الأعراف والتقاليد المرعية ومن كان هذا هو حالها فإن الأكرم لها أن تتزوج بمن تحب حتى ولو تحقق زواجها على حساب ضحية أخرى كابنة خاله .. فالحق أن زواجه من قريبته لن يعرف الاستقرار وأنت على ظهر الكرة الأرضية ! ولعله من الأكرم لها أن تجنبَّاهَا الشقاء من البداية عسى أن يجمعها الله بمن يرغبها ويرى فيها أمله بعيداً عن قريبها المسلوب القلب والإرادة معك .

اننى لا أناقش الآن حدود الخطأ والصواب فيما فعلت ومن تحصيل الحاصل أن أقول لك : إنك قد تجاوزت مراراً الخطوط الحمراء فى القصة منذ البداية .. وإن الاكتفاء بلوم الأهل وإن كانوا يستحقون اللوم فعلاً ، ليس كافياً لتبرير أخطائنا لأن الخطأ لايبرر الخطأ .. ولأن غياب دور الأهل فى حياتك إنما يضاعف من مسئوليتك عن نفسك وعن ضرورة التزامك الخلقى لحماية نفسك من الأخطار ولهذا كله فلن أقول لك سوى أن ما جرى قد جرى وينبغى عليك الآن أن تتمسكى بموقفك

الذى حددتيه والذى تأخر طويلاً وأن تضع الأمر أمامه ببساطة هكذا : إما زواج عاجل وأما فراق نهائى وبدء حياة جديدة .. ومغالبة النفس لنسيانه ولو بعد حين ولو تطلب الأمر الهجرة إلى دولة أخرى وعمل آخر، فإن كان اقتناعه بك كاملاً فلسوف يواجه كل التحديات ويتغلب على كل الصعاب ويرتبط بك ، أما إذا كان يحبك فقط وليس مقتنعاً بك فى قرارة نفسه كزوجة أو كانت تساوره مشاعر الخوف منك ومن جرأتك فى أعماقه ويراك غير صالحة لأن تكونى زوجة له ، فمن الشجاعة مع النفس ومن العدل مع الآخرين أن يعترف لنفسه بذلك وأن يصارحك بالحقيقة فقد يكون يحبك فعلاً لكن حبه ليس قوياً بالدرجة التى تعينه على قبول التحدى والتضحية من أجلك، وقد يكون لايحبك أنت بقدر ما يحب حبك له ويرضيه كرجل تحديك للجميع من أجله لهذا فلا بأس باستمرار الحب أما الزواج فشىء آخر .

والحقيقة يا آنستى مهما كانت مؤلمة أفضل كثيراً من الوهم . والجراح تبرأ بعد حين أما الاستمرار فى تجاهل الحقيقة فلا عائد له فى النهاية إلا الضياع . وكل ما أرجوه منك هو ألا تضعفى .. وألا تتخلى عن حزمك المتأخر جداً هذا وألا تقدمى له أى دليل جديد على الحب ولا أى تضحية أخرى من أى نوع فلقد حان دوره هو الآن ليقدم التضحيات وليثبت لك بالدليل صدق مشاعره تجاهك ورغبته فيك وما أسهل الدليل على من يريد صادقاً الارتباط بمن يحب وما أصعبه على المراوغين والضعفاء والمترددين والعابثين .. ومن يتفننون فى التماس الأسباب

والاعذار لبقاء الحال على ماهو عليه وتأخير لحظة الاختيار النهائى بين الزواج وبين الفراق لاطالة القصة لأطول مدى ممكن وللاستمتاع برشفات الحب الأخيرة قبل أن يواجهوا الواقع المر ويمضوا فى الطريق العكسى .

وأنى لأرجو صادقاً ألا يكون فتاك واحداً من هؤلاء .. وأن يكلل الله قصتك العجيبة هذه بالاستقرار والأمان .

كما أرجو ألا تحتاجى مرة أخرى للاستعانة بالشرطة «على نسيان» الحب كما فعلت فى نوبة طارئة من نوبات الانتقام وألا تستعينى إذا ما انتهت القصة علي غير ما تريدين ، إلا بعقلك وحكمتك وصبرك على مجاهدة نفسك لنسيان مالا حيلة لنا أمامه إلا النسيان إذا ضنت علينا الحياة به .

الفهرس

كتب للمؤلف

	الطبعة الأولى	الطبعة الثانية
١ـ أصدقاء على الورق (قصص إنسانى)	٨٦	نفد
٢ـ يوميات طالب بعثة (أدب رحلات)	٨٧	نفد
٣ـ هتاف المعذبين (قصص إنسانى)	٨٨	نفد
٤ـ صديقى لاتأكل نفسك مقالات وصور أدبية	٩٠	٩٢
٥ـ نهر الحياة (قصص إنسانى)	٩٠	٩٣
٦ـ صديقى ما أعظمك ! مقالات وصور أدبية	٩١	٩٣
٧ـ العصافير الخرساء (قصص إنسانى)	٩١	٩٣
٨ـ العيون الحمراء (قصص إنسانى)	٩٢	٩٣
٩ـ إفتح قلبك (مقالات وصور أدبية)	٩٢	
١٠ـ وقت للسعادة .. وقت للبكاء (مقالات وقصص إنسانى)	٩٣	
١١ـ أرجوك لاتفهمنى (مقالات وصور أدبية)	٩٣	
١٢ـ رسائل محترقة (قصص إنسانى)	٩٣	
١٣ـ أزواج وزوجات (قصص إنسانى)	٩٣	
١٤ـ إندهش يا صديقى ! مقالات وصور أدبية	٩٣	

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
ت: ٣٠٣٦٠٩٨

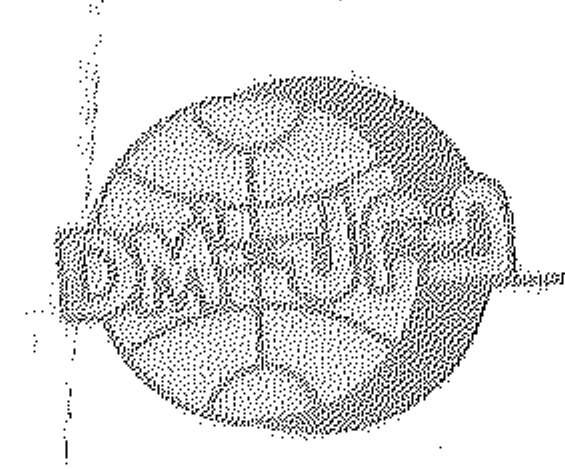
وقت للسعادة ..
وقت للبكاء !

يسعد الدار المصرية اللبنانية أن تقدم هذا الكتاب الجديد للأستاذ الأديب عبد الوهاب مطاوع .. وقد سبق أن قدمنا له كتاب «العيون الحمراء» الذى نفدت طبعته الأولى خلال شهور قليلة فأصدرنا له طبعة ثانية .

ولقد اكتسب الاستاذ عبد الوهاب مطاوع ثقة قرّائه ، فهم يلجأون إليه عندما تعصف بهم المتاعب ، أو تلم بهم المُلِمّات ، لعلهم يجدون فى كلماته الودودة الحنون ، رحمة بمشاعرهم الأليمة، أو مشاركة وجدانية فيما يصادفونه من أتراح وأفراح .. وهذه هى الرابطة الإنسانية بين الكاتب وقرّائه فى أجلى وأحلى معانيها .

وحين حصل الكاتب على جائزة مصطفى أمين وعلى أمين الصحفية ، كتبوا له فى صك الشهادة : أنه «أحسن كاتب يكتب فى المسائل الإنسانية» .. وهو قولُ صدقٍ وحق ، ينطبق تماماً على أوضح مايتصف به هذا الكاتب الأديب الإنسان .

«الناشر»



الدار المصرية اللبنانية

طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO